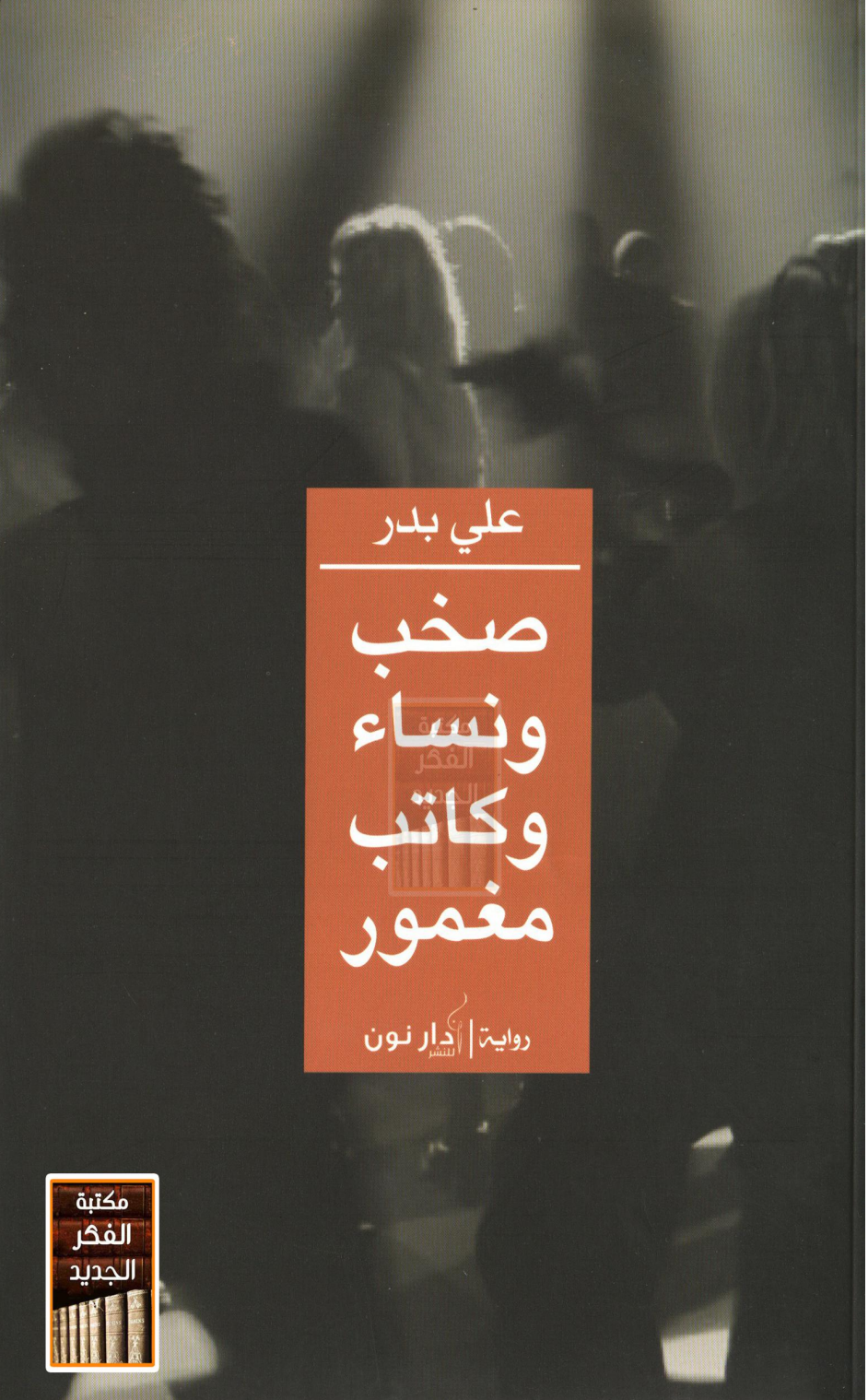

علي بدر

صخب ونساء وكاتب مغمور

رواية

دار نون للنشر

مكتبة الفكر الجديد

صخب ونساء وكاتب مغمور

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

علي بدر

صخب ونساء وكاتب مغمور

دار نون للنشر

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

مقدمة

بقلم ميتي غريس

تدور أحداث رواية «صخب ونساء وكاتب مغمور» في بغداد، حول مجموعة من الشباب العراقيين الحالمين بالهجرة إلى خارج البلاد. البطل الرئيسي الذي يروي الأحداث بضمير المتكلم، كان جندياً في حرب عاصفة الصحراء، من جهة بلاده في العراق، وللاسم دلالة في التاريخ الإمبريالي الحديث للغرب. بعد نهاية هذه الحرب التي لم تعرض الرواية وجهها بشكل مباشر، وجد نفسه من دون عمل، ومن غير مستقبل تماماً.

زمن الرواية: هو عقد التسعينيات حيث كانت العقوبات الدولية على العراق، والتي تسمى في الرواية بزمن الحصار، على أشدها، وهو زمن آخر يربطنا نحن الذين نعيش في الغرب تاريخياً مع هذه البقعة من العالم.

في المشهد الافتتاحي من الرواية، يتناول البطل وهو كاتب مغمور عشاءه في مطعم راق في بغداد، مع مهاجر وصديقته، يقطن هذا المهاجر في لندن منذ عشرة أعوام. فيتحدث الثلاثة عن الهجرة إلى الغرب. ومن خلال الحوار، يبدي البطل رغبته بالهجرة خارج البلاد، بأي سبيل.

يترك البطل عائلته كي يكرس نفسه للكتابة، وينتقل إلى أستوديو صغير يورثه عن جده في حي للطبقة الوسطى في بغداد. هذا الانتقال يمنحه إحساساً بأنه سيصبح كاتباً كبيراً، طالما يعيش وحده مثل الكتاب الكبار، فيبحث عن مصدر إلهام لكتابة روايته، فيتخذ من النافذة أو من المسير في الشوارع وسيلة جيدة كي يتذكر أو كي يحكي حياة الناس الذين يعرفهم في الشارع.

مكتبة الفكر الجديد

تنتهي روايات البطل في الحديث عن عائلة سيدة تركمانية، سعاد، جاءت مهاجرة من شمال العراق إلى العاصمة في الخمسينيات والستينيات، فيروي حياتها من خلال تنقلها بين العديد من العشاق والأزواج، هذه السيرة الغرامية في الظاهر، هي حجة للرواي كي يدون من خلالها أهم اللحظات التاريخية التي مرت على العراق خلال نصف قرن تقريباً.

بعد هذا الجزء الافتتاحي الذي يهيئ فيه الراوي المكان، حيث يستعيد تاريخ المكان وتاريخ الأشخاص في وقت واحد، كما لو كانت مسرحاً كبيراً، ينتقل الراوي ليروي حياة أبطاله. فنعثر من خلال سرد متمهل وبلغة عالية الوصف على ثلاث شخصيات رئيسية، تستجيب لحبكة الرواية إلى النهاية، وهم عباس ابن سعاد التركمانية ويعمل مصلحاً للساعات، يعرفه راوي الأحداث منذ مراهقته، وشقيقته تمارى، وشخص آخر، اسمه وليد، وهو شخصية نادراً ما نعثر عليها في الرواية العربية، شخصية تذكر بالشخصيات الهامشية والمبتلعة في الرواية الفرنسية، شخصية غريبة الأطوار، متعددة الأدوار، متحولة الهويات، يدعى في البداية أنه لبناني جاء إلى العراق بسبب الحرب الأهلية اللبنانية، لكنا سرعان ما نكتشف أنه عراقي، من أب شيوعي هاجر إلى لبنان بسبب معتقداته السياسية، بعد الحملة القاسية التي قادها صدام حسين ضد شيوعيي البلاد، ثم عاد الشاب إلى بلاده، بهوية أخرى، وبأساليب متعددة يحاول الحصول على حياة طبيعية دون أن يتمكن من ذلك، تنتهي الرواية بتراجيديا وفاته.

حبكة الرواية محكمة تقريباً، تدور حول عباس مصلح الساعات، الذي يتعرف على فتاة مغربية تزور بغداد مع وفد رياضي، فيتعرف عليها عباس ويتفقان على الزواج، وبعد ذهابها تطلب من عباس المجيء إلى المغرب ليتزوجا، لكن عباس لا يملك المال ليذهب هناك، فيطلب منها أن ترسل له المال كي يتمكن من السفر، بينما تطلب منه هي أن يأتي إلى المغرب

مكتبة الفكر الجديد

وسوف تعوضه المال الذي أنفقه. لكن هذا محال، فالأمر ليس ميسوراً لعباس في ظل الظروف القاسية التي كان يعيشها تحت العقوبات الدولية، أو تحت ظل الحصار الاقتصادي، ويتمكن الراوي بهذه المناسبة من عرض صفحات مهمة عن حياة الناس ومعاناتهم تحت هذه الظروف القاسية التي جرت بعد الحرب، والتي تسببت بمقتل مليون ونصف المليون إنسان، والتي لا نعرف، نحن هنا في الغرب، عنها الكثير.

الحدث المهم الآخر في الرواية، هو أن الفتاة المغربية المفترضة، والتي اسمها عيشة، تتكلم العربية ولكن لا تكتب بها، فترسل رسائلها إلى عباس بالفرنسية، فيستأجر عباس الرواي الذي يروي أحداث الرواية كي يكتب لعيشة الرسائل ويقنعها بإرسال المال إلى عباس كي يسافر إلى المغرب، من هنا يجد البطل لنفسه وسيلة ليصنع لنفسه دوراً بأحداث الرواية، ليس هذا حسب، إنما ليجد وسيلة ليسافر هو الآخر إلى المغرب مع عباس ويتخلص من الظروف القاسية التي كان يرزح تحتها.

في الواقع هذه الحبكة الممتعة وأحداث الرواية المتسلسلة، وحوار الشخصيات، وفصول الحياة في هذه البلاد التي عاشت محناً سياسية متعددة في ظرف معقد من الحياة السياسية في الشرق الأوسط، يرويها الرواي وهو الكاتب المغمور، بطريقة ساخرة، فنكون وسط حالة نادرة في الأدب العربي، وهي تناول الكوارث السياسية بطريقة متهكمة.

نصل أخيراً في الجزء الأخير من الرواية إلى حل يقدمه راوي الأحداث إلى عباس عن طريق بيع محل الساعات الذي يملكه عباس، والذي يعيش هو وعائلته على دخله، ليشتري سجادة مهربة، يقوم وليد ببيعها لهما، على أمل بيعها بسعر أعلى ومن ثم يتمكن عباس من السفر إلى المغرب، إلا أن هذه المغامرة تنتهي بخسارة فادحة، حيث تسرق السجادة بمشهد من أكثر مشاهد الرواية سخرية وعبثية، وينتهي الاثنان إلى اليأس

مكتبة الفكر الجديد

والإفلاس، غير أن البطل وكي يتحرر من هذا الوضع الذي آلت إليه حياته، يبيع الأستوديو الذي كان يعيش فيه، ويقدم المال إلى عباس كي يسافر إلى المغرب ويتزوج من عيشة، أملاً من عباس أن يجد له بطريقة ما وسيلة كي يسافر هو الآخر ويلتحق به.

تنقطع أخبار عباس بعد سفره إلى المغرب تماماً، غير أن البطل، أو راوي الأحداث، وهو من دون اسم في الرواية، يعيش لحظات حرجة جداً، بعد انتقاله من الأستوديو الذي كان يعيش فيه إلى فندق رخيص، مع آماله ليصبح روائياً شهيراً مثل نجيب محفوظ الروائي المصري الذي حصل على جائزة نوبل، والذي شكل طوال النصف الأخير من القرن العشرين أبرز الكتاب العرب في الغرب، ثم يرسل إلى عيشة رسالة ليسأل فيها عن عباس صديقه، الذي ذهب إليها منذ شهرين دون أن يسمع منه شيئاً، فترد عليه أن عباس لم يصل إلى طنجة، وأنها عرفت بأنه هو الذي كان يكتب الرسائل لا عباس، ووقعت في حبه دون أن تراه، تريد منه أن يأتي إلى طنجة ليتزوجا، لكنه لا يملك المال الكافي ليذهب لها، هكذا يعيش الدوامة ذاتها التي عاش فيها عباس.

تنتهي الرواية بسراب، سراب الجميع، حيث ذهب عباس إلى طنجة دون أن يجد لعيشة أثراً، وينتهي الجميع إلى وضع ساخر حتمته حياة صعبة وقاسية، كان يختلط فيها السياسي مع الاجتماعي مع الثقافي بطريقة جعلت من حياة هؤلاء الشباب جحيماً، وإذ نجح عباس وأخته تمارى من الهرب أخيراً خارج العراق، فقد بقي الكاتب المغمور في بلاده حالماً بكتابة روايته التي تمكنه من الحصول على المال والنساء، بينما يقتل وليد بصورة مأساوية أثناء الهجوم الأميركي في زمن الرئيس كلنتون بالصواريخ على بغداد، وبمحض الصدفة، ينتهي هذا الشاب إلى جثة موضوعة في ثلاجة مستشفى.

مكتبة الفكر الجديد

وهكذا نقف في الصفحات الأخيرة من هذه الرواية، عند سخرية من سخريات القدر، سخرية جعلت من هذا الشاب ضحية لوضع عابث، وفي بلاد كانت حياتها بسبب العقوبات الغربية أشبه بتراجيديا إغريقية.

ربما تؤشر هذه الرواية عالماً دشنه علي بدر في روايته الأولى بابا سارتر التي ترجمت إلى الفرنسية من دار لوسي، وهو تحويل الرواية إلى عمل فعال، ليس من خلال التوازي بين النص السردي وأحداث حياة الكاتب فقط، إنما من خلال استخدامه لنثر حيوي ودقيق يتمفصل داخل حوار تناصي مع الطريقة العربية في كتابة السرد، أعني هنا أثر الأسلوب المتبع في ألف ليلة وليلة في هذه الرواية، ومحاولة اكتشاف وسائل جديدة للحكاية وخلق بدائل مناسبة، تختلف عما موجود في الرواية الغربية، ولفتح طريق جديد للرواية العربية بصورة تنطوي على تصميم وقصد.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

صخب ونساء وكاتب مغمور

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-١-
هجرة الثعالب

كنا الثلاثة، ذلك المساء، نتناول عشاءنا بصخب في مطعم فولكلوري صغير يقع في الطابق الثالث من فندق ميليا المنصور في بغداد: المهاجر العراق الذي يقطن في لندن منذ عشرة أعوام، وصديقته الشابة التي وضعت على رأسها قبعة غريبة، وأنا كاتب الروايات المغمور.

وعلى صوت الموسيقى المحلية القديمة التي تأتينا من البهو، وعلى همسات الندل، والأضواء الخافتة، ورائحة النبيذ التي لعبت برأسي بقوة، قلت له:

«أريد أن أهاجر بأي سبيل..أريد أن أغادر إلى الأبد..».

كان يدرك أن هذه الحمى، حمى السفر والهجرة لا سبيل إلى علاجها، بعد أن ضربت بعقول العراقيين جميعاً، ومثلما كان كل حمال في بغداد يريد أن يصبح السندباد في أسفاره، وكل تاجر في البصرة يريد أن يصبح ابن هبار أو سليمان التاجر في رحلات الحسن السيرافي، فإن كل بائعة خضرة في أسواق بغداد هذه الأيام تريد الهجرة إلى هولندا..بل حتى العرجان يريدون الهجرة إلى أوربا.. حتى الخرسان.. حتى العميان.. حتى الشحاذين والمكارية وأصحاب الكدش يريدون الذهاب إلى كندا أو الدانمارك أو أستراليا أو أميركا..

احمر صديقي من الغضب وانتفخ أنفه مثل بالون، وقبل أن يجيبني، سألني:

مكتبة الفكر الجديد

«كيف ستسافر..؟».

شرحت له أكثر من وسيلة كانت شائعة ذلك الوقت، وقد سافر بها العديد ممن أعرفهم:

إما أهرب إلى إيران، وأقطعها مشياً على الأقدام حتى أصل الباكستان وأفغانستان ومن ثم إلى جنوب أو شرق آسيا وهنالك العديد من المهربين الذين سيتدبرون سفرنا إلى أوربا، أو أهرب إلى تركيا وأقطع الجبال مشياً على الأقدام مسيرة ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر، حتى أصل إلى واحدة من دول شمال أوربا التي أدخلها بشكل غير شرعي ثم سيتدبرون أمرنا في معسكرات اللاجئين، أو عن طريق البحر، قارب صغير يمكننا أن نقطع به البحر المتوسط حتى ترمينا الأمواج عند أحد الشواطئ...وللمبالغة قلت له هنالك طريقة أخرى للوصول بها إلى أميركا:

قال: «ما هي..؟» مستغرباً.

«أذهب بقارب صغير في شط العرب ثم أقطع الخليج كله نحو البحر العربي ثم المحيط الهندي ثم المحيط الأطلسي حتى أصل إلى أميركا..».

قال: «بقارب صغير..».

قلت له: «حتى لو بقفة قار كما كان يفعل السومريون..أو لوحة خشبية صغيرة على الماء.. كما كان يفعل جدي وجدك السندباد».

وهكذا وضعت العارضة بوجهه، لأفهمه بأن أمر التخلي عن هذه الفكرة مستحيل بالمرة.

كركرت صديقته بوجهي، كان جسدها الفتي البض يرتعش ويتفجر لهباً..أما هو فقد بقي متجهماً، وعلى الفضاءات المحلية التي كانت تسحره تلك اللحظة انشغل بالحديث معي وبتحذيري من مخاطر السفر (غير الشرعي) كما كان يسميه هو، وأخذ يسرد لي قصصاً تراجيدية عن

مكتبة الفكر الجديد

مهاجرين ماتوا بين الثلوج في جبال أوربا الشاهقة، أو غرقوا تحت أمواج البحار والمحيطات العاتية بعد أن تحطمت بهم مراكبهم، وحدثني عن مخاطر الطرقات التي يسلكها المهاجرون، وكذب وخداع المهربين، وغدر العصابات والحشاشين، وقطاع الطرق، وما لا أدري أيضاً، وقال هل سألت نفسك..لماذا تريد أن تخاطر؟

ما أسخف هذا السؤال، هل كان ابن هبار الذي رحل على سفينة خشبية من البصرة إلى الصين يسأل هذا السؤال، هل كان ابن وهب الذي وصل إلى بحر هركند يسأل هذا السؤال، أم السندباد الذي تحطمت سفينته أكثر من مرة وأرادت أن تشويه المردة على السيخ في جزيرة السرنديب، كان يسأل هذا السؤال؟

صرخت بوجهه: «الخرسان أحسن مني؟..بائعات الخضرة أحسن مني؟..حتى المكارية..باعوا حميرهم وذهبوا إلى أوربا وصاروا أوربيين..» وكعادة المهاجرين الذي يجدون في أنفسهم هذه النوستالجيا الوطنية وقد تيقظت على روائح الخشب القديم، والزخارف، والبسط، والأدوات القديمة، والكباب والطرشي المحلي والخبز الساخن الخارج توا من الفرن، فحذرني من تغيير العادات، والأخلاق، والقيم، وكل هذه الترهات الذهبية التي يحتفظون بها احتفاظاً، فكدت أفقد عقلي أمام بلاهة أعذاره، وشرحت له الأمر كما فهمته وعرفته، قلت له لا تغيير في العادات ولا بطيخ، في ساحة هلسنكي نصب حجي عيدان قزان الهريسة ووزع على روح الحسين، والنرويجيات..كل واحدة بيدها الطنجرة.. ووقفت بالدور في ثواب أبي عبد الله.

انفجر غاضباً بوجهي، رفع يده وضربها على الطاولة وصب جام غضبه على الذين صنعوا لنا هزيمتنا..

انتقلنا إلى البهو، فجلست صديقته أمامنا على الكرسي الجلدي، خلف الستارة المسدلة دون انتظام، وقد تركت تنورتها تنحسر بسرعة لتكشف عن

مكتبة الفكر الجديد

ساقيها السمراوين، كانت متعمدة في إغرائه إلا أنه لم ينظر إليها، أو إلى فخذيها العاريين، بل بقي منشغلا بتحذيري من مخاطر الهجرة والسفر، بينما لم تكن لدي الرغبة بمعاودة هذا الحديث على الإطلاق.

سقطت القداحة من الطاولة إلى الأرض، انحنى كل واحد منا فاصطدم رأسانا: «طراب» ضحكنا: «هاهاهاهاها».

قال وهو يحك رأسه، وينظر من زجاجة المطعم العريضة إلى الأنوار التي تومض على الجسر:

«حسن أنت محق ولكننا نحتاجكم هنا..نحتاجكم أن تبقوا فلكلورنا الذي ننظر إليه ونبحث عنه..».

فسألته، إذا كان يرى الأمر هكذا فلماذا هاجر هو أيضا، قال:

كنا في بغداد، مثل حاسب كريم الدين في ألف ليلة وليلة:

يتعرف حاسب على مجموعة من الحطابين ويعمل معهم، وفي أحد الأيام يصلون إلى بئر فيه عسل، فينزل حاسب إلى داخل البئر لإخراج العسل، فيتركه أصحابه ويعودون إلى أمه، ليخبروها أن الذئب قد افترس ابنها، فتقيم الأم له مأتما..بعد ذلك يخرج حاسب كريم الدين من البئر إلى مكان غير الأرض، من خلال ثقب جانبي، ويصل إلى مملكة الحيات، ويلتقي بملكتهن... ويطلب المساعدة منها في الخروج إلى الأرض والعودة إلى أهله. لكنها تطلب منه البقاء وسماع حكايتها وما جرى لها بسبب مساعدتها للإنسان.. حيث تبدأ بقص حكاية بلوقا وجانشاه.

أطلق ضحكة في الفضاء، ثم انحنى على كأسه وشربه دفعة واحدة، وصب جام غضبه على الذين صنعوا لنا هزيمتنا مرة أخرى، وهم ببساطة: الصيارفة في العواصم البعيدة، وعابدو اللذات، والفاسقون في المواخير، والعاهرات في الملاهي، والنشالون في شارع الرشيد، واللصوص، والمرتشون،

مكتبة الفكر الجديد

وأبناء الكلب، وما لا أدري أيضا...ولكن هنالك:

الممالقون والمسايرون، ومدعو الحكمة، والطائفيون، والجهويون، والمتجهمون، والكارهون، والسياسيون المحترفون، والمخبرون، والحزبيون المتعصبون، والمتدينون المذهبيون، وأصحاب التحيزات التي ضربت على هواها بالناس جميعا، ومع ذلك لا أحد يمكنه أن يتحدث عن هذا.. فمن كل الذين عرفتهم، لم يكن أحد منهم ينظر بصورة معدلة إلى التحيزات التي جعلت من العقول خواء، بل جعلتهم مثل القردة والسعادين يتأرجحون على حبل، وكنت أدرك جيداً بأنهم مثل الموجة من السهل أن تقوم بإثارتها ودحرجتها على أقدام تمثال، غير أنها ستنحسر بشكل فوري ولن يبقى منها غير الزبد والقاذورات.

ثم قال بصوت أجش، وعن حكمة أيضا:

«إن السفر جعل عقول العراقيين خواء..لقد أصبحوا عبيداً طائعين، فهم يذهبون مع من يغريهم بالمال والكنوز والخمور إلى آخر الدنيا، ولكن لو صادفوا في الطريق دجالاً أو متعصباً أو نبياً زائفاً..فإنهم سيتركون من أجله كل شيء ويعيشون على زاده حتى إذا كان هذا الزاد من الإحسان والعصافير».

هذا التحوير لهذه الجملة اللورنسية المنفية في كل واحد منا، جملة أعمدة الحكمة السبعة وقد تحورت قليلاً لتشملنا طبعاً، أو لتتخصص بنا على نحو أوضح، هي التي أعادتني ذلك اليوم إلى التفكير بالأيام التي قضيتها في الأستوديو الصغير بالكرادة، حينما أردت أن أهاجر إلى المغرب، إلى التفكير بوليد وعباس وتمارى وبي أنا كاتب الروايات المغمور.

ولكن من منا كان يدرك أن الهجرة هي واحدة من هذه الخيارات التي تتعمق عبر إرادة داخلية لا تهددها الأخطار..لقد كانت خاضعة بصرامة

مكتبة الفكر الجديد

لتيقظ حسي، وإلى خيال، وإلى شغف بالضرورات الأكثر عمقاً مثل الأبهة والترف والاستثنائي، وقد أصبحت من جهة أخرى ختماً للحتمية العالمية التي تطبع عصرنا، فالمهاجرون هم الذي يشكلون هذا المشهد وفي كل مكان، وإن هذه الحتمية هي ليست دجلا تافها أو حيلة إبليس إنما هي لغة تصويرية لعالم مهدد بالإنفجار.

لقد أعادتني هذه الحكمة إلى التفكير بنفسي بوصفي كاتباً مغموراً، فالصخب والنساء نسبة لكاتب مغمور هي الهجرة بالتأكيد، وقد أدركت هذا الأمر بعمق حين تعرفت على عباس وتمارى ووليد في الربيع الذي قضيته في الأستوديو الصغير الواقع في شارع مستشفى الراهبات في الكرادة الشرقية في بغداد، والذي تركه لي جدي قبل خمس سنوات من وفاته.

لقد أدركت في تلك اللحظة جازماً، بأن هذا الكلام هو من النوع الذي يجعلك تتذكر، أن تتذكر يعني أن تلم وبطريقة واحدة كل حطب حياتك، فربما لا أنا ولا وليد ولا عباس ولا تمارى ولا عايدة ولا أي شخص آخر ينفلت تلك اللحظة من هذه الجملة، أو أن يقول بطريقة جدية وواثقة: «إيه صحيح..بس مو آني..».

إن عودتي إلى هذا الأستوديو وإن كانت خياراً، فإنه خيار صعب، لأن علي وللمرة الأولى أن أكسب عيشي بنفسي، وهذا ما لم يعرفه أحد من قبل، في الحرب كان كل شيء ميسراً حتى الموت فأنت لا تختار مطلقاً، تحت النظم الشمولية وفي أعوام الحرب، حتى آمالك وأحلامك فإنها أشياء مضحى بها ببساطة- ولكن أن تقف وحدك كي تعيش وتكسب، هذا ما لم يفكر به أحد، لا أنا ولا أصدقائي الجنود آنذاك، فقد كان مثل هذا الكلام يجعلنا نقهقه، نقهقه كي لا نصرخ ولا نسخر من شيء لا يحبه الناس ولا يطيقونه، وكنت أسايرهم فيما يقولونه لأني كنت أدرك لو تكلمت خلاف هذا سأبدو شخصاً مثيرا للسخرية، وبعد تسرحي من الجيش مباشرة أدركت

مكتبة الفكر الجديد

بأن حياتي بدت في الأخير وكأنها شيء يمكنني أن أبحث عنه وبانفعال لا يكبح في أشياء غير متوفرة أخرى، مثل: الطعام، الملابس، الكتب، أدوات الحلاقة، الأحذية، الأوراق، الأقلام وأشياء أخرى، ربما لم نكن نفكر بها قبل الحصار، وأنا أركز على كلمة أشياء لا من دواعي الخروج السخيف على المألوف أو من الضعف وأعني بها: راحتي، منامي، طعامي حتى لو كان من البيض المسلوق والخبز -وحتى هذا على بساطته قد أصبح في أعوام الحصار شيئاً متعذراً- شايي، سجائري، إنما كي أبين كيف يمكن أن تنجو بجوعك دون أن تؤذي الآخرين، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن أن أحذف من ذاكرتي الجص المتساقط، ولا نفايات أعشاش الطيور، ولا علب الكونسروة الفارغة، ولا قشور البيض وفتات الخبز، وغسل الصحون وغسل الملابس والفرش، وتنظيف المطبخ، والكلاصات، كلما فكرت بعودتي إلى هذا الأستوديو الصغير الكائن في البناية التي كان يطلق عليها الناس «عمارة الإسكافي» لوجود إسكافي في ركنها.

إذاً سأتحدث عن الأيام التي قضيتها في الأستوديو الصغير الذي تركه لي جدي في الكرادة، عن العالم الذي عشته وفسرته وحدي، وهو عالم معجزة، لا معجزة من أراد أن يعيش، إنما معجزة من أراد أن يكتب رواية وهو يعيش في ذلك المكان المحاصر والمنسي – بغداد- وإن كانت الكلمة الأخيرة غريبة على من يسمعها، فكنت أعرف كم كنا منسيين في هذا العالم الذي يتحرك بمعزل عنا، وكنت أعرف كم من ضربة كان يمكنها أن تجعلني أترنح مثل معطف مارينو، وتجعلني أنام تحت الأرض بسلطان مطلق، كنت أحاول أن أواصل تقدمي المنتظم والغافي وأحفر في حياتي خطاً عميقاً تحت الظلام، ذلك الظلام الذي يخفي مدينة كبيرة، بنسائها ورجالها، ذلك الظلام الذي يغمرني وأنا أتسمع إلى نباح كلاب يصعد تقطعه فترات صمت متفاوتة في ليلة مقمرة، كما لو كنت أترقب يائساً حتى الفجر ومن أعماق العزلة التي كنت أعيشها صوت بغل يسير، وصوت

مكتبة الفكر الجديد

مؤذن يرتفع في العزلة في حالة شبه متوحشة، أو صوت أجراس الكنائس، أو صدى لا يصل أبداً، أو أتعرف إلى تلك الصرخة التي ترجعها جدران البيوت ولا تكتمها، صرخة المرأة التي تنهار على حافة الفراغ البحت، صرخة الأطفال بتحديهم العاري لملائكة الجوع والموت في الدوامة التي لا تنتهي.

مكتبة الفكر الجديد

-٢-
أستوديو وكاتب مغمور

مشهد

كان الوقت نهاراً، شهر آذار، أمام كنيسة القديس روفائيل.

سيارة صفراء قديمة مع سائق قصير يرتدي بنطلوناً من الجينز وقميصاً مربعات، يمسك بيده جريدة، المرور في شارع الكرادة كالمعتاد دائب الحركة: باصات، سيارات، دراجات. يخرج عروسان من باب الكنيسة، يرعاهم قس في الخمسين متوسط الطول، ورجل يلبس زياً أسود، وقميصاً ذا رقبة عالية.

أخذت حقائبي من بيت أهلي وتوجهت إلى الكرادة، إلى الأستوديو الذي أورثنياه جدي، كنت أسير مثل شاحنة مطلقا هورناتي المجلجلة بالشتائم والصراخ، بالعبقرية والهذيان الجميل..صعدت الباص العمومي الأحمر، الذي كان ينغر في الأرض بصوته الموحش، وهبطت أنا وحقائبي في مكان بعيد نسبياً عن الأستوديو، حملت حقيبة على ظهري، وحملت حقيبة بهذه اليد، وحملت حقيبة الكتب باليد الأخرى، وقبل أن أصل الباب للهبوط وسط ازدحام النساء والرجال في الصباح الباكر، كنت ضربت هذا برأسه ولطخت بالحقيبة الأخرى رأس تلك، وسمعت شتائم وتأففات حتى وصلت الرصيف.

توقفت قليلاً، أخذت نفساً عميقاً ثم سرت على نحو سريع ومتعجل كي أصل وأتخلص من حمولة الحقائب التي أثقلتني، كان يمكن أن أدخل طريقاً مغلقاً ولا أصل إلى السوق:

مكتبة الفكر الجديد

- هذا الشارع يؤدي لسوق ارخيته؟ سألت شحاذاً ضريراً...فعفط لي: طططططططططط.

كانت المنازل تفوح برائحة الأحجار المرصوفة، أما الطقس فقد كان ساخناً في نهاية آذار، وقد امتلأ الشارع بحشود الناس والسيارات وعصافير الدوري التي تتسكع قرب أشجار اليوكالبتوس العملاقة بمرح، وقد فاحت البرودة من الأزقة المغسولة، وعلى المصطبة الخشبية جلست سيدة مسنة تضع حقيبتها على ركبتيها، وإلى جانبها وقف شاب كان وجهه يشبه وجه كلب عجوز، وفي الطريق إلى البريد وقف سائق شاحنة عند البناية بشعر خشن قصير وبوجه لم يحلق منذ أيام، يتحدث إلى بائع السجائر الذي تناول كلينكساً من جيب بنطلونه الأسود، فسألته:

- هذا الشارع يؤدي للسوق..

أخذ يمخط: «خطططططط".

قبل أن أصل السوق، دخلت وسط عمارات الموظفين بشققها الضيقة وبالكوناتها التي تحولت إلى معرض للملابس المغسولة والمشرورة: بنطلونات/قمصان/ أتكات/ دشاديش/ ومن تحتها تظهر السوتيانات النسائية والكالسونات الحمر والبيض والسود..أصبحت مباشرة، ومن دون تفكير في ميدان روائح المياه القادمة من الحمامات نحو البالوعة في منتصف الشارع. بين رائحة الصابون الصيني الذي يعط بتقليديته المربعة للصابون الإنكليزي، وروائح المزابل: زبالة البناية/ والمطاعم/ والمحلات القريبة من كراج السيارات، في العطفة الصغيرة وشيش المغاسل في مطاعم الفول والفلافل المصرية... وأيضاً: روائح علب الشامبو المرمية من صالونات الحلاقة التي تمتزج مع الأبخرة المتصاعدة من بقايا المازوت المحترق..مدن..مدن على طراز كولنيالي.. وبالقرب منها مزابل محلية كما كانت بغداد أيام علاء الدين..أين السوق...؟

مكتبة الفكر الجديد

فجأة أصبحت أمام السوق، باعة السمك، بسطيات الخضرة والفجل والبصل والخباز والسلق، قصاع الليمون، عربات السحب التي تحمل الفواكه الناضجة، باعة سرطان البحر القادم من البصرة، باعة الأعشاب الطبية والمراود والديرم، باعة الحمرة والماكياج، باعة الخبز الساخن الخارج توا من الفرن، باعة البيبسي كولا المحلي الذي يشبه رائحة الأسفنيك، باعة الأحذية المسروقة من المساجد، والراديوات المسروقة من السيارات، الإسكافيون الذي يجلسون على الأرض، والقنادر العتيقة معلقة على الحيطان، باعة السجائر بالمفرد، باعة الأدوية الطبية: المقوي الجنسي، مكافحة الصلع، ومراهم نزع الشعر، كارتونات بيع المقصات والسبح والدرنفيسات والسكاكين، وبين جدار لآخر هناك عركة بالسكاكين والشواكيش على المكان بين هؤلاء التجار الجدد المتسرحين من الجيش حديثا، وكل واحد منهم يخرج سلاحه على الآخر يرعد ويزبد ويتوعد، وكان علي أن أخفي تقززي، وبدلاً من النظر إلى السوق الآن وفي شكله، وعلى طريقة الكتاب الذين يكتبون سيرهم كان علي أن أخترع له سيرة ذاتية أيضاً، وأن أفكر بتأريخه، وأقول وأنا أمر من عربات السمك الذي تنبعث جيفتها: «الله...هذا المكان كان فيما مضى، أيام الجارية تودد ملهى العوادين والشعراء والتجار..وأصبح أيام الاحتلال الإنكليزي ساحة للبائعين وأصحاب السيارات وبضائع العطارين والسلعيين».

وكان علي أن أتخيل وأنا أسير، تقزز آلاف الكتاب والأدباء من هذه القلبالغ، وصراخ البرجقات واللوريات وأصحاب الحمير والكدش، وأن أتخيل كيف كان مصلحو الفرفوري والجراخون والكبابجية وباعة الصمون والفاكهانية في الستينيات يسدون الطريق بصخبهم، ولكن جدي اشترى هذا الأستوديو من ضابط مسيحي أحاله الرئيس عارف على التقاعد بعد أن هرب الطيار المسيحي منير روفة إلى إسرائيل، وقد صاحت صاحبة

مكتبة الفكر الجديد

الصيدلية المقابلة للسوق : «خطية..شنو ذنبه».

وقالت جرجيت المسيحية: «يا ناس شوفو هذا شلون ظلم...».

أجانب

لم أنس وأنا أسير في الطريق أن أتذكر شريطاً طويلاً -وهو يمر- للأجانب الذين أجروا هذا الأستوديو وأكثرهم من السياح البسيطين الذين يرتدون الشورتات الكاكية، والقمصان البيض، والأحذية الضخمة الوسخة والمتربة، وكانت لحاهم على الدوام طويلة ومشعثة، وكامراتهم على صدورهم تروح يميناً وشمالاً وهم يسيرون، أو يهرولون وراء الباص الأحمر الليلاند الذي يقودهم إلى الباب الشرقي، سياح أو عمال في شركات إنكليزية وأميركية ثم روسية وبولونية وبلغارية حسب تقلبات السياسة الحكومية مع الغرب.. وكانت فيما مضى مكاناً للسراديب، والمسخوطين والمسحورين، وللحمير والبغال التي تدور بأحجار الطواحين، وللعبيد الذين يكدون، وللجواري اللواتي يرقصن، للأذرع العارية التي تتناول الكؤوس..للدراويش، والطواشين، والرهبان، والصناع والصياع والشقاوات، والجواهرجية، والمزينين والحمالين.. وتذكرت الحقائب التي أحملها..

كان علي أن أتذكر على طريقة الكتاب الذين يتذكرون، أتذكر الأشياء البعيدة وأزوقها في ذهني وأذهبها وأنا أتثاءب تحت أشعة الشمس الساطعة، أتذكر الأشياء بطلاقة وأنا أسير في الطريق، أتذكرها لا في النهار حسب إنما حتى حين يهبط الظلام فوق البيوت، وفوق الجوامع، وأبراج الكنائس... أشياء مثل: الحديقة، والشرفة، والسياج، وشجرة الخوخ، والنخلة، وحبانة الماء، وهكذا يمكنك أن تتحدث وأنت تقف منبهراً أمام النوافذ التي تعرت، والأبواب التي كلحت، والحاجات المهملة التي تكومت وهي محرومة من الانفراج، بعد أن كانت راقية، وأن تتفرج على الساحة الخلفية حيث كانت الأبقار البنية تخطو بتثاقل وهدوء كبيرين،

مكتبة الفكر الجديد

تخطو وهي تغيب في ضباب الحقول التي تتصاعد ببطء في الفجر، وقد صاحت حمدة المعيدية:

«هلاه.. يا عبد..هلاه.. فرس الحجي تكنطرت..».

ربما تدرك معنى هذه الجملة كما تدرك حديث النافورة البيضاء وهي تغرد في الظلام طويلاً، تغرد وسط أجمة صغيرة وحولها دغل وشجر كثيف. تدرك بأن هذا الأستوديو لم يكن يوماً شيئاً كبيراً، ولا قصراً فارهاً، ولا كنزاً، ولا أي شيء من هذا القبيل، وإنه لم يكتسب معناه إلا من الثعالب الذين تشمموا زواياه، وحتى حين وهبني إياه لم يكن جدي متشنجاً أو متحجراً بل قالها دون أن يتحرك أو يرتجف، قالها وهو يتثاءب، فقد كان شيئاً تافهاً، وما زاد من وضاعته هو إني لم أستطع في الوقت الضروري سكنه، ولا حتى بعد أن توفي جدي، وقد كنت إبان ذاك جندياً في الجبهة، ولو قلت لأمي مثلاً وحاولت أن أقنعها بسكنه وأنا أعزب، للطمت وجهها وقالت:

«يبوه..شلون.. موعيب تريد تسكن الشقة وانت ازكرتي؟».

والكلمة الأخيرة وإن كانت تعني أعزب، إلا أنها تتجاوزها وتفيض عليها، فهذه الكلمة وحدها كافية لتطلق خيال حتى من تبلد خياله بشكل تلقائي على كافة المشاهد الجنسية المتوقعة وغير المتوقعة، وستبزغ وسط تكاثف الدخان الكثيف والرائحة المخمرة مشاهد السكر والعربدة وصخب وفوضى الأصدقاء، وقد بقيت هذه الصورة رغم طراوتها تلح بحضورها على ذهني طالما كنت أسكن في ذلك الوقت أثناء إجازاتي الدورية حجرة في الطابق الفوقاني من بيت أهلي، ولم أفكر على الإطلاق بسكن الشقة وحدي، فقد كان هذا الأمر في ذلك الوقت مستبعداً، ولم أشعر بأنه أمر بغيض، لا.. لا..أبداً، ومع ذلك لم أجد هذا الأمر ساحراً على نحو خاص، أو مبهجاً، ولكنه كان قادراً على إطلاق فعاليات خيالي إلى أقصاها، وبعيون شبه مغمضة كان يمكنني أن أنتقل وسط تثاقل الأحداث إلى اصطفاق الأبواب

مكتبة الفكر الجديد

في الليل، وإلى صمت الحائط وهو يجذبني بنبض حجره الهادئ، وإلى فانوس في الرصيف يرتجف فوق المياه الساكنة مثل سراج منسي، كنت أذهب في الفراغ إلى باقة زهر يابسة هناك وإلى فتاة عابثة في رواحها الهادئ، وإلى ضجيج منفرد يمكن أن تحدثه قبلات الليل، وربما سأشعر بهذه الفعالية القروية الساذجة وهي تنام وسط الغيمة، ولكني بعد انتهاء الحرب، اكتشفت كم كنت ساذجاً، بل أكثر سذاجة من الجنود الآخرين الذين كنت أترفع عليهم بواقعيتي وفلسفتي المحترفة، وهذا ما سأرويه هنا، سأروي لا سيرة ذاتية منتحلة إنما بالأحرى رواية منتحلة عن الثعالب التي خرجت في الربيع الوردي.

تحولات الجندي إلى كاتب

لم أشهد أي شيء مما كنت أفكر به من قبل، أبداً.. فبعد أن انتهت الحرب وبدأ الحصار تغيرت الأمور كثيراً.

شعور

حلت الفوضى -وإن كانت كريهة- محل صخب البنادق المتصادمة وطقطقة المعدن ونداء التفقد، وهو أمر يمكن احتماله أمام تجهم الموت وعنف الحرب، ولكن أن تكسب حياتك بالتزاحم مع الآخرين هي حرب من نوع آخر، هي أن ترمم من خيوط حياتك هذه الكوابيس التي عرفتها وتنقلها إلى الآخرين...

السوق

إن صرخة «تقدموا... تقدموا...» في الحرب هي الصرخة ذاتها التي يمكنك أن تسمعها في الحياة. الحياة حرب من نوع آخر، غير إنها أقذر بكثير من الحروب على الجبهات. فبعد أن انتهت الحرب في الجبهات بدأت حرب التجارة، وميدانها الحياة، إنها حرب...نعم، غير إنها تفتقر لشجاعة الرجال وتفتقر لأبطال يعرفون- لحظة الموت- مصائر الناس،

مكتبة الفكر الجديد

ويقدرون أعداءهم...السوق حرب..وإن لم تكن في العراء فهي حرب تجار جبناء، يكسبون بأيد مرتجفة، وجيوب معبأة، ويسحقون بلا شفقة مصائر الناس، ويتغوطون على أعدائهم.

الأستوديو

لم تكن انطباعاتي الأولى مريحة، فقد بدا الأستوديو كئيباً مخلخلاً والمكان يخلق عسراً في الهضم، وتنبعث من الزوايا روائح استشعرتها رغما عني وهي مزيج من رائحة عطر أجنبي راق ورائحة تبغ محترق، وهنالك بعض بقايا حاجيات وأدوات نسائية تركتها المرأة البولونية التي كانت تشغل الأستوديو آخر مرة، مثل أوارق كلينكس مستخدمة ومرمية في سلة الزبالة أو قرب السرير، مانيكير أحمر يابس، علب ماكياج تالفة: حمرة خدود في علبة بلاستيك دائرية، إصبع روج مائع، علبة بودرة فارغة، هنالك أيضاً كالسون أحمر في التواليت، وقميصول أبيض، وبقايا صابونة لوكس وعلب شامبو في الحمام فارغة، وعلى الرف تركت مجلة خلاعية شبه ممزقة، وبعض الكتب المكتوبة باللغة البولونية، بعضها روايات يتضح من أغلفتها بأنها روايات بوليسية وروايات جنسية، وهناك بعض المجلات النسائية، مثل: مجلة بوردة، ومجلة لافام، ومجلة نسائية شهيرة اسمها»شي». والمفاجأة: «أوه..» هنالك ماكنة حلاقة رجالية.

«ماذا كانت تفعل بها» قلت في نفسي. ومن ثم وجدت ما هو أخطر:

«لاه لاه لاه..» علبة معجون حلاقة رجالية مستعملة، ومايوه سباحة وفانيلا رجالية!

تلك اللحظة استيقظ خيالي:

«هل كان لها صديق يزورها.. دون أن يعرف الحجي..؟»

«لم لا يكون الحجي هو الذي كان يزورها؟!!»

مكتبة الفكر الجديد

طرحت ملابسي وكراكيبي وأغراضي وكل الأشياء التي كنت أطلق عليها» أشيائي» مثل:

كتبي، أقلامي، أوراقي، وملابسي: بنطلون واحد، قميص وثلاثة تيشيرتات عادية، حذاءان محزومان في حقيبة جلدية حمراء صغيرة، وهي الحقيبة ذاتها التي كنت آخذها معي إلى الجبهة، حقيبة جلدية أخرى جلبتها بالرغم من أن حوافها تهرأت وقد بدا جلدها عتيقاً، وهنالك كيس كبير استعرته من أهلي احتوى ما أصبح في النهاية أغراضي أو أشيائي مثل: طنجرة المرق الصغيرة المسخمة، طاوة الزيت، أستكانات الشاي، القوري، علبة تبغ، وقليلاً من الشاي ومجموعة من الصحون الفرفوري، وأشياء أخرى مثل الشراشف والمناشف والصابون والشامبو وقنينة العطر وأدوات الحلاقة، وكلها من بقايا حياتي قبل الحصار ولم تعد تحوي إلا كميات قليلة كنت أداريها باقتصاد مذهل، وبعض الأشياء البسيطة الأخرى.

«سأصبح الكاتب الشهير..إذن» قلت في نفسي.

..نعم..نعم..

وها أنذا: «مزاج جيد للإصغاء... وليذهب الجيران السبعة عشر للجحيم».

قمة جذلة ومزاج خارق للعادة كافيان لتجذب فتاة طرية مثل أجاصة- قلت في نفسي-أو تكتب صفحة تشع حماسة، وبوجه عام كان يمكن وبأدوات بسيطة أن تخلق من نفسك بطلاً عظيماً، بطلاً بجواد كسيح ورمح مثل رمح دونكيشوت، وعصابة من الخرق على رأسك بألوان صارخة. كان علي أن أقفز من على السرير الحديدي الذي يصر وأصرخ:

«فليذهب نجيب محفوظ إلى الجحيم..».

وحين تمددت على السرير القديم نمت دون أن أندم على هذا الفصل الغبي والساذج في حياتي وذلك لحرماني من الجنة الأرضية، ولم أشعر

مكتبة الفكر الجديد

في النوم المتعرج والمضطرب على السرير الذي يصر، بخيبة الذين كانوا يعيشون في الظهر الأشقر عذوبة السماء الحليبية، فلم تكن حياتي في الجبهة حياة ناعمة، أو تسير على موجات تنبعث من الربيع الذي يتكاثف ويرتجف بردا ونداوة دبقة، وإن كانت عودتي لا تخلو من ارتباك وذهول إلا أنها لم تكن في واقع الأمر اكثر ارتباكاً وقتامة مما مضى، وحين دخلت الأستوديو ورميت أغراضي والتي تعني «أشيائي» بطبيعة الأمر، توقفت طويلاً أمام حطام الشبابيك التي أصبح خشبها يصر، والرطوبة التي ترسم على الجبس تنملها الهادئ والمريع، والمغسلة التي تخر، ومواسير الحمام التي تغرد، والبلاطات المفقوعة التي ترن تحت أقدامي، ومع ذلك كنت فرحاً لأشياء عديدة، منها:

وعود المرأة في حياة الأعزب والتي تأتلق مثل مصابيح تثرثر وتضحك في الظلام من بعيد، وهنالك ما هو أهم حياة الكاتب التي أحلم بها، لا عبقرية الكتابة فقط بالرغم من أن حياة الكتابة ذاتها تشتمل على ما في الحياة من جانب أنثوي، ولكن الحياة ذاتها والتي تصبح مع المرأة، ذات فوحان يقلق ويتقلب عاطفياً مثل حياة مراهقة نزقة.

وبالرغم من أن المال قد شح كثيراً، بل لم تكن محفظتي تحوي في ذلك الوقت غير ثمن طعام لمدة يومين لا أكثر، ولكني كنت أمني النفس بالراحة التي يمكن أن أكسبها من فنجان قهوة أو استكان شاي يتصاعد بخاره الأبيض بين يدي وأنا أجلس أمام كتبي في المكتبة، أو أمام تصاوير الكتّاب المعلقة على الجدار: صورة دانونزيو، سيلين، موندیارغ، أدورنو، أو الراحة التي يمكنني أن أكسبها وأنا أقف تحت منور السقف الصقيل في منزلي، فأتفرج على زحام الناس بخروجهم ودخولهم للأسواق والبوتيكات والمطاعم والحوانيت والملاهي، أن أتلصص دون مجهود كبير على موظفات البنك، أو على صبايا مسيحيات يتطوحن على الدراجات الهوائية قرب الجامع، وأشياء كثيرة أيضاً، فإن بدت هذه المتع تافهة، أو رخيصة، أو

مكتبة الفكر الجديد

مبذولة، وربما سيضحك مني شخص قد خاض الحياة بطولها وعرضها، فقد كنت أظن أن هذه الأشياء يمكنها أن تصنع مني الكاتب الذي أحمله في داخلي، والذي سيكتب شيئاً يطربق الدنيا.

حركة

أحضرت أوراقي الفولسكاب غير المخططة، وطابعة أوبتيما صغيرة تشبه الطابعات التي يستخدمها الجنود الألمان في أفلام الحرب العالمية الثانية، ومجموعة من الكتب العربية والأجنبية، ووضعت الغليون في فمي وكنت مثل غيري أتشبه بكتاب عظماء كنت أظن بأني ما أن أضع أقدامي على هذه البلاطات المخلخلة حتى تتفتح عوالم الكتابة برمتها أمامي، وسأنشر رواية عظيمة، سيهملها الجمهور أول الأمر ومن ثم سينتبه لها، وسأصبح كاتبا عظيما ومشهورا في النهاية، بل كنت أظن بأن المال سينهمر علي من كل مكان، حفلات توقيع، ودور نشر ضخمة، وفنادق كبيرة، صحافة أدبية ومقابلات تلفزيونية، ومحاضرات جامعية، ولقاءات، جوائز، تصريحات، طبعاً كان علي أن أحذف بغداد أو القاهرة أو دمشق وأضع مكانها متربولات ثقافية أخرى مثل بوسطن أو لندن أو باريس، وما كنت أضع نفسي مكان نايبول أو هومي بابا، ولكن كنت أنظر إلى نموذج قريب وبحسد ظاهر: نجيب محفوظ!!!

كنت جندياً متسرحاً، كاتباً مغموراً، أعزب، مفلساً، دون نجاح يذكر، ولكني كنت متفائلاً، بريئاً، متحمساً، ومستعداً للتأثير بالآخرين مثل صرخة.

«سأكتب رواية... هل أنا ضعيف؟».

«أبداً..أبداً» كنت أتخيل فتاة جميلة تجيبني بهذه الكلمات.

ليس بالضرورة أن تحيا في حي أرستقراطي رزين من أحياء باريس كي تكتب صفحة جميلة، صفحة ملونة مثل هندي يضع أصباغاً على وجهه،

مكتبة الفكر الجديد

ولكن يكفي أن تكون نقياً جداً ومنهجياً ونظيفاً ومدققاً ومحترساً وليس بالضرورة منزوياً أو متأملاً..ولكن رجل مدينة..نعم.. رجل مدينة يأكل الجمال مثل كلب جائع، يعيش على قلة من الأشياء مثل نبي، ويمكنك الذهاب أبعد من هذا أيضاً: يمكنك أن تعيش اللمسة المحبوبة والغافية لكل امرأة تسير في الشارع، وأن تعيش الفرحة المترنحة في عين كل طفل، صحت:

«ماذا يريد الكاتب أكثر من هذا..؟».

ماذا يريد كاتب من شارع أكثر مما في شارع ارخيتة، يمكنك أن تسمع صلصلة عربة وحمحمة حصان موجودة منذ أكثر من ألف عام، ويمكنك أن تسمع الترتيل الملغز العظيم الذي يراق بدفقات سماوية من آذان الجامع في الوقت الذي تسمع فيه صوت أجراس الكنيسة التي تذكر أولئك الذين دوخهم سراب الذهب الزائل بالخلود، يمكنك أن تعيش هذا التعدد الغريب والمذهل والخلاق لتعدد الأعراق، والقوميات، والإثنيات، والأديان، والطوائف، إنك تعيش في برج بابل حقيقي، تعيش وسط دزينة من اللغات التي تختلط في شارع واحد، أو في زقاق صغير يقود إلى النهر أو إلى السوق، أو في محلة واحدة مثل البولص خانة أو البوقلام أو ارخيتة، لا في بناء الجوامع والكنائس والحسينيات، إنما في اختلاط الموضات والأزياء وأغطية الرأس، واختلاط الأطعمة والأكلات الشعبية القادمة من كل مكان، وهناك ما هو أهم:

اختلاط الألسنة مع بعضها، فالسوق هو برج بابل اللغات واللكنات، هناك يمكنك أن تسمع دفعة واحدة» كيبنخ» قادمة من آثورية تحت شجرة ضخمة في الحديقة، و«لجويه درجو» من كردي في الساحة، و«نجاسان.. صاغولسان» من تركماني في الملهى، «تعال بوية تعال» من شروقي قادم من الجنوب لزيارة سيد ادريس في الزوية. هنالك عرب مسلمون، مسيحيون، أكراد، تركمان، شوام، مصريون، وأجانب، هجنة حقيقية تتشكل من دماء

مكتبة الفكر الجديد

وأعراق مختلطة، كائن معطى وموجود تنظر إليه مثلما تنظر إلى أشجار اليوكالبتس الضخمة والعملاقة والتي جلبها الإنكليز معهم من مستعمرات الهند في العشرينيات وزرعوها في الكرادة لتطرد عن معسكراتهم وثكناتهم البعوض، تنظر إليها كما تنظر إلى هذه التحولات الخارقة التي يمكنها أن تحدث في شارع صغير مثل شارع البولصخانة:

مركز شرطة إنكليزي أيام الاحتلال يتحول إلى منزل دعارة، الخانات التي كان يؤمها القادمون من تل محمد وبغداد الجديدة وخلف السدة لزيارة سيد إدريس الإمام الشيعي المدفون بالزوية تتحول إلى بوتيكات ملابس ومطاعم وكافتريات، كنت أنظر إليها مثلما أنظر إلى الساحة الواسعة الكائنة خلف مخفر الإنكليز القديم حيث ابتنى أحد التجار الشيعة الهنود ممن كانوا يرافقون الجيش الإنكليزي جامع المصلى الكبير، منزل مشيد من الآجر يطل بسياجه المسور بالورود والآس على طريق قديم، يعود إلى عصر المغول، وكانوا يطلقون عليه-فيما مضى- درب الدينار، وقد أطلق عليه الناس في الستينات بدرب محمد خان الهندي.

قلت في نفسي:

«لأكتب عن بيت المصلى الكبير..».

طبعاً..طبعاً..وأطلقت ضحكة في الفضاء.

لأكتب أولاً كيف تهدم بيت المصلى وتحولت ميضأته إلى كافتريا..ومن ثم كيف استأجرته عاهرة مصرية شهيرة..عاهرة قبطية..اسمها لويزة..

مشهد

الوقت نهاراً، في الصيف:

مرت لويزة المصرية في شارع البولصخانة.. كانت سمراء سمينة ترتدي ملاءة سوداء ناعمة النسيج تطرحها على كتفيها، وتلفها بإحكام على

مكتبة الفكر الجديد

مؤخرتها التي تدورها يمنة ويسرة، مرت في الشارع واضعة على رأسها برقعاً أزرق بترتر ذهبي، تطق بعلكتها، وتهز ضحكتها المتكسرة أبواب الدكاكين.

جلست على كرسي أمام منزلها، رمت ملاءتها السوداء من على كتفيها فظهرت جلابيتها المخططة الضيقة عليها، والتي أبرزت نهديها السمينين المكورين إلى الأمام، تناولت عود النارجيلة وضعته في فمها ثم أخرجته وأطلقت سحابة من الدخان في الهواء، صفق المخنث المصري الذي يجلس قريباً منها، وصاح بصوت عال:

«حلاوة يا معلمتي..».

حين رآها الشيخ عبد العزيز ارتاع أول الأمر، ثم ضحك وقد غير في الحال أسطورته..قال لهم:

«ميخالف..هذا المكان منفوس.. لو تعرفون هذا المكان إشكان من قبل؟..»

«إشكان شيخنا..»

«كان خان القحاب أيام هارون الرشيد..»

نسج خيال الناس صورة حبشية سوداء مطروقة على النحاس وجدوها في درب محمد خان الهندي، يقولون قد عثر عليها الغلمان الهنود والبنغال الذين كانوا يغسلون أعمدة المصلى كل صباح بالزعفران، هناك.. حيث كان الشطار والعيارون يتلاوون بالأذرع مع الأحناش والتنانين، أما المسيحيون فكانوا يعتقدون بأن هذا الدرب قد سار فيه حنا الشامي مع القسوس النصارى بقلانسهم وزنانيرهم وصلبانهم، حين كان يطوف بقوارير العطور الدمشقية على منازل البغداديين، وهناك أحبته «ماه سلطان» بنت الإيراني الذي كان يبيع السجاد القاشاني المنقوشة عليها أقوال الإمام بالخط الفارسي، أو بالخط الكوفي، وكانت الإيرانيات يحملنها ويطفن بها

مكتبة الفكر الجديد

على البيوت، ويقال إن ابنة الإيراني أغرمت بحنا القادم من الشام، وزوجها أبوها له بعد أن صار مسلماً، وهو كسب بطبيعة الحال للمسلمين، صار سنياً كما يقول السنة، ولهذا صار ميسوراً جداً، وقد ابتنى جامعاً كبيراً، وزين بالرخام الأبيض واجهته، وعلى أعمدته نقش مآثر الخلفاء الأمويين، وادعى بأن مصحف عثمان في سراديبه، فكان السنة يتحدثون عن آثار الدم على مصحف الخليفة المقتول، ويؤلفون القصص عن زوجته الفارسية التي كانت شيعية وأصبحت سنية على يديه، ويقولون بأنها كانت تقف كل غروب عند ضفة النهر لتنظر دم الخليفة المقتول وقد مسح السماء بغضارته الحمراء، وفاض عند ميضأة المصلى مثل الغدران.

أما الشيعة فقد كانوا ينكرون ذلك:

«لك بابا هذا شلون حكي..يا سني يا بطيخ»

وحين كانوا يقتعدون قنفات الجريد في المقاهي، أو يقتعدون الحصران في المساجد، أو على الدكات قرب سوق ارخيته حيث تزدحم عربات الخضرة المرشوشة والفواكه المغسولة، أو حين يجلسون أمام دكاكين القصابين البيض وقد تبقعت أحجار الأرضية باللون الأحمر الكابي، أو في الحدائق الصغيرة المسورة بالقضبان الحديدية أمام المنازل الطابوقية ونوافذها التي تطل على الشارع، كان يتحدثون كيف أصبح حنا تاجراً ميسوراً بعد أن هداه الشيعي الفارسي إلى الإسلام، وزوجه ابنته «ماه سلطان»، فابتنى -نذراً لأبي الجوادين-حسينية كبيرة، كانت تزدحم بالملائكة الخضر في عاشوراء، وكان النهر يفيض على حجر ودهاليز البيوت، وكان حنا يرتدي حلة إصفهانية ممسوحة بمرمرة من قبر الحسين، تضيء كلما اختفى النهار في الظلام، وحين مات حنا تزاحمت ملائكة الإمام الحسين على قبره.

غربة الراعي

في هذه اللحظات كان مطر الربيع ينهمر على سقف الأستوديو المنحدر ذي الجوانب المصنوعة من الحجر، وكانت نقراته على السقف تزداد لحظة

مكتبة الفكر الجديد

بعد أخرى. وها أنا جالس أتأمل من النافذة.

كان يمكنني أن أتخيل حجرة نظيفة، وزجاج نوافذ عريضا، وأبواباً مطلية بألوان داكنة، وأن أشم رائحة الإسبرتو النفاذة التي لم تجف بعد من على الصوفا والأريكة والطبلات والمكتبة، وأن أتخيل لنفسي خزانة ملابس، ودولاباً صغيراً، وسريراً مريحاً، وفي المطبخ: الأطباق والطناجر والملاعق، وفي الصالة: الكراسي المنجدة المصنوعة من الخيزران، ومائدة الأكل المهاغوني الطويلة، وهنالك تمثال صغير بروب أحمر، ويداه تحملان كتاباً منقوش الأطراف، ويمكنني أن أتخيل شرفة بباب عريض من ضلفتين بزجاج منقوش، وحجرات تطل على حوش خلفي بفسحة مزروعة بكروم كثة ملتفة على الحائط وعلى قوائم خشبية قديمة، وعلى جذوع السدر السامق الذي ينبع من جذر عريض متشابك، وفي الأسفل هنالك صنوف الآس والأزهار المتجاورة.

أتخيل نفسي وأنا أقف أمام الدولاب المغطى بمرآة طويلة، بعد أن استيقظ في الصباح فأهبط من السرير الكبير المغطى بمفارش حريرية بيضاء ناعمة، وتغوص قدماي بالسجاد البني الكثيف الوبرة، وحين أخرج التقي بباب الجيران بصبية جميلة، أرى الشهوة في وجهها المغلق الصموت المزوق خفيفاً، وعينيها السوداوين الذباحتين اللتين تقطران كحلة، وفي جسدها المكتنز الذي تلفه بالروب والفتحة الواسعة على صدرها الأسمر، أقف أمامها وهي تواجهني بابتسامة خجولة، فأنشق رائحتها، رائحة أنوثتها، ورائحة الصابون المعطر التي تنبعث من جسدها النظيف والمغسول، أقول في نفسي ليس ضرورياً أن تكون الأشياء حقيقة لكي تعيشها:

- نحن لا نعيش على الوقائع حسب.. نحن نعيش على الأوهام.

مشهد

الوقت ضحى، شاب أسمر يرتدي بنطلوناً قصيراً وفانيلا، يضع في فمه

مكتبة الفكر الجديد

نصف سيكارة مطفأة، ينزل عن كتفه قرميدة كبيرة ثم يشعل عقب سيجارته ويقف هناك ويدخن، ينظر مرور النساء من البناية نصف المشيدة.

أنظر إلى الكرادة من النافذة وأتعرف على شوارعها وأزقتها وعطفاتها وكأني أراها للمرة الأولى، كنت أريد أن أعيش ذلك اليوم تفجر صخبها، وزعيق باصاتها القادمة من الباب الشرقي، أصوات كوابحها، صخب نسائها، وزعيق أطفالها الذين يلعبون في حدائقها، كنت أريد أن أحيي من بعيد نظافتها ووساختها، مزابلها وعلبها الكارتونية وورق نشافها ورائحة مجاريها، تكاد الفرحة تطفر من قلبي وأنا أنظر إلى الطريق الذي يقود من الحديقة إلى الجامع، تكاد الغبطة أن تقتلني وأنا أنظر إلى المصاطب المقابلة للمطاعم المعتمة من الداخل وقد ازدحمت بالمارة، وانبعثت منها رائحة البطاطس المقلية والباذنجان والفلافل والكبدة المطهية على الطريقة المصرية، وهنالك أيضاً شرائح المخ، سلاطة الخس، والتبولة اللبنانية، والكبة الشامية، والكباب التركي، وروائح البهارات الهندية التي تمتزج كلها بالزحام والصياح وهذا الدوار الغريب والسريع والمذهل، والذي يستولي عليك وأنت تريد أن تنام وسط الزحمة.

كنت أنظر إلى هذا الخليط عبر الزجاج وأحدس من بعيد رأس الخروف المسلوخ الذي يفتح عينيه بصعوبة وقد وضع اللحام في فمة باقة كرفس ورشاد وبقدونس، كنت أنظر في الضوء الرمادي الضعيف إلى الذين يهرولون إلى أعمالهم، إلى فتاة تمر من هناك وهي تمسك يد رجل في فمه سيجارة غير مشتعلة، إلى عجوز تحمل سلة في يدها، إلى مشرد يبحث في النفاية عن شيء يأكله، إلى شخص يجلس على ستول جلدي يشرب كأس بيرة مضلع كبير يفور فيه السائل الأصفر مثل بول الحصان.

كنت أرمي أوراقي إلى الأعلى وأصرخ لماذا أسافر وأمامي هذه المدينة التي تشبه مدينة تجارية، مدينة مأهولة بتنوع مذهل شبيه بتنوع المدن

مكتبة الفكر الجديد

المشيدة على البحر، لا بأديانها وطوائفها وإثنياتها إنما بهذا المزيج الغريب والصاخب والمختلط من تزاحم باعتها وأفواج نسائها ورجالها، إنه مثل نافورة صاخبة من الأحداث تنفجر مرة واحدة:

باصات قديمة تنطلق في عطفاتها، رجل يهرول وراء حصان عضوه متدل إلى الأرض، رجل يتبول على الحائط وأمامه لوحة مكتوب عليها بالبويا الصفراء: «البول للحمير»، وقد فاح إلى جانبه فوحان لاذع، وامرأة تمر من خلفه وهي تحاول أن تتجنب البول المنساب من الرصيف إلى الشارع وهو غير مبال بما حوله، صبية تقف بحذاء أسود غامق، وتنورة بيج، وقد ارتدت إيشارباً على رأسها، رجل يجلس على الطاولة ويأكل ويمسح شاربه بالمنديل، وأمامه فتاة تجلس على الكرسي الذي يقابله بحذاء مخطط وقد وصل إلى بنطالها، وقد كانت ساقها تتحرك في الفراغ وهي تأكل، زبال يكنس وهو ممتعض ويلوي بوجهه القبيح الشبيه بحبة الفاصوليا، متقاعدون يجلسون في الحديقة الصغيرة ببذلاتهم المكوية وحين يصدح الآذان يخطون بهدوء إلى باحة الجامع أو إلى الحسينية القريبة.

كنت أنظر الأرض التي غطتها أعقاب السجائر، والأحذية العتيقة الملونة بالوحل، وبقايا الأطعمة الملفوفة بالورق المبقع بالزيت، وفي الأعلى النوارس التي تأتي من جهة النهر وهي تخفق بأجنحتها البيض وتصفق على سطوح المنازل، أو تطير في السماء صارخة في عمق السماء متجهة نحو قناطر الجسور التي تمر من تحتها القوارب.

كما لو أن الجارية شموس وقفت في هذا المكان بالضبط، داعبت الهواء بيدها فاهتز شعرها القصير، رفعت رأسها وحدقت بالغيوم فتساقط المطر..

كانت المطريات تفتح، ومارة يهرولون أمام الواجهات الزجاجية، وكان المطر يطقطق على العنابر الألمونيومية طوال الشارع، أنظر إلى الساحات

مكتبة الفكر الجديد

وقد تبللت تماماً بالماء ومن بعيد كانت زهور الحديقة تهتز وأشجار الزينة ذات السيقان الضخمة تنتصب أمام المحلات، وفوضى الباعة تحيط بالسيارات ذات الطلاء المقشر والعجلات المطينة، أمام الواجهات الصارخة التي تعرض سترات نسائية، جوارب، سوتيانات، كالسونات، معأطف، مظلات، أحذية، فوتيات جلدية.

كاتب

كانت الساعة على الجدار تحسب برنات متوالية تحولات الجندي إلى كاتب، عابد الطبيعة إلى حكيم، المتسكع إلى ساكن متجذر، المغامر إلى ناسك، وكنت مجنونا من الفرح، كنت أريد أن أضحك، أن أطلق ضحكة مكركرة..وضعت رأسي على وسادة الريش، لم أكن أخطأت فيما ذهبت إليه وقد سكرت بخمرة أكثر سطوة من أية خمرة أخرى، سطوة الكلمات بطبيعة الأمر، وكنت أمام تحد كبير، هل يمكنني أن أكتب صفحة معبرة وبخيال أشد تنبهاً، صفحة تتجمع شيئاً فشيئاً مثل جليد مستنقع يمكنك السير عليه، وبانفعال كامل، وأن تحذف على الدوام الروح المسممة بقلق النقص الذي يهددها، وبصورة مختلفة كلياً عن ما يكتبه الكتاب تلك الأيام، التفجع السياسي الفاضح، والماضي المثقل بالدسائس والمؤامرات، والبطولات التي لم يكونوا يحملون منها شيئاً، كيف تكتب صفحة تتجدد بشكل فائق مثل ثعلب مرح، وتضرب مثل مبارز بالجمل الحيوية الحركات والرشيقة والسريعة، تكتب دون أن تضع حاشية خنوعة عن أوهامك الشخصية وفرديتك التي تقترب من الفوضى، وبصورة أوضح تكتب رواية تشبه الحياة بشكل فوري ومباشر دون الحديث عن الدجاجات الخائفات، والعذراء الخجولة التي تريد أن تخترقها بفحولتك، ولا عن الشيخ المغتاظ، والأم الحادة الطبع، ويمكنك مع ذلك أن لا تعكر هذا الاحتفال التاريخي الصاخب لغفوة بعينين مفتحتين على نبيل مترف مات على نهر دجلة منذ مائة عام، وعلى طبيب تركي كان يقطن في

مكتبة الفكر الجديد

منزل عند الساقية، أو أنثربولوجي جاء من أوربا ليكتب رحلة عن بغداد، كل هذا يمكنك أن تلتقطه بطبيعة الأمر من كتبك وقواميسك وخرائطك وأنت غاطس هناك لتصيد الكلمة مثلما يصيد صياد الأيائل طريدته.

لقطة

هبطت سلم البناية المبلط بالكاشي الموزائيك، كانت الحديقة قذرة ذلك اليوم ومن بين الأشجار رأيت مراهقاً يحيط بذراعه صديقته وهي تتأوه، تنفلت فيركض وراءها بهدوء ليضمها، وأحسست بها، أحسست بصدرها المتوثب على صدره وهي تلهث، تتمنع عليه بينما هو يضمها وأنفاسهما متدافعة، وعيونهما متوقدة تحت المطر الذي يهطل والسكون المضبب الذي يهيمن على حديقة الكنيسة.

هذه مقبرة الكنيسة أعرفها، في الصباح يلعب الأطفال عليها الاستغماية وفي المساء تنطرح العاشقات هناك ليشهقن شهقات الحب، وسيقانهن شبه عاريات، بينما ينام الموتى في تراب الأبدية.

سرت مسافة قصيرة نحو مطعم للبيتزا والمعكرونة والفلافل والبطاطس والتبولة، وهو مطعم صغير يملكه حامد البوصطجي، القومي الذي هرب إلى لبنان في الستينات، وعمل في البريد بعضا من الوقت، وبعد تقاعده اشترى هذا المحل الطالع من منزل بهيجة الكردية، ووضع على واجهته لوحة خشبية كبيرة مضاءة بالنيون تحمل اسم «بيتزا وفلافل بعلبك».

جلست على الطاولة، كان عامل المطعم يحمل صينية بلاستيكية ملونة، موضوعاً عليها صحون الفلافل والبيتزا، وهو يشكو إلى الجالسين من زخة المطر الربيعية هذا الصباح والتي أثرت على لون بنطلونه الجينز الذي لم يكن أصلياً، فوضع الصينية على الطاولة وهو يعوي لأنه نسي مظلته ذلك اليوم في بيت عمته. كان المطعم يطل من طرف على الحديقة الكبيرة

مكتبة الفكر الجديد

المشيدة وسط الحي، ومن الطرف الآخر على منزل طابوقي كبير، مشيد على الطراز الستيني يطلق عليه «منزل سعاد التركمانية»، وهو منزل جميل بباب حديدي مشبك مطلي باللون الأسود، وشبابيك خشبية كبيرة تطل على حديقة داخلية مزروعة بالآس والأزهار، ونافورة وسط الحديقة حولها طاولة بلاستيكية وكراس من الخيزران، أما السياج المشيد بالطابوق الأحمر فقد كان واطئاً ومشبكاً بأعمدة حديدية، يمكنك أن ترى وأنت في المطعم كل الحديقة تقريباً وحتى البوابة الصاج الكبيرة التي تنتهي بدرجات رخامية بيض جميلة كانت نظيفة وممسوحة ذلك اليوم.

الفلافل أو كعكة بروست

ما أن جلست حتى جاء الشاب الذي يعمل في المطعم ووقف أمامي، وضع الصينية على حافة الطاولة البلاستيكية البيضاء التي أجلس عليها:

«اشتطلب عيني..؟»

وارتسمت خلفه مباشرة واجهة المطعم الفقيرة:

فترينة صغيرة، مظلة برتقالية تحت لوحة الواجهة، كراسي على الرصيف وطاولات بلاستيكية...ولا يمكن أن أحذف تلك اللحظة، وأنا أنظر باستقامة كما لو كنت أفكر بما سأطلب، العامل الآخر الذي شد على رأسه قماشة بيضاء وهو يضع الفلافل في طاوة الزيت، وعلى يمينه رفوف، ثلاجة للبيبسي كولا والسفن آب والميرندا، ولوحة لأكلات لبنانية منغلة بطعم عراقي: الفلافل ببهارات عراقية، سلاطة بالعمبة، تبولة على الطريقة المصلاوية، والطرشي النجفي!..

رفعت رأسي نحوه مباشرة وقلت: «قبل كل شي...هذا مو بيت سعاد التركمانية؟».

«إيه..» دون أن يلتفت للوراء.

مكتبة الفكر الجديد

«قلي بعدها عايشة.. لو ماتت؟».

«سبع أرواح..شيموتها..» قال وهو ينظر نحوي، بل في عيني مباشرة.. ينتظر مني دون صبر أن أطلب شيئاً.

«صحن فلافل..طرشي..».ثم قلت:

«طبعاً ماكو عراقي ياكل الفلافل بدون عنبة إلا إذا كان ابن قحبة»...

لم يجبني، استدار رأساً وهو يردد بصوت عال ما طلبت منه للشخص الآخر الذي يقف أمام طاوة الزيت، ويتصاعد بخار الطبخ حوله:

«فلافل..طرشي..عنبة».

صورة

مرت في ذهني صورة سعاد التركمانية طرية وساخنة، صورتها وهي تسير كما رأيتها أول مرة، بفستانها الضيق المشجر، بخلخالها الفضي السميك المشدود على كاحلها الأبيض..تسير بدلع وهي تطق بصندلها الأبيض على الأرض.. طق..طق..كانت تسير إما وحدها أو مع ابنتها تمارى، تمارى السمرة.. ذات المظهر السكسي..وارتسمت صورتها في ذهني في تلك اللحظة كما لو كانت صورة محفورة على لوحة خشبية، ارتسمت صورتها كما رأيتها قبل سنتين عند كشك همبركر أبو يونان.. وتذكرت حركتها السكسية وهي تأكل..ثم تذكرتها بشعرها الأسود الحالك الذي ترده على أكتافها وهي تسير قرب شارع الأورزدي باك في الكرادة إما بالستريج الأسود الضيق أو بالتنورة الزرقة القصيرة..وهي تتلفت بعيونها الحالمة.. أو تتكلم بشفاهها المرتخية... وتظهر أسنانها وهي تعلك بطريقة مثيرة ومغرية..

وضع الشاب صحن الفلافل على الطاولة..

«قلي وبنتها تمارى اتزوجت..»

«أخوية قابل آني مختار..». سد بوابة وجهه الحديدية بوجهي..وسار باتجاه فاترينة المطعم بسرعة ودون توقف.

مكتبة الفكر الجديد

كانت موسيقى الهارد روك تصدح بصورة صاخبة ومرحة، والحديقة بدت مزهرة وخضراء في تشابك حشائشها وأغصانها، وكانت رائحة الفلافل تتصاعد أبخرتها من الصحن بشكل ملتو، وكما لو كانت المارد الذي يصعد بشكل دخاني من مصباح علاء الدين أثرت علي تأثيراً ساحراً، فانفجر خيالي وهو يصعد إلى الأعلى ويصعد..

لقد كان لرائحة الفلافل تأثير كعكة بروست ما أن دخلت أنفي..حتى تذكرت تلك الأيام التي اختفت وضاعت..لقد مر شريط طويل ومتسلسل لكل ما سمعته وعرفته عن سعاد التركمانية..حكايات كثيرة متعالقة مع بعضها ومتزاحمة ومتناقضة أيضاً، حكايات متنوعة، بل مذهلة في تنوعها، تتداخل مع حياة الناس في الستينات وبيئاتهم وأوضاعهم السياسية والتاريخية:

تداخلت حكايات الشيوعيين مع المخرج الذي كانت خليلته، حكاية الحرس القومي مع صديقتها التي تحولت إلى عاهرة في فنادق الدرجة العاشرة، عبد الكريم قاسم مع حياة الضابط الذي عاشت معه، حركة حسن سريع مع قصة الرجل الذي تزوجها وهو والد تمارى وعباس، حكايات بعيدة أخرى ومتناثرة، حكاية ضابط شهيد، وتاجر هارب، وموظفة في البنك المركزي هاجرت.. حكايات شخصية..نعم..شخصية جداً!.. لكنها مع ذلك تنشبك وبصورة غريبة ومثيرة وعجيبة مع تاريخ السياسة والمجتمع والأفراد..والمحلات..والأسواق والبوتيكات والتجار والفنادق..تلتحم بشكل نابض وحي مع ما نطلق عليه ببساطة: (حياة).

وضعت الطرشي المخلل الحاد في فمي..انتعشت.. ثم مرت صورتها الساخنة والطرية في ذهني ولكن هذه المرة..بالأسود والأبيض..وفي عصر آخر لم أشهده..هو عصر الستينات..لقد استعدت صورتها عبر كولاج دقيق وأنا أنظر هذه اللحظة إلى منزلها الطابوقي العتيق، وأضع الفلافل

مكتبة الفكر الجديد

في فمي ورائحة العنبة تشق منخاري بحدتها ولذوعتها، كانت تتزاحم في ذهني كولاجات لا حصر لها، كولاجات كنت أنا من يصنعها عبر جمل وصور متنافرة ومتفرقة، مرت جملة شمعون الآثوري صاحب البار القريب من كراج ارخيته في ذهني مثل نيزك وانطفأت..جملة عادية لكنها تقلب كل شيء رأساً على عقب.. قال لي إن تمارى تشبه أمها أيام الستينات، أيام كانت تعمل بالتلفزيون..فانفجرت أمامي صورة تمارى خلف بخار من الذهب.. صورة تمارى وأنت تخلع لها بنطلونها وقميصها وقمصلتها الجلدية السوداء موديل التسعينات، وتلبسها ملابس أخرى، ملابس الممثلاّت والمطربات البغداديات أيام الستينات، مائدة نزهت، عفيفة اسكندر، أحلام وهبي.

صورة

واقفة وهي ترتدي فستانا سترابليس أبيض كي يظهر أبطها الحليق الذي تنبعث منه رائحة ريف دوف صاخبة مثرثرة، فتحة بتقويرة للصدر الأبيض.. ثم قصة الشعر الإنكليزية ذات الكسرات التي تشبه قصة شعر ملكة الإغراء في الشاشة المصرية أوانذاك: هند رستم..

كل الذين عرفوها في ذلك الوقت أكدوا بأنها كانت ملكة إغراء بحق وحقيقة، وكان يمكنها أن تكون أحسن بكثير من هند رستم لو كانت في مصر مثلاً، ولكنها في تلفزيون مثل تلفزيون بغداد..أصبح الأمر مختلفا بطبيعة الأمر، حتى وإن كان طموحها كبيراً ولا يقف عند حد، ومع ذلك ما كان بإمكانها أن تتجاوز هذه المحدودية المقيتة في الإمكانيات، لا إمكانيات التلفزيون حسب-إن شئنا الدقة- إنما إمكانيات المجتمع أيضاً، بيد أن حركاتها السكسية وإغراءها كانا قاتلين طبعاً، ومع ذلك لم يؤهلها إلا للعمل بأدوار ثانوية في فرقة مسرحية مع يوسف العاني فترة من الزمن، لكنها كانت تعرف أكثر من غيرها بأنها ستكون بحال أفضل في التلفزيون، ومع إن البغداديين الذين كانوا يجلسون في المساء أمام التلفزيونات الصغيرة

مكتبة الفكر الجديد

من ماركة باي الإنكليزية يستمتعون جداً باسكتشاتها الصغيرة مع الممثل الساخر حقي الشبلي، إلا أنها تلقت نصيحة بالعمل في الإعلانات التي شاعت ذلك الوقت، أو في وصلات الرقص في الملاهي، فأدت عدداً من الإعلانات الشهيرة في تلك الأيام والتي يتذكرها الناس إلى اليوم، مثل: إعلان شوكلاته العبد، دهن الراعي، إعلان بيبسي كولا حين جاء رفعت رشيد بامتياز الشركة إلى بغداد، أما الإعلان الذي اشتهرت به فهو علكة أبو السهم: الضحكة المغنجة، الصوت المتكسر، اللكنة التركمانية، والعلكة التي تتحرك بين الشفتين الحمراوين المقلوبتين، أما الأسنان فقد كانت بيضاء وقد خطت الحمرة مسحة خفيفة عليها..

كنت ألوك بسندويش الفلافل ببطء وهدوء شديدين بينما ترتسم صورتها في ذهني وأنا شبه غائب عن الوعي:

صورة

واقفة هناك بفستانها الأبيض واسكاربيلها العالي، ولكي أكمل المشهد وضعت خلفها مباشرة شارع البولصخانة في الستينات كما لو كان مرسوما بالحبر الصيني، أو كما هو في الصور الفوتوغرافية أيام زمان باللونين الأبيض والأسود..وهكذا أصبح بإمكاني أن أراها وهي تمر باسكاربيلها العالي وتنورتها المشدودة على الورك من محلات جورج في العرصات، أو من داني الجواهرجي قرب نادي الهندية، يمكنني في تلك اللحظة أن أختار الخلفية وأضعها كما أشاء دون أن أنسى الشجرة الكبيرة التي تقف عندها سيارة فورد أمريكية بيضاء تشطح هناك، ومن دون أن أنسى مظلة المصلحة الجينكو التي تقف عندها سيارة ليلاند إنكليزية حمراء ثم تنغر على الإسفلت، وفي قلب الصورة تمر سعاد التركمانية بالتفاتتها السريعة، وابتسامتها القاتلة الكافية ليخر ألف شاب صريعاً على مبعدة شبر واحد فقط من إسكاربيلها الروغان الأسود العالي.

مكتبة الفكر الجديد

كانت صورها تتلاحق في ذهني مع هبات الريح التي تنفذ إلى ملابسي العادية نفوذاً مثيراً كأنها يدها، كنت أشعر بها تلك اللحظة، وأشعر بجسدها الحر وهو ينبض تحت ملابسها المثيرة، كنت أحس انسياب الهواء على جلدها وعلى جلدي معاً، وأفكر بذلك الشاب في الستينات الذي كان يجلس محتشما على مقربة منها، وهما يتبادلان النظرات مبتسمين، بينما تعبث ضربات الريح بشعرهما، هذه الملاطفات التي كانت تجمد الكلمات على شفتيها هل كانت ملاطفات عشيقها أم زوجها؟ عشرات المرات سمعت إنها تزوجت، وفي كل مرة بالتنغيم الصوتي ذاته:

«ايه بلي..تزوجت واحد من بيت الدامرجي.. ثري من أصل إيراني.. ساكن بالعرصات»

ولكنه طلقها..أو في الحقيقة لم يحتمل طيشها، أو لم يحتمل ما قيل ويقال عنها، أو خلاص..انتهت نزوة..وخلاص..أو لأنه لا يريد مشاكل مع أهله..أو كان متزوجا في بيت وعنده أطفال وتزوجها وسكنها في بيت آخر.. أو عرفوا أهله وصارت مشاكل..أهله من التبعية الإيرانية..فمن يوافق على زواجه من سنية..تركمانية..ممثلة بالتلفزيون؟

طبعاً..طبعاً..

بس..في الحقيقة هي التي تركت هذا الثري، الواهن والساذج والسلبي.. وقالت:

«وإذا من بيت الدامرجي..خره عليه وعلى أهله..».

وسرعان ما أصبحت عشيقة للمخرج الشاب أسعد مصطفى الأعظمي، كان أوانذاك في الثلاثين من عمره، وقد عمل في تلفزيون بغداد بعد قدومه مباشرة من لندن عقب إنهاء دراسته في معهد أوكسفورد للسينما، ولم يأت وحده..إنما عاد بزوجة إنكليزية ذات نزعة متعالية ومتسلطة..وسكنا في منزل صغير قرب المقبرة الملكية..

مكتبة الفكر الجديد

في تلك السنوات كانت الأعظمية قد تغيرت كثيراً، ولم تعد تشبه ما كانت عليه أبداً، فقد اختار الأثرياء أطراف بغداد، وملكوا الأراضي الخضراء وشيدوا عليها الفيلات والقصور والمزارع والبساتين والأندية، ولا سيما الأراضي القريبة من النهر والمساحات الجميلة بين العلوية والكرادة وبين الوزيرية والأعظمية، وتجاوزت السفارات الأجنبية والقنصليات والمكاتب الاستشارية من شارع السعدون حتى الكرادة، وكانت بنات الأثرياء يطلبن ما يروق لهن من الملابس والحلي والأحذية والحقائب وأنشأت الكثير من المكاتب والمتاجر الفاخرة، وأصبح في بغداد مطاعم جديدة وفنادق وأوتيلات وموتيلات من نوع راق يرتادها الأجانب والعراقيون، وأصبحوا يأكلون القواقع والسرطانات البحرية والكافيار والمشروبات الروحية، وبدأ العراقيون بشرب الشمبانيا، وإقامة حفلات عيد رأس السنة في البيوت، وتعلم الرقص، وأصبح هنالك العديد من النوادي والأحياء الراقية.

العشيقة والزوجة الإنكليزية

لقد رأته سعاد أكثر من مرة في الشارع، خارج العمل، قبل أن تصبح عشيقته، رأته مرة في الوزيرية، ومرة في عرصات الهندية، ومرة في الأعظمية:

لقطة

كان يمشي على الرصيف في كمب راغبة خاتون عند المساء، أمام الدكاكين والمحلات والبوتيكات بعرضها الباهر، وبهرجتها المضاءة، كان يرتدي البدلة الإنكليزية الرمادية الصوف، بينما كانت المربية تدفع عربة الطفل، وإلى جانبه زوجته الإنكليزية الباردة ذات المظهر المحتشم، والوجه الأبيض المدبب وهي ترفع رأسها بكبرياء، سلمت عليه في الشارع ونظرت إلى زوجته..فرأتها قبيحة بملابس عادية، ولها جثة ضخمة مثل رجل، بينما هو عذب وهادئ وجذاب بسيره الرصين والمذهل، إن كان ضعيف الموهبة في الإخراج، منشغلا بنفسه وبزوجته، متراخياً، هذا أمر يمكن تجاهله، ولكنه

مكتبة الفكر الجديد

جذاب في الوقت ذاته، وسيم وأرستقراطي ومهذب، يمكن أن تحبه طائشة جميلة من أصل وضيع ترى فيه كل ما هي محرومة منه.

لقد أحبته بشغف، لقد خلب قلبها بهدوئه، كانت ترى فيه نبياً أو أميراً، أو شيئاً عصياً على المنال، كانت تشعر بأنها لا تستنفده ولا تشبع منه ولا تعرفه..وحتى حينما كانت ترتعش تحته بقوة وشغف في الفراش.. كانت تشعر بفراغ في روحها وجسدها وكانت تريده أن يملأه..كانت تريد أن تلتهمه من حبها له.. «الحب..حب العاهرات وبس..» قالها حنا الألقوشلي مرة عن خبرة طبعاً..حب يائس..حب مخلص..قاتل ومميت.

لقد وافقت زوجته أن تعيش خليلته معها في المنزل.

غير أن سعاد أدركت في اليوم الذي حملت حقيبتها ودخلت منزله، بأن أيامها قصيرة هنا، وبعيداً عن الراحة والدفء والإفطار الشهي وتناول الطعام وشرب القهوة، كان مكانها في المطبخ، وحين كانت ترفع عينيها الحالمتين نحوه يقف متسمرا في مكانه خشية من زوجته، وعند هذا الحد كانت أحلامها تتوقف، أما حياتها الجنسية فقد كانت صراعاً عنيفاً ومتصلاً مع مراقبة زوجته له ومتابعتها، لقد فهمت سعاد في البدء أنها سترعاها من الناحية الأخلاقية، وقد اعطتها حجرة قريبة من المطبخ بسيطة وبعيدة عن الأنظار، وفي جانب من المطبخ يوجد باب يؤدي إلى ممر صغير ينتهي بغرفة نوم، وهي تحتوي على سرير حديدي لشخصين ومنضدة، وثلاثة مقاعد، ومصباح بشادو أخضر، وكانت الأرضية مفروشة بسجادة تركية رديئة، أما الحمام الصغير فكان في الممر، ومن النادر أن رآها أحد في النهار وهي تستخدمه، غير أن الأمر تغير بعد أيام قليلة:

مشهد

كان الوقت ليلاً، أوقف سيارته الشوفرليت البيضاء في الكراج الخلفي، و كانت سعاد تراقبه بتكاسل وصمت من نافذة حجرتها.

مكتبة الفكر الجديد

هبط من السيارة وأغلق بابها بهدوء، توقف، ثم تناول سيجارة من العلبة التي أخرجها من جيب سرواله وأشعلها، كان جسمه النحيل يرتعد من الهواء البارد المثقل بهواء الحديقة، سار خطوات ثم تناول مفتاحه وفتح باب المطبخ، حين دخل عادت سعاد إلى سريرها وقد سمعته أنار المصباح في الممر، كان قلبها يدق بقوة حتى كادت أنفاسها تخنقها. فتح باب حجرتها بهدوء، ودخل. نظرت إليه، كان يرتدي بذلة كحلية ومعطفاً وبوتاً من الجلد، خلع جاكتته، فألقى المصباح ذو الشادو الأخضر ضوءاً باهتاً على جسمه النحيل وعلى عينيه اللامعتين، اقترب منها، وقبل أن تحتضنه بذراعيها الراعشتين، دخلت زوجته إلى الحجرة وراءه، وأخذت تصرخ بها «يو آر بج...يو آر بج»، ثم قادت سعاد من يدها ورمتها في المطبخ.

لقد عاشت أكثر من شهر عذابا حقيقيا مع هذه الزوجة المجنونة التي قبلت بها خليلة له، وهي التي أصرت أن يجلبها إلى المنزل، ذلك لأنها كانت تريد تدميرها وإهانتها وتحطيم علاقتهما، إذ كانت تدرك هذه الإنكليزية بحسها البيكوني الفطري المدقق أن لقاء زوجها بخليلته من دون علمها هكذا في مكان بعيد سيديم علاقتهما، وحين أقنعته بجلبها إلى المنزل أخضعتها إلى سلطتها وإهانتها، واكتشفت سعاد كم كان عشيقها ضعيفاً وجباناً، فقررت الرحيل، الرحيل بدلاً من العيش في هذا الاستنكار الأخلاقي من زوجة إنكليزية متسلطة وعاشق نكد، ضعيف، وأناني.

كان كل شيء يختلط في ذهني في تلك اللحظات: صور، أحداث، أقوال، قصص كثيرة ومتنوعة غامضة أحيانا..وشنيعة في أحيان أخرى، ولكن هل يمكن لي أن أتصور الحياة الآن بصورة أفضل مما كانت تتصورها سعاد وهي التعيسة التي غادرت منزل عشيقها قرب المقبرة الملكية في الأعظمية، وذهبت كي يخدرها البؤس في شقق الدرجة العاشرة كعاهرة في البتاوين أول الأمر، لأنها غير قادرة على العودة إلى التلفزيون بوجوده

مكتبة الفكر الجديد

مخرجاً هناك، أو لأنها أدمنت الكحول لمدة من الزمن بعد أن غادرته وشعرت بخديعته، أو لأنها كانت تريد معاقبة نفسها وإذلالها، أو لأسباب أخرى لم أعرفها حتى الآن.

قلت في نفسي وأنا أضرب الطاولة..أن تعاني وسط هذا الانفجار العظيم لزوبعة حياتها، فهي محقة دون شك، لقد عانت..وقاست مأساة امرأة جميلة لكنها فقيرة، وهذه مأساة حقيقية، ذلك لأن الامتياز الطبيعي ولا سيما الجمال يسلخ المرأة عن طبقتها ويوحدها مع روح العصر، وروح العصر لا يعيشه إلا من يملك المال، وهكذا فقد كانت تريد أن تعيش عصرها في الروحية والأسلوب، مما أدى بها إلى رفض معذب لبيئتها الفقيرة وتعلقها بحياة توفرها مدينة ناشئة على الطريقة الأوربية تمنح المرأة التي تريد أن تعيش بعيداً عن أهلها استقلالاً من نوع ما، ولكن هذا الاستقلال بحاجة إلى إدامة، وخيال المرأة القروي وهو خارق في كثافته الحية، لا يؤدي إلا إلى مفهوم خاص من التحضر، وهو التعهر بطبيعة الأمر، بل إن التعهر والتحضر يختلطان ببعضهما عند القرويين القادمين إلى المدن بصورة فاضحة...وابتسمت ابتسامة حزينة وأنا أفكر في نفسي..وأتساءل هل كانت سعاد تدرك بأنها نتاج مجتمع متخلف مغترب، كانت حياته الحضرية تدخل من الباب لتخرج من الشباك، هل كانت تدرك هذه المرأة الساذجة والجميلة أنها كانت تعيش في مجتمع استبدادي تم تحريره حديثا.. كل شيء في هذا المجتمع سرعان ما يتعرض للوهن والخراب، وستجد سعاد نفسها مضطرة للتأقلم مع تغير العلاقات الذي يتطلبه النظام الاجتماعي الحديث في بغداد، وفوق طبيعته الشرقية بكل علاقاتها وأسسها وجدت الحياة الغربية الوافدة: بارات، أوتيلات، موتيلات مؤثثة، غرف نوم حديثة تم استحضارها- وقبل أن أسرد مع نفسي زواجها الساخر والمأساوي معاً ارتسم في ذهني عصر التحولات الحقيقية في الخمسينات والستينات، ارتسمت في ذهني بغداد بعد الحرب العالمية الثانية:

مكتبة الفكر الجديد

شارع الرشيد

في شارع الرشيد بدكاكينه ومتاجره وسينماته..تمر السيارات بشكل متتابع...وهنالك رجال ونساء يمرون..وفي المساء كان الجنود الإنكليز العاملين في القواعد والمطارات يتزاحمون على البارات والملاهي، يبحثون عن المتع الحسية والخمور..راقصات في الملاهي..عاهرات في الشوارع.. وفي بيوت الدعارة في البتاوين والكرادة عند الليل، وهنالك مجموعة منهم يمسكون قنينة الويسكي يشربون ويضحكون...

شعور

إن ما أجج الحس الوطني عند سعاد وعند جميع العاهرات المحليات هو شعورهن بالخذلان، فبعد انتشار البارات والمسارح والبيوت السرية والعلنية وسط هذا المناخ تم استيراد راقصات ومومسات جديدات ينافسن المحليات، لبنانيات سوريات مصريات، قبل دخول اليونانيات والقبرصيات اللواتي جاء بهن حاجي معروف الكردي في العرصات..وقد تعرفت سعاد أوانذاك على طبقة جديدة وللمرة الأولى من تجار الراقصات، بعضهم كان له علاقات مع رجال الدولة، وبعضهم دخل في مؤأمرات مشبوهة كثيرة كانت تحاك تلك الأيام وتتعقد، في السفارات والمخابرات وبيوت السياسة ونوادي الأحزاب، وكأن الحياة الفوقانية للنظم والسياسة لا تلتقي إلا في هذا الجنس المؤجر، وكانت تدرك بأنها بفقدانها لبعض مزاياها: الشباب، الحيوية، الإغراء، ستتحول دون شك إلى مومس بائسة، عادية، تقطن إما في الفنادق الرخيصة والعفنة في البتاوين، أو في المنازل شبه المتداعية في الميدان، وإذا حصلت على فرصة أرقى بقليل، فإنها ستقطن في شقق بسيطة حول منطقة البتاوين والكرادة وشارع كهرمانة وعرصات الهندية، أما المنافسة فقد كانت شديدة، لا من المستوردات حسب إنما من المحليات، ومن الريفيات، وقد كان للوضع الاقتصادي المتدهور

مكتبة الفكر الجديد

في الريف أكبر الأثر في اندفاع عدد كبير من الفلاحات الشروقيات خاصة الجميلات اللواتي يتمتعن بمواهب جسدية قادرة على كسب بعض الزوار.

كان علي أن أصوغ الصورة مرة أخرى، صورة سعاد حين عملت في ملهى الطاحونة الحمراء:

صورة

الملابس شبه العارية، الشفتان الملمومتان، والشعر الذي يرتعش على وجهها بتكسراته المغرية، كان جسدها دون شك، بضا، أبيض، مثل خيط من الرشاقة البكر، وهذه القدرة التعبيرية في هز المؤخرة، والجاذبية الجنسية في لي الذراعين وإظهار الساقين الناعمتين وتحريك البطن، إنها تعرض على الدوام ابتسامة لعوباً فوق شفتيها اللتين تلتهبان معنى.

ولكن كيف فشلت سعاد في منافسة اللبنانيات والمصريات الخبيرات بفن الجذب، وبكسب الأثرياء الذين كانوا يبحثون عن التغريب في الجنس والرقص معاً، فلا بد أنهن دبرن لها مكيدة لدحرها، وبالفعل، فقد دبرن لها هذه المكيدة التي أدت بصاحب الملهى إلى طردها، فانحدرت سعاد مباشرة إلى فنادق الدرجة العاشرة في البتاوين:

لقطة

سارت سعاد في الممر في فندق السعدون وفي يدها قنينة العرق، كانت ذابلة، متعبة، ترد الروب الأحمر المتهرئ على جسدها النحيل والعاري، وحين يدخل الزبون تفتح روبها دون كالسون دون ستيان لينظرها ثم يأخذها إلى الحجرة المجاورة لينام معها في المكان شبه المعتم، ينام معها على سرير خشبي مساميره تصر، وعلى فراش متهرئ، قذر، ولحاف عتيق وتتراءى خلفها الجدران التي حت جصها، ونملتها الرطوبة وثقبتها العثة، وهنالك ما هو أقسى على روحها وأفظع بكثير من هذا، هو انحدارها كي تضاجع الزبالين أيام الراتب، والكناسين، وباعة السجائر، وباعة اللبلبي،

مكتبة الفكر الجديد

والعتالين، والمكارية، والجنود، ونواب العرفاء، لقد تحولت حياتها إلى جحيم حقيقي، ولفترة غير قصيرة..ومع شفطة من قنينة الميرندا أدركت وأنا أنقلها من صورة إلى صورة في ذهني، بأنه يمكن للصدفة أن تنقذها من هذه الهاوية:

في الشارع المقابل لحديقة البتاوين كان هنالك منزل مربع مسطح الجدران وأمامه حديقة يبرز من وراء سياجها نخلتان ونبقة خضراء داكنة، وقد انهمر على السياج شجر النارنج الكثيف، لا تعرف من يسكنه ولم يصدف أن مرت يوما ورأت من فيه، وفي يوم مرت من هناك، فصدح صوت كان في الداخل:

«سعاد..سعاد..» وخرجت ماري الأرمنية، كانت بيضاوية الوجه، ناصعة، شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء، خرجت بالروب دوشامبر الأزرق السماوي وعليه رسوم صغيرة، وبنعال من الإسفنج.

وقد عرفتها سعاد مباشرة فقد كانت ماري تعمل معها في ملهى الطاحونة الحمراء وقد تزوجت صاحب ملهى شهير مسيحي من الموصل، وقد فتح لها أرينا كلوب في العرصات، وهو مطعم وبار في الليل، وفي الصباح تعطي ماري دروسا في الرقص لمن يرغب بذلك، وطلبت منها أن تأتي للعمل معها، ووفرت لها حجرة في النادي، وأعفتها من سهر الليل ومن الرقص على المسرح، وطلبت منها مساعدتها في تقديم دروس في الرقص في الصباح، في المكان ذاته.

وقد تمكنت سعاد بحيويتها، وهذا المزيج الحي والنابض وهو الأشد روعة فيها من أن تحصل على عشيق ثابت يعمل ضابطاً كبيراً في الجيش، أما كيف حصلت عليه، فهناك قصص عديدة رواها أشخاص مختلفون، كانت أصواتهم ترن في أذني، أما الصوت الذي يعلو فهو صوت خوشابا المصور الذي كان يعمل مع الحاج أمري سليم صاحب ستوديو كولومبيا

مكتبة الفكر الجديد

في بغداد، مصور الزعيم عبد الكريم قاسم في الستينات كما هو معروف:

«طبعاً صادقت محمود ماوردي صديق عبدالكريم قاسم..إجوا اثنينهم حتى يتعلمون رقص عند ماري بأرينا كلوب..وآني كنت أصور هناك.. وطيرها..من عبد الكريم قاسم..».

بلكنة كلدانية واضحة..ببساطة شديدة.. وباختزال يروي خوشابا القصة كما يتصورها هو.. أما أنا فالأمر نسبة لي مختلف لأني أعرف أكثر من قصة يمكن تلصيقها ببعضها وأنا ألتهم البقايا الأخيرة من الفلافل..

عاهرات رقيقات وضباط رومانطيقيون

دخلت سعاد بفستانها الأبيض، وشعرها القصير من بوابة النادي الزجاجية الصغيرة وأخذت تخطو في الممر بساقيها الناصعتين على الحذاء ذي الكعب الرفيع العالي، الصدر بارز إلى الأمام والمؤخرة مستديرة، تتكور تحت نسيج أبيض ناعم وقد ظهر بشكل مغري حز اللباس.

كانت ماري هناك، تعلق بدبوس صغير ورقة لأوقات دروس الرقص في الفالز، والسلو، والسامبا والتانغو..وغيرها مما كان شائعا أوانذاك..وقفت سعاد متكئة على الحائط، أخرجت سيجارة بيضاء من حقيبتها الصغيرة وأشعلتها وهي تنظر إلى القاعة الفارغة التي صدحت فيها أنغام البيانو.

وفي تلك اللحظة دخل ضابطان ببزيتهما العسكريتين، الأول، عبد الكريم، كان نحيفاً وخجولاً ومتردداً، والثاني وهو محمود كان حيوياً ومرحاً، أرادا تعلم رقصة السلو، الأول تكفلت ماري بتعليمه، والثاني كان من نصيب سعاد، وفي اليوم التالي كان كلاهما ببنطلونين بلون بيج، وقميصين أبيضين نصف كم، يتطوحان ضاحكين ومكركرين بين أيدي أرق عاهرتين في بغداد، هذان اللذان أصبح مصير العراق بعد أشهر بين أيديهما، كان مصيرهما بين أيدي ماري وسعاد، واحدة تجذبه من يده، والأخرى تدمغه على رأسه

مكتبة الفكر الجديد

حين يخطأ بالحركة، وأخرى تدفعه، روح هناك تعال جاي..وهما يكركران، وإن كان انطباع ماري عن مراقصها بأنه خايب وخجول ومتردد، غير نافع لا في الجنس ولا في الرقص، فقد أدركت بعد أشهر حين صار الانقلاب أن السياسة والأعمال التاريخية العظيمة ليست بالضرورة لرجال خارقين، إنما أيضاً للتافهين والخجولين والمترددين.

أما سعاد فقد كان الأمر مختلفاً معها، كان محمود أقل رشاقة، إلا أنه لم يكن خاملاً، بل أكثر ذكاء وحيوية واتقاداً، وحين التصقت به لم يمانع بل شعرت بانتصابه واحمرار عينيه وتصاعد نفسه، حركة للأمام، حركة للوراء، وألصقت ساقيها الساخنتين والمتمردتين على ساقيه، وكانت نغمات البيانو ونبضاته العذبة تصدح في الصالة، وأخذ هو ينقل خطواته مع خطواتها بينما تغرق عيناه في بئر عينيها اللتين تومضان بسوادهما، وقد عرف من لمسة يديها حناناً لا شفاء منه، لقد كان جسدها اللين يهفهف كالموج وهو يلتصق به أكثر من مرة، فقرر أن يأتي وحده في اليوم التالي دون صديقه:

مشهد

دخل محمود ببنطلونه الأبيض بكسرتين من الأعلى، وكفة من الأسفل، على حذاء تاب، وقميص حريري ناعم، وما أن خطا بضعة خطوات نحو سعاد حتى أدركت ماري مقصده، رمت المنشفة البيضاء التي كانت تضعها على كتفها على الأريكة وخرجت، وبقيا معاً، نقل خطوته مرة واثنين، توقف، ومد أصابعه فتحسس صدرها البض، ومررها على شفتيها المرتجفتين، ثم مررها بين ساقيها وارتعش للشق الطري الملتئم بنعومة تحت البنطلون الشفاف، كاد أن يلتهمها بعينيه يلتهم صدرها الصغير والمتصلب والذي يبرز من الفانيلا الرقيقة التي كانت ترتديها، وحين مد يده ولامس نعومة وركيها وردفيها استسلمت له كلياً، خلعا ملابسهما ورماها على الأريكة

مكتبة الفكر الجديد

ثم دخلا المخزن شبه المظلم جوار الصالة وأغلقا الباب.

كانت الفسحة الحولية أمام الصالة فارغة إلا من أم زيا المنظفة المسيحية التي أخذت تكنس بمكنستها بلاط الأرضية، كانت الموسيقى تصدح والشمس تبرق مثل الموسى في الصالة، إلا أنها لا تطغى على تأوهات العاشقين، نظرت أم زيا إلى الملابس المكومة على الأريكة، تحسستها، وتحسست دفء الأجساد التي كانت تحتها، شهقت وهي تقبض برغبة مكبوتة عصا المكنسة، مدت يدها إلى الإيشارب الذي وضعته على رأسها وشدته من عند عنقها، وعادت لتكنس وهي تفكر بزوجها الذي هاجر إلى أميركا للعمل قبل عام، وقد احمر خداها حمرة خفيفة.

لقد أرادها عشيقة له، ووافقت مباشرة..ما كان لها إلا أن توافق وكانت تدرك أنها تصعد السلم شيئاً فشيئاً، إن هبطت درجة فإنها بطموحها وذكائها تصعد درجتين، أما مقدار صحة الروايات ومقدار تطابقها مع تواريخ حياتها، ومراحلها وتعاقبها طبقا إلى تعرفها على عشاقها الآخرين، هذا ما لم أفكر به على الإطلاق ولكني كنت أنطلق بخيالي مع كل رواية كنت سمعتها..وكان للطرشي اللاذع سطوة تعادل سطوة كعكة المادلين عند مارسيل بروست، ومثل المارد الذي يخرج من مصباح علاء الدين كان خيالي ينطلق أبعد وأبعد، وأنا أنظر إلى نوافذ منزلها أمامي، وسياجه الجميل، ودرجات سلمه المغسولة والنظيفة..الماوردي عشيق سعاد كيف أتخيله؟..أكثر الكتب الموجودة في المكتبات فيها صور جماعية للضباط الإنقلابيين: عبد الكريم قاسم ومرافقه طاهر يحيى، وعبد السلام عارف، ورفعت الحاج سري..وهناك شاب أسمر..قصير..له شارب ناعم على شفتيه الغليظتين..وله عينان ماكرتان هو محمود الماوردي :

«ماعون طرشي الله يخليك..» صحت.

«صار..» أجاب.

مكتبة الفكر الجديد

وانسرح خيالي هناك، انسرح خيالي في ذلك العصر وفي ذلك المكان، وأنا أنظر إلى هذه الحديقة الغابية الفارهة، وأدرك كم كانت سعاد في ذلك الوقت أسيرة لإيحائها، وهو مذهل بطبيعة الأمر، ثمة شيء رقيق يتلاحق في هذا المكان، أصوات خافتة تتمدد في هذا الهدوء العميق والشفاف والذي يكشف حياتها، كنت أتذكر ما كانوا يتحدثونه عن عشيقها:

«..طبعاً..كانت مصاحبة واحد من بيت الماوردي..كان صديق عبد الكريم قاسم..».

بيت الماوردي..هذا يعني من طبقة الملاكين الأثرياء، وفضلاً عن المنازل التي يملكونها، كانوا يملكون أراضي زراعية ضخمة.

«يا معود..طبعاً..سرق..وباق أيام الثورة..ضباط وكل شي بأيديهم..».

في الواقع كان محمود الماوردي ثرياً قبل الثورة..وقد أثرت الثورة بطبيعة الأمر على ملكيات الطبقات الأرستقراطية وأممت أراض الإقطاع..ولكن لبيت الماوردي أراض في المدن ومتاجر كثيرة واستثمارات..كما إن الثورة لم تؤثر على ممتلكاتهم الباقية: على منازلهم أو على أحيائهم الجميلة الراقية، وبقيت أحياء الوزيرية ونجيب باشا وشارع الأميرات والمسبح على حالها، ولكن دخلت طبقة جديدة مستفيدة من الثورة في نطاقها وسكن بعض الضباط منازلها وعماراتها وفيلاتها، وهذا الأمر لا ينطبق إطلاقاً على محمود الماوردي.. صحيح كان قريباً من الزعيم قاسم..بس ما كان محتاجاً لأحد.

هل كانت سعاد تتعرف بحسها وغريزتها على هذه النظرة الجديدة التي أخذت تشطر المدينة الآسيوية إلى شطرين متمايزين من الناحية الطبوغرافية، طبعاً..طبعاً..كان يمكنها وهي تقف أمام أية حديقة من حدائق المنازل التي أصبح الأثرياء يزينون بها منازلهم، وتدرك أن المنزل أصبح التعبير الحقيقي للطبقة، ففي الوقت الذي كانت تتشابه فيه المنازل في نظرها من قبل،

مكتبة الفكر الجديد

وتتداخل بيوت الفقراء والأثرياء، فقد اختلفت نسبة لها الآن، واختلفت الأحياء، ليس بالضرورة أن تكون لها نظرة طبوغرافية وسوسيولوجية عالية للمكان، ولكن هذا الحس الغريزي والطبيعي للإنسان وهو يرى شيئاً جديداً تماماً أصبح يشطر المكان، فمنازل الأثرياء ورجال المال والمصارف والإقطاعيين وضباط الجيش والأجانب والتجار الإيرانيين والصيارفة اليهود في الكرادة والوزيرية والمنصور أخذت تتجمع على نفسها، وأصبح التمايز على أساس المنزل وهو المنزلة، والثاني هو التوزيع الجغرافي الجديد للطبقات، فأصبحت هنالك مناطق خاصة للأثرياء، تتحدد بامتيازاتها التي تجعلها بمنأى عن بيوت الصفيح والأكواخ والصرايف التي يسكنها الفقراء والبائسون.

وقد تعرفت سعاد خلال تلك السنوات على حياة جديدة مختلفة كلياً عما عاشته في حياتها السابقة، لا أقصد الفقر والمرض في الأوتيلات الرخيصة، إنما في كل حياتها، لقد سافرت وللمرة الأولى مع عشيقها الجديد إلى لبنان، والمغرب، ومصر:

«أوه..سفرة متعبة..ولو السكن بفنادق الدرجة الأولى.. ايه بالميناهاوس وبالكونتنتل..»

هكذا صارت تتكلم بالتلفون مع صديقاتها..ثم تنادي السائق عبود ليأخذها للتنزه بالسيارة على شاطئ أبي نؤاس.. أو يأخذها للحفلة الخاصة التي يقيمها أحد التجار في نادي العلوية أو نادي الصيد...سعاد هناك تنظر بشكل عادي تماماً لمجتمع جديد، وتتعامل كسيدة مع وجود عدد ضخم من البوابين والسفرجية والخدم، وتجلس مع الناس الذين يبعثون بأولادهم إلى المدارس الأجنبية مثل جامعة الحكمة ومدرسة القديس يوسف، ومدرسة عادل، ونجيب باشا..وتتعرف شيئاً فشيئاً على مجتمعات الخدمة، حياة المربيات الأجنبيات، والجلوس في المنازل المؤثثة المؤجرة

مكتبة الفكر الجديد

ذات الحديقة الكبيرة والأثاث الأنيق الذي يشترونه من الطرابلسي، تاجر الأثاث اللبناني، وأخذت ترتدي قماش الفاي المتوهج، وقماش ميناتر، وصارت تعرف كيف تضع الأسطوانة في الغرامفون وهي تشرب القهوة في الصباح..وتقول وهي تضع الفنجان على الطاولة:

«إيه بلي اليوم أروح إلى محلات ريتا للأناقة..»

أو تقول: «لا والله اليوم أروح لحسو أخوان أريد أشتري فد بدلة لمحمود».

أو : «إيه..إيه راح أروح للبلداوي أريد أشتريله فد ربطة..».

وفي الليل تذهب إلى حفلات الرقص في النادي، أو في عمارة أنيقة رابضة في شارع السعدون، لقد تعلمت الجلوس في البارات الأنيقة والهادئة، تنشد متعة كؤوس الكرستال وهي ترتدي فراء الريناجو أو فراء الفيزون ويجلس محمود بالقرب منها بالحلة الأسموكنك، وحين تضع السيجارة في فمها يخرج القداحة من جيبه ويشعلها لها.

لقد تعلمت انتقاء فساتين السهرة الباذخة، ولم يعد يعجبها سوى عالم كريستيان ديور، وعالم كارفن، وهناك في الدور الثاني من البيت الكبير الذي اشتراه لها، وهو نفس المنزل الذي أنظر إليه الآن وأنا أأكل الفلافل، حجرة الصالون، حجرة المكتبة، والأنترية، وحجرات النوم، والحمام، والثريات المتدلية من السقوف العالية، وعرفت في تلك الفترة الطبيب الخاص، قرية البيك والأراضي الزراعية لأهل عشيقها، صالون جوني حلاق السيدات، محل جوري الجواهرجي، يواكيم اللبناني، فهل نسيت رطوبة الحجر في فنادق الدرجة العاشرة في البتاوين:

الطبلة المكسورة، الحصيرة، كرسي الجريد، المرايا المهشمة، هل نسيت الذين كانوا ينامون معها من باعة اللبلبي والفجل إلى الجنود و نواب العرفاء؟.

مكتبة الفكر الجديد

ولكن هل فارقها النحس هكذا خلاص..أبداً..وهي لا تعرف ولا أحد يعرف كيف هاجم النحس نجم سعدها تلك الأيام، أنا أراها وهي تتشكل في تلك اللحظة في خيالي مسترخية، حيوية، بيضاء، وعيناها تومضان ببريق أسود داكن، وتنفجر على شفتيها كلمة آه، أه مختلفة..آه لها رنة معدنية لا لسوء حظها أو لسوء حظ السياسة إنما لسوء حظ محمود أيضاً، وإن بدت المسألة نسبة لها قدرا موجها لإيذائها أكثر مما هي مؤامرة مدبرة ضدها إلا أن الأمور لا بد بالنتيجة أن تسير عكس رغباتها أو عكس إرادتها.

نحس النساء وثورات الرجال

في مساء يوم من أيام رمضان...كان الراديو يصدح في المطبخ..كانت هي وخادمتها تهيئان طعام العشاء لعشيقها..فسمعت بيان الانقلاب على نظام قاسم.. لقد سمعت خبر سقوط النظام أولا من الراديو، ولكنها كانت تجهل ما حل بعشيقها، ومن ثم أبلغها سائقه عبود، نائب العريف الذي كان يقله مرة من بيت زوجته إلى الدفاع ومرة من بيت عشيقته، بأن عشيقها سقط صريعاً هو وماجد محمد أمين النائب العام لمحكمة قاسم في الشارع..وقد ذكر لها تفاصيل مقتله، وقد حمل لها بأمانة تامة الشيك الذي حرره لها قبل مقتله، ورسالة مقتضبة بأنه يحبها، وإنه لا يريد أن يموت، ولكنه يائس لأنه يعرف بأن الانقلابيين لن يسامحوه، وسألها عبود إن كانت بحاجة إلى شيء قبل أن يغادر.

وبعيداً عن وقع الخبر وتأثيره عليها، كان هنالك ما هو أهم، لقد أرسل لها محمود آخر شيك في حياته، أو في حياتها إن صح التعبير، لم يكن كبيراً ولكنه كان منقذاً، وقد أدركت ذلك اليوم إنها إذا استطاعت أن تنفقه بشكل معقول فربما ستحصل على عشيق آخر، قبل أن تتقدم بها السن وتفقد قدرتها على اجتذاب الرجال.

ثم أخذ المال يتبخر قبل أن يتبخر السائق والخدم والسفرجية والبوابون..

مكتبة الفكر الجديد

وأخذ الشباب يتبخر أيضاً، والحيوية، والجمال أيضاً.. عليها إذن أن تتدبر أمرها مع ما تبقى لها من الرصيد فأخذت أعصابها تثور، ماذا تفعل كانت تتساءل: هل تعود إلى أيام الفنادق الرخيصة الوسخة؟ هل تعود إلى حياة الدعارة القاهرة.. بعد أن أصبحت سيدة مجتمع راق؟

وكان هنالك ما هو أفظع بكثير، لقد بدأت تشعر بالصد العنيف الذي يبديه نحوها أصدقاء زوجها الحميميون الذين كانوا يغضون طرفهم عن كونها عشيقته ويقولون تزوجها..ثم بدءوا يتكلمون عنها كعاهرة تورط معها هذا الضابط الثري..وقد شحت الوجبات والولائم التي كانت تقيمها وأصبح منزلها أجرد مثل سفينة، كما أن هذا الأمل العبثي يدفعها للترفع عن الصدقات والدنانير التي يمكن أن يرميها لها بعض الأصدقاء ويطلبون منها أن تلتقطها مثل جرو وديع..كانت توافق بشرط أن تحصل على عشيق من بينهم، وهذه مأساتها..وحين شعرت بالفشل ولا سيما أن جمالها الذائب لم يعد جذاباً كما كان، أخذت تتنازل، ولم تعد تطلب كما كانت واحدا من أكبر الضباط، إنما أخذت تبحث عن موضع أدنى قالت حتى لو ضابط بالحماية، ثم حتى لو رائد، وحين لم تجد قالت حتى لو نقيب..ثم حتى لو ملازم..ولكن أدنى من هذه الرتبة..لا لا يمكن أبداً.

لقد اضطربت الحياة الاجتماعية في بغداد في تلك الفترة إلى حد كبير، وتعقدت جداً، وتداخلت بشكل غير معقول، وأخذ الناس ينشغلون بأشياء أخرى غير متع الحياة وطرق قضاء الوقت والتنزه في الحدائق، والتي كان ينشغل بها أهل المدن في الخمسينات، إنما ارتدت الحياة شيئاً فشيئاً من الشارع إلى المنزل، وبدلاً من التنزه في الشوارع والحدائق والذهاب إلى السينمات والمطاعم والملاهي والحفلات كان مشهد المليشيات الذين يحملون السلاح في الشوارع يدفعهم إلى البقاء في المنازل، وكان علي أن أتخيل سعاد وسط هذا الوضع المعقد، وهي تحاول أن تجتذب رجلاً، عليها

مكتبة الفكر الجديد

أن تكسب عشيقا بمواصفاتها هي لا بالمواصفات التي يفرضها الواقع.

جلست سعاد وحيدة في غرفة الجلوس تفكر في العيش والمصروف، تناولت علبة السجائر التي كانت تحتوي على آخر سيجارة، وضعتها في فمها، أشعلتها ثم رمت العلبة بعصبية على الأرض، انتقلت إلى المطبخ وتفحصت ما تبقى من الرز والسكر والزيت وقد كان قليلاً جداً، جلست على الكرسي ووضعت يدها على خدها تحملها رؤاها إلى ما وراء حديقة منزلها لتصطاد هذا العشيق المنتظر، لتقبض على هذا الفارس البعيد، والغامض، تمسك به من ياقته بأيد مهتزة، قبل أن تصبح امرأة مسنة بصديريتها المخططة، وشعرها الفضي، كانت سعاد منشغلة بالحصول على عشيق بينما كان العالم المحيط بها منشغلا بأشياء أخرى، كان منشغلا بقصص الاختطاف، والاختفاء، بقصص الذين يذهبون إلى السجون، بالمليشيات التي تملأ الشوارع، سعاد جالسة في المطبخ تفكر بالحصول على عشيق، وعلى أمتار من منزلها كانت النساء ينتظرن أبناؤهن الذين ذهبوا في الأصائل المشؤومة ولم يعودوا، بينما كان الرجال يحفرون لهم القبور.

رفعت رأسي..وقف عامل المطعم أمامي وبيده الصينية يريد أن يجمع الصحون قبل أن يخلص الطعام تماماً، فمسكته من يده: «شدتسوي..».

«خلص الأكل..»

«لا بعده..» قلت له. فقد كانت هنالك خبزة صغيرة وقليلاً من الطرشي وفتات فلافل.

وحين ذهب وهو ينظر نحوي بعصبية عدت لأبحث لسعاد في تلك اللحظة عن صورة واضحة وسط غموض وتعقد حياتها، صورة تصنعها الحياة بأسرها..كنت ألوك وأفكر لها بمخرج من وحدتها وتعقد أحداثها..وكنت أدرك بأنها لو ذهبت أعمق فأعمق في روحها لشعرت دون شك بفداحة

مكتبة الفكر الجديد

ما بددته من عمرها تلك الأيام، فحين لم تحزن على صديقها الماوردي كما يقولون، وإنها لم ترتد السواد عليه، لا لأنها لم تشعر بأنها خسرت شيئاً ثميناً..لا أبداً، إنما لأن الحزن والسواد يمكنهما أن يؤخرا فرصة حصولها على عشيق آخر، ومع ذلك..

مشهد

الوقت ظهرا، هبطت على الدرجات البيض والممسوحة بعناية، هبطت بملابسها الثمينة، وبمظلتها المنشورة فوق رأسها، وذهبت إلى أرقى مطعم في بغداد ذلك الوقت..وهو مطعم صحارى، ورأت هناك خدما يرتدون ملابس موحدة يقفون في المقدمة، طاولات عالية عليها شراشف راقية، الصحون الكبيرة، السكاكين والشوكات والملاعق الملفوفة بورق النشاف، وفي العمق المناخ الثقيل للديكورات الشائعة في المطاعم الراقية.

لقد أدركت سعاد بحسها وغريزتها في هذا المطعم الراقي والهادئ والذي يتردد عليه رجال أعمال، وضباط كبار جدد من العهد الذي خلف الزعيم قاسم، وأجانب وعراقيون يعملون في السفارات، من أنها يمكنها أن تحصل على عشيق بمرتبة العشيق السابق وبإمكانياته، أو أقل منه بقليل، ومن ثم أخذت شروطها وطلباتها تقل كلما مر الوقت دون الحصول على واحد منهم، واقتصرت على شخص، بمواصفات أقل، مواصفات غير محددة، ولكنه يمكنه بطبيعة الأمر أن يعيلها.

تدخل كل يوم في الظهيرة أو في المساء متثاقلة ورأسها مرفوع إلى الأعلى، وبالرغم من ثقافتها السطحية، إلا إن مظهرها وجمالها الذائب يشير إلى أنها سيدة من عائلة ثرية في منزلها سجاد ثمين وأثاث غالي الثمن، وعندها خدم وأشياء أخرى يمكنها أن تجذب به عشيقاً آخر، وبالفعل استطاعت أن تجذب نحوها عشيقاً، غير إنه شاب صغير السن، ولم تكن تعرف بأنه لعوب بمستقبل خاو تماماً، كان قد ورث مالاً صغيراً سرعان ما

مكتبة الفكر الجديد

بدده، فقد انخدعت بمظهره وتصورت بأنها عثرت على شاب من عائلة ثرية سيرث شيئاً من أهله، أو على الأقل يستطيع أن ينتزع منهم ما يمكنه أن يعيلها به، وهو كذلك خدعه مظهرها، وحين رآها للوهلة الأولى تصور بأنه عثر على أرملة ضابط كبير، جميلة، متوسطة السن وثرية.

عشيق

في أحد أيام شباط الممطرة، دخل هذا الشاب الأنيق بهدوء إلى المطعم، لم يكن يحمل مظلته معه، فتبلل شعره السرح وبذلته، تقدم خطوات واتخذ الطاولة الكائنة قبالتها مباشرة، وأخذ ينظر نحوها نظرات مشتهية ومدققة، نظرت سعاد إليه، لمحت شواربه الناعمة وجاكتته السوداء، لمحت ربطة عنقه الأنيقة التي تشبه واحدة كان يرتديها محمود الماوردي على الدوام، فحسبت مباشرة إنه ثري.

جلس بهدوء، وقف النادل أمامه وهو يمسك كارت المنيو الأحمر بيديه الاثنتين ويقرأ، رفع رأسه، طلب طعاما وكأس بيرة، ثم عاد لينظر نحوها نظرات طويلة متصلة، وضع النادل الطعام أمامه، أمسك بالشوكة والسكين وأخذ يقطع قطعة الستيك بالسكين، يرفعها بالشوكة ثم يلقمها في فمه وهو ينظر نحوها ويبتسم، وبعد أن ينتهي يمسك كأس البيرة يضعه بين شفتيه يشرب وهو ينظر في عينيها مباشرة، لقد شعرت ذلك اليوم بأنه خدرها.

لقد فكرت بطريقتين للتعامل معه، الأولى معروفة ومجربة:

تطيل تعذيبه أول الأمر، تذهب إلى منزلها دون أن تتيح له الفرصة بأن يكلمها اليوم، وفي الغد تأتي في الوقت ذاته، وسيخمن هو بأنها تأتي كل يوم وفي هذا الوقت بالضبط، أو يسأل الندل، يقول لهم:

«هذي الحلوة تجي كل يوم..».

«إيه بلي كل يوم في الساعة وحدة على الغدا..أو بالثمانية على العشا».

مكتبة الفكر الجديد

وتأتي في اليوم الثاني وتتبسم له من بعيد، وحين يقترب منها أو يطلب الجلوس على طاولتها، تقول له بصوت هادئ:

«لا..أرجوك..آني من عائلة محترمة..».

فيضطر إلى التراجع والانسحاب، وتستمر هي بالنظر نحوه واستمالته وهو يتحرق للوصول إليها، ستديم هي انتظاره وهو يحاول أن يقلص المسافة دون أن يفلح، ولكنها هي التي تقرر بالنهاية سقوطه وانهياره أمامها، فالرجل بطبيعته يحب التي تذله وتحتقره وتبعده وتنبذه، أما التي تفتح ذراعيها نحوه وتقول له تعال خذ، يقول: «مبتذلة..تفعل هذا مع كل واحد غيري» ولكن لو طردته سيتصور أنها تطرد كل واحد يأتيها، وبما أنه فاز بها في النهاية، سينتفخ أنفه ويكبر، سيشعر بالزهو والكبرياء، سيرتفع رأسه، سيتصور أنه جبار وعظيم استطاع ما لم يستطع أحد غيره أن يفعله، استطاع أن يفوز بها لأنه له مواهب عظيمة تختلف عن الآخرين، له مواهب بين من هم عاطلين عنها، ولم تستطع النساء الأخريات معرفتها واكتشافها إلا هذه المرأة وكانت بحاجة إلى هذا الوقت لتجلو له عبقريته الكامنة، وسيسامحها بطبيعة الأمر على كل المذلات التي أذلته بها، والتحقيرات والانتقاصات، لأن هذه المذلات والتحقيرات والانتقاصات بالأخير كانت هي الطريقة الرائعة للوصول إليها.

ولكن هل لسعاد هذا الوقت الكافي لتصنع كل هذه الأشياء، هل يمكنها تجربة هذه الطريقة الطويلة والمغامرة وغير المأمونة، ماذا لو خرج اليوم ولم يعد، لو خرج اليوم من يضمن بأنه سيعود غدا، لقد كانت فرحانة، جذلة، مبتهجة، شعرت بأنها حصلت في النهاية على عشيق: «وشلون عشيق...». سيضمن لها على الأقل حياة مستقرة، فما كان أمامها غير الطريقة الثانية، وهي أن تستسلم له استسلاماً كلياً، دون شروط، دون قيود، فشروطه وقيوده موجودة في شكله، في مظهره، في حركاته الأرستقراطية، في ابتسامته الذائبة،

مكتبة الفكر الجديد

في شبابه، في دأبه على النظر إليها ومطاردتها بعينيه الماكرتين المتوهجتين.

وحين خرجت من المطعم وسارت خطوات قليلة قبالة الباب، حشر الشاب نفسه بوقاحة تحت مظلتها، وقال لها إنه يريد مصاحبتها، ولم تمانع هي مطلقاً، وأخذته ذلك اليوم إلى منزلها.

لقد اكتشفت سعاد بعد أيام قلائل خديعته، لقد اكتشفت أن مظهره كان كاذباً بالمرة، فلم يكن مترفاً، ولم يكن من عائلة ثرية، وقد أدركت بأنه غشها بقلقه، وحركاته، وملابسه، وشكله اللعوب، وسطحه الأنيق، واكتشفت ما هو أسوأ: محتواه المشغول بجنون الاضطهاد، فقد كان يتصور أن الكل يطارده، ويريد قتله، وإن القوميين يريدون قتله، والشيوعيين يريدون اغتياله، والحكومة تعتبره عدوا، وهو لا ينام كثيراً، ويعيش متوجسا، ويريد أن يحصل على المال بأية صورة، ويريد منها مساعدته، وإن كانت لمست فيه شيئاً غامضاً وحيوانياً في الجنس، فقد شعرت معه في الوقت ذاته بأنها تعبة وفارغة، وحين تغيب الرغبة لا تجد شيئاً تتحدث به معه، وهو من جانبه لم يصبر، سرعان ما طلب منها مالاً، وإن اكتشفت هي كم كان مخادعاً، فقد اكتشف هو الآخر خدعتها، وعرف بأنها غشته بملابسها الباذخة التي اشتراها لها عشاقها السابقون، وقد كشفت لها هذه العلاقة، عبر مناكدات متبادلة وتعذيب متبادل عن تعاستها العدوانية، وقد اكتشف عبر وفائها البريء لأنوثتها وحنينها لجمالها المفقود، عن روحها التي أخذت تفسد شيئاً فشيئاً.

أما المشكلة الحقيقية التي واجهت سعاد تلك الفترة، هي أنها حين أرادت التخلص من هذا العشيق الضار لم تستطع، فقد أخذ يبتزها، ويهددها، ويطاردها من مكان إلى مكان، وفي ذلك الوقت فكرت بعبود، سائق عشيقها القديم، والذي طلب منها أن يؤدي لها خدمة في ذلك الوقت ولم تكن بحاجة إليها، أما الآن فهي بحاجة إليها طبعاً.

مكتبة الفكر الجديد

عبود

ذهبت سعاد إلى منزل عبود الكائن في حي بائس وفقير في مدينة الثورة، خلف جامع صغير دون منارة، دون قبة، كان المنزل شبه متداع، وحمار الجيران مربوط قريباً من الباب، وحين ولجت إلى الداخل فاجأتها السخلة السوداء برائحتها، والبط والدجاج الذي ينقر الحب قرب التنور، وإن عاشت سعاد في منازل أكثر بؤسا من هذا المنزل، إلا أن الترف يمحو كل حياة قبلها، فتظاهرت باستغرابها وبرجرتها، ذلك أن المنزل كان بلا أثاث تقريباً وكان المصباح يئز بنور أصفر لم يستطع قهر ظلمة الحجرة، وكانت البسط موضوعة قريباً من الباب ليراها الداخلون، وهنالك صور منزوعة من مجلة المصور وآخر ساعة والموعد مدقوقة في كل مكان على الحائط دون ذوق، وقد استقبلها عبود بدشداشته البيضاء وكرشه الصغير، كان أسمر البشرة وشعره أبيض ووجهه متورماً قليلاً، وما يميزه عيناه الجاحظتان وشاربه الملزوق تحت أنفه والمقصوص مثل شارب هتلر.

تحدث معها وهو يمسك استكان الشاي الأسود الثقيل اللون، يشفط باستمتاع عال ويثرثر بلهجته الجنوبية عن سجنه بعد اتهامه بالاشتراك بحركة حسن سريع في معسكر الرشيد التي قام بها بعض الشيوعيين أوانذاك ضد القوميين، وقد خرج من السجن وهو يعمل الآن في معمل للطحين، وكان الكل جالساً على الأرض باستثنائها هي، فقد استعاروا لها كرسياً من الألمنيوم من بيت الجيران، زوجته كانت بفوطتها السوداء ودشداشتها المشجرة جالسة على البساط، وهنالك أطفاله الخمسة الذين تجمعوا وهم ينظرون هذه الأناقة الجالسة على الكرسي، والتي تشكل تناقضاً صارخاً مع كل ما يحيط بها.

وعند خروجها تحدثت له عن هذا الشاب الذي يطاردها ويبتزها دون أن تقول له إنها هي التي جلبته إلى المنزل، وغادرت، ومن الصباح لم يخيب عبود ظنها، فقد طرق الباب ودخل إلى المنزل وجلس على الأرائك الوثيرة

مكتبة الفكر الجديد

هناك ومثلما شربت الشاي عنده، شرب الشاي عندها، وبعد ساعات ظهر العشيق الثقيل، وحين طرق الباب خرج إليه عبود وهو يحمل عمود الرفش بينما انحبست أنفاسها هي في المطبخ، وبعد صياح وصراخ هرب الشاب ودخل عبود وهو يبتسم، رفع كفة قميصه وصاح عليها :

«سعاد..» أول مرة من دون خاتون.

وأقنعها عبود بأن عليه أن يأتي كل يوم كي يحميها من هذا ومن غيره، وبالفعل أخذ عبود يأتي بعد خروجه من المطحنة ليمر عليها، وأحيانا يأتيها في الليل، وحين لا يجدها يفتح باب الحديقة ويبقى هناك، وحين يراها يجلس أمامها وهو يفر بسبحته ويحكي لها كيف يكسب من بيع الطحين، ففضلاً عن عمله في المطحنة فإنه يشتري بعض الطحين بسعر ليبيعه إلى المتاجر، وقد أدركت في داخلها أن عبود كان يسرقه هو ومجموعة من العمال معه ومن ثم يبيعه، وإن لم يثر هذا الأمر استنكارها من الناحية الأخلاقية فإنها شعرت بحسد نحوه، فلا بد أنه يكسب كثيراً من السرقة وهي لا تكسب.

إن تردد عبود المستمر على منزلها وتطفله اليومي والأبدي وغير المنقطع بتاتاً على حياتها، كان يشعرها شيئاً فشيئاً بالاختناق، لقد شعرت بأن عليها أن تدفع ثمناً باهظاً لقاء ما قام به عبود في تخليصها من هذا الشاب الفاشل والنزق معاً، وإن كان خلصها بالفعل من ورطتها إلا أنها أصبحت مجدداً بحاجة إلى من يخلصها منه، والحق يقال أن عبود لم يفرض نفسه بالقوة مثل ذلك الشاب إنما بالإقناع، ولم يكن يبتزها مطلقاً أو يطلب منها مالاً بل بالعكس كان يعرض ماله عليها بشكل غير مباشر، وهذا ربما ما جعلها تصبر عليه، ولو لم يكن يملك هذا المال لكانت وقفت له على الدرجات الأولى من السلم وصرخت به بالنبرة ذاتها التي تستخدمها نساء المنزولات في البتاوين، وقالت له:» لك اشطولتها اتورطنا بيك..ما تروح وتخلصنا..عاد».

مكتبة الفكر الجديد

وكان يمكنها أن تطلب منه المال، ولكن تركت هذا الأمر إلى وقت اضطرارها تماماً، لأنها تعرف أن هذا المال ممكن الحصول عليه من عبود، عاجلاً أم آجلا، وكانت تدرك أيضاً، إن أخذها للمال منه لا يمكن أن يكون دون ثمن أيضاً، وبما أنها كانت تدرك بأن ما تبقى من الشيك أصبح قليلاً وإنها ستحتاج عبود حتماً فقررت أن تصطبر وتحتمل، أن تصطبر على جلوسه الثقيل أمامها، وأن تحتمل نبرته الكريهة وهو يذكرها كل مرة ودون ذوق إطلاقاً بأنها أصبحت كبيرة السن وإن عليها أن تتزوج، وكانت تدرك مقصده بطبيعة الأمر ومع ذلك كانت تغشم عليه وعلى نفسها، ولم يكن عبود يعرف كم كان هذا الكلام يقززها ويقرفها، وإنها كانت تصبر على ملاحظاته السمجة وهو يشفط الشاي بصوت عال، وتحتمل جلوسه أمامها وهو يكر بالسبحة السوداء في يده، لا لعينيه أبداً إنما لجيبه.

من الضباط إلى النواب عرفاء

لقد نفد المال كلياً ولم تكن متفاجئة ولكن ما جعلها تعيسة هو شعورها باليأس من الحصول على عشيق ذي مرتبة اجتماعية جيدة في ذلك الوقت، فقررت في أحد الأيام أن تطلب من عبود أن يداينها مبلغاً من المال، ولم تقل له هذا الأمر بهذه السهولة، فكلما كانت تريد أن تقول له أن يداينها تمنعها غصة في بلعومها، وقد بقيت على الأقل ليومين تشعر بمرارة كبيرة قبل أن تطلب منه هذا المبلغ، وحين قالت له ذلك أضافت أن حوالة ستأتيها عن قريب، وقد فرح عبود وانفجرت ملامح وجهه، كان ينتظر هذه اللحظة من زمان، وكان يعرف بأنها آتية لا محالة، لقد قال لها نعم، وأخذ ذلك اليوم يمزح وينظر نحوها نظرات مختلفة، وفي اليوم التالي حين جاء لها بمبلغ المال، مسكه بيده وقال لها:

«تتزوجيني..».

كانت تريد في الوهلة الأولى أن تبصق في وجهه، أن تنزع نعالها وتضربه على رأسه، ولكن المال الذي بيده هي بأمس الحاجة إليه، مدت يدها

مكتبة الفكر الجديد

إلى المبلغ وقالت له بصورة لم تكن قادرة على إخفاء امتعاضها معها :» أفكر..».

لقد شعر عبود بأنها تستهزئ به، ومع ذلك لم يستطع أن يرد يده، أو يقول لها: «لا..أريد جواب اليوم..». أو أن يقول لها : «آني أعرف.. أنت تضحكين علي..». وما كان قادراً على إثارة أي شيء ضدها، وأبقى في داخله أمر أن تفكر وتقبل، احتمالاً قابلاً للتحقق، لقد ناولها المبلغ وخرج، وكان يعرف أنه لو طلب منها كمبيالة مثلاً وبعد ذلك يبتزها بها، ويقول لها: «لو تدفعين الكومبيالة لو تتزوجيني..». هو أمر ناجح، ولكن الطريق طويل أمامه فهي تحتاج مو بس هذا المبلغ إنما بعد وبعد، وسعاد أيضاً فكرت بهذا الموضوع، وقالت في نفسها لو أرغمها بأية صورة يمكنه أن يرغمها بها، فإنها ستعود عاهرة من جديد، وتجلب له المبلغ الذي داينه لها، ولن تذل نفسها أمامه، وتعيش تحته للأبد..»هذا النايب عريف..».

وقد استغرق هذا الأمر كل تفكيرها ذلك اليوم، بل إن هذا الموضوع أرقها ولم تستطع نوم الليل أبداً، إن تكون قد رفضته رفضاً كلياً، هذا أمر لا يقبل النقاش أبداً، وكانت تعهد هذا الأمر مقضياً وغير قابل للجدال:

«آني أتزوج نايب عريف..سايق محمود..».

ولكن المشكلة أنها لم تستطع أن تقلعه كلياً من تفكيرها، ولم تستطع أن تخلعه هكذا من ذهنها وترميه بعيداً عنها، تنتزعه..ثم تضع رأسها على المخدة وتنام، لقد قضّ لها مضجعها، وجعلها تتقلب في الفراش مرة على هذه الجهة ومرة على الجهة الأخرى، وهي تنفخ وتتأفف حتى الصباح.

إن كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تنام مع نائب عريف، سايق، من الناصرية، فقد نامت هي في حقيقة الأمر مع باعة اللبلبي، مع المكارية القادمين من المجزرة والعاصمة، نامت مع باعة الفجل والبصل هم ودشاديشهم وروائحهم النتنة، ولكن لماذا هذه المرة بالذات أصبح الأمر

مكتبة الفكر الجديد

نسبة لها أمراً لا يطاق، ربما لأنها صعدت السلم، ومستعدة أن تهبط منه درجة أو درجتين، لكن لا أن تهبط كلياً إلى الأرض، وعبود كان يتصور أن صعوده عليها في الفراش هو الصعود إلى أعلى السلم.

إفلاس

لقد نفد المبلغ الذي تداينته من عبود وتبخر وهي ما زالت تعده بالتفكير في الزواج به، وكان يعرف بأنها تستهزئ به، وطلبت منه مبلغاً آخر من المال، وهي متضايقة جداً، وهو من جانبه لم يرفض بل قدمه لها وهو يبتسم بعينين ماكرتين، فقد كان يعرف بأنها في هذه الحالة لا بد أن تخضع في النهاية له، وقد أخذت المبلغ الثاني على أمل أن تحصل على عشيق ويعوضها ما عانته، ويرد المبلغ الذي استلفته من عبود وهو يقول لها :» اخذي هذا المبلغ واعطيه دينه..» وتعطيه الدين تشكره وتصرفه إلى الأبد من حياتها، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة بطبيعة الأمر، فالعشيق المنتظر لم يأت، لا لأن غيابه طال، بل لأنه أصبح شبه مستحيل، والذين يطاردونها كانوا أكثر إفلاساً منها وبالتالي فهم الذين بحاجة إليها، كانوا يتصورونها ثرية وبالتالي فإنها هي التي ستطرد عنهم إفلاسهم، أما الأثرياء الذين لا يكترثون لمالها فهم منشغلون بالصغيرات والجميلات اللواتي يتدفقن بكثرة من المدن هذه الأيام، فالفقر لم يعد مقصوراً على الريف إنما شمل المدن أيضاً، أما عبود فوحده موجود في الصورة، ثري نعم، ولكن تاريخه لا يشفع له، وها هو جاثم على صدرها وصدر المنزل مثل كابوس، وحين نفد المبلغ الثاني كان عبود متهيئاً ليهجم، وهي من جهتها فكرت ملياً إن لم تستطع التخلص من هذا الكابوس فعليها أن تقبل به، وأن تتعايش معه ربما في النهاية يمكنها أن تتخلص منه وتحصل على عشيق وتلبَس عبود الباب.

لقد رفضته أول الأمر بسخط، ثم بامتعاض، وأخيراً ببرود، وبعد ذلك قبلت به، وانتقل عبود من منزله في الثورة الذي يضم زوجته الريفية وأولاده

مكتبة الفكر الجديد

الصغار إلى منزل زوجته الحضرية في الكرادة، ونام معها تحت سقف منزل المقدم القديم، وإن كان سائقاً فيما مضى يقف ذليلا أمام هذا المنزل، أصبح اليوم هو صاحب المنزل وهو الراكب الجديد لا لسيارة المقدم كما كان إنما لامرأة المقدم بطبيعة الأمر.

لقد كان عبود يحترمها، بل كان يقدسها لأنها الخاتون، السيدة عشيقة المقدم، وهذا الأمر نسبة له كعريف فشل أن يصبح رئيس عرفاء أو نائب ضابط، أمر في غاية الأهمية، بل هو أمر لم يكن يحلم به طوال حياته مطلقاً، لقد كانت هي التعويض الحقيقي عن شعوره بالوضاعة والسخط والإهانة والانتقاص، وفي اليوم الأول الذي نام معها لم يفكر بها طويلاً، إنما كان يفكر بنفسه، وحين صعد على جسدها وللمرة الأولى في حياته لمعت في خياله نجمات المقدم وتاجه لا على كتف المقدم إنما على كتفه، أما هي فلم تفكر في تلك اللحظة بأي شيء، كانت في فراغ وحين انطرح إلى جانبها متعرقا شعرت للوهلة الأولى وكأنها في منزول العاهرات الذي عاشت به يوماً ما في البتاوين.

تقهقر

لقد ضمنت سعاد بطبيعة الأمر وضعاً مالياً مستقراً، ولكنها شعرت بالتهدم والوضاعة والتقهقر لأن من ضمن هذا الوضع المالي المستقر هو عبود نائب العريف والسائق قديماً، وعامل المطحنة حديثاً، وعبود من جانبه عاش أحلى فترات حياته مع شرخ بسيط بطبيعة الأمر، وهو عدم التلاؤم بين وضعه الاجتماعي الجديد وعمله الوضيع، فإن كان يخرج من منزل خرب في الثورة ويذهب إلى المطحنة ويعمل مثل الحمار ويعود كان أمراً طبيعياً ومنسجماً، ولكن الآن يخرج من أجمل منزل في الكرادة بوصفه السيد ويذهب إلى المطحنة، وهذا ما جعله يأخذ معه ملابس نظيفة ليعود بها إلى المنزل وقد أخذ الجيران للتندر يسمونه السيد المقدم.

مكتبة الفكر الجديد

هي تشعر بأنها هبطت..وهو يشعر بأنه صعد، هي تشعر بأن حياتها أصبحت تعيسة ومهدمة بسبب حضها البائس، والنكد الذي لم يفارقها، وهو يشعر بأن الله كرمه وتزوج امرأة مقدم فإن لم يصبح في حياته مقدماً فعلى الأقل عاش عيشة مقدم، منزل المقدم وزوجة المقدم..وسرير المقدم لا بل وملابس المقدم..حينما كانت سعاد تذهب في مشاويرها كان يخرج بذلة المقدم من خزانة الملابس ويرتديها: البذلة الكاكية، البيرية التي تحمل الشعار، التاج والنجمة على الكتف، وعصا التبختر التي كان محمود يحملها ويتبختر بها في ساحة المعسكر، كان عبود يمسكها بيده ويتبختر بها أمام المرآة.

طبعاً هي لم تفكر بنفسها بأنها كانت عاهرة من عاهرات المنازل المهدمة في البتاوين طالما ورثت كل هذا، وهو لا يريد أن يتذكر أنه في يوم من الأيام كان نائب عريف، بل حينما يرى أحداً من معارفه القدماء كان يهرع نحوه –قديماً كان يخفي وجهه ويلوذ بالفرار- ويقول له إنه مشغول هذه الأيام بمنزله الجديد وبزوجته الجديدة ولا ينسى أن يقول الجملة اللازمة والمهمة لديه:

«والله شأسوي..تزوجت..أرملة المقدم محمود الماوردي..صديق الزعيم عبد الكريم قاسم..»

طبعاً هذا التشديد لا ينفخ رأس عبود وحسب إنما يضعه إلى جانب محمود الماوردي، بل يضعه إلى جانب عبد الكريم قاسم أيضا...

كانت سعاد تستيقظ في الليل، تشعل سيجارتها، تنظر من النافذة وتتحسر، لم تكن تتخيل أن هذا الذي كان يسميها خاتون ويقف ذليلاً أمام الباب، أصبح ينام على سريرها، كانت تنظر إلى الأعلى وهي تتصور إن خسرت عهد الزعيم قاسم فإنها ستكسب في عصر الزعيم الذي خلفه رتبة أعلى أو أدنى بقليل ولكنها لم تكن تفكر أن تهبط كلياً إلى الأرض، فكانت

مكتبة الفكر الجديد

أعصابها على الدوام متوترة، وكانت تنفجر لأدنى شيء في وجهه، تصرخ ثم تنهار باكية ضاربة يديها على الطاولة، أو تحطم الصحون في المطبخ، بينما يقف هو متضايقاً حائراً مكتئباً، كان يراها شيئاً كبيراً ويحبها لأنها الخاتون، زوجة الضابط الكبير، التي يكبر وينتفخ قدره بها ولم يواجهها غير مرة واحدة حين عيرته بأنها تزوجته وهو سايق ذليل ونائب عريف، وصاح بوجهها من تكون حتى تعيره، فهي لم تكن سوى عاهرة في البتاوين، فإن أصبحت عشيقة المقدم هذا لا يعني إنها زوجته، أو إنها كبيرة إنما هي مثله! لاستخدام المقدم وتكميل راحته.

ومنذ ذلك اليوم لاذت بالصمت أمامه، وأضمرتها في نفسها له، وقررت تجريده من قوته، وهو ماله بطبيعة الأمر، عاشت معه نعم..أنجبت تمارى بعد عام من زواجهما وفي العام الآخر ولدت صبياً سمته عباس على اسم شقيقها الذي توفي صغيراً في كركوك، وشيئاً فشيئاً أخذت تستنزفه، فتح لها محلاً للساعات وهو نفسه المحل الذي يعمل به عباس الآن، وعمل به شاب أشقر مسيحي اسمه توما، وهو آخر عشيق لسعاد، وكل هذا بعد أن طردت عبود من المنزل فطلقها وعاد من جديد إلى الثورة إلى زوجته القديمة وأولاده، مهموماً حزيناً حتى مات.

تفصيل

قصص وحكايات العشيق الأخير تتزاحم في ذهني وأنا أشرب آخر ما تبقى من الميرندا، وألتهم آخر ما تبقى من فتات الصمون على الطاولة.. نهضت..لأدفع الحساب:

وقف الشاب أمامي وجردني من الدنانير التي في جيبي، ومع السلامة.

فنطازيا وحشيش

سرت في الطريق إلى محل تصليح الساعات، واليافطا إلى الآن مكتوب

مكتبة الفكر الجديد

عليها محل توما لتصليح الساعات حتى بعد أن قتل توما في الحرب على جبهة إيران، وحل محله أكثر من شخص، لا أحد يعلم فيما إذا كانوا جميعا عشاقها، لا أحد يمكنه الجزم في هذا الموضوع، فالقصص كثيرة وأكثرها من الشائعات والأساطير التي تحكى عن سعاد وكأنها غادة الكاميليا، أو ريجينا باشا، أو ماريكا اسبريدون، أما الآن، فقد أصبحت كبيرة السن، وأصبح ابنها عباس هو الذي يدير محل الساعات، ولكن لا شيء ينتهي أو يغور ويتلاشى نهائياً، إنما تبزغ الأشياء مضببة، وسط غلالة بيضاء، شيء لا يمكن أن تؤكده ولا تنفيه، ولكن حين تفكر به، تفكر به كما لو كنت تتطلع من وراء زجاج نافذة في حجرة دافئة إلى سويقات الورود التي يمحوها ضباب الشتاء، فأنت لا تشعر بالبرد، ولكنك تستمع بالمنظر حسب..

..وضعت يدي في جيبي وسرت، سرت في هذا الطريق الذي قطعته آلاف المرات حينما كنت صبياً أنا وعباس وعلي غلام وتمارى وكل الذين عرفتهم أيام طفولتي ومراهقتي في الكرادة..

سرت في الطريق المؤدي إلى الميدان الحيوي للكرادة، الميدان الصاخب والضاج والمتداخل والذي ينتهي بالأزقة والشوارع ذات البنايات الطابوقية القديمة والتي تشكل من الداخل نوعاً من الفرجات المظلمة، والأشجار العملاقة الضخمة والمعمرة، وهي تتوزع بكثرة على الأرضية المبلطة والقذرة المحاذية للمنازل القديمة، أما متجر توما لتصليح الساعات فيقع قرب مطعم ذي طاولات كبيرة وفوتيلات حمر، وزبائن من الطبقة الصاعدة الجديدة التي لم تترك للطبقة القديمة شيئاً حتى الكلاب البيض ذات السلاسل الذهبية والعيون التي تشبه الأزرار، وهنالك دكات مرمرية تقود إلى الواجهة الزجاجية شبه المعتمة تضيئه من الداخل شعلات المصابيح المعلقة، أما متجر توما فهو أفقر بكثير ما خلا إعلانات الساعات المتنوعة: أولما، ويلسن، أوميغا، رايمون أند دويل،..وباستثناء الساعات الجدارية

مكتبة الفكر الجديد

المعلقة تجد في مساحة شبه مهملة كل أنواع الزنبركات والعلب الخشبية للساعات القديمة والأقباغ وكأنه متحف أو سرداب للأشياء الزائدة عن الحاجة، وعلى الجانبين كانت هنالك كراسي ضخمة، ومن الأمام مباشرة يجلس عباس ببدانته وكرشه الكبير الذي يشبه البصلة المدورة وقد وضع على عينه اليسرى زجاجة مكبرة حصرها بأسفل حاجبه وأعلى وجنتيه ومد الملقط في أحشاء ساعة في يده.

تتزاحم في ذهني تلك اللحظة قصص وحكايات كثيرة وأنا أنظر إلى عباس من زجاجة المحل، ولكني كنت أفكر في تلك اللحظة بشيء آخر، كنت أفكر بوالده، بعبود الذي عاش حياته طبقا إلى مواهبه في العيش، وهذا ما يفسر سر هذه الأفعال المركبة التي كان يجيد فعلها، هذه الحركة السريعة في الصعود والهبوط ترتبط بموقفه الفطري من الحياة، فثبات العالم وسكونه هو من خصائص المتعلمين لا من خصائص الناس البسطاء.

هامش

المتعلمون يعيشون الحياة من خلال نسق بالكاد أن يتغير وإن أي تغير يدمر حياتهم، أما هؤلاء الناس فالأمر مختلف معهم، إنهم يعيشون التناقضات كلها دون أدنى شعور بعذاب الضمير، فعبود الذي كان شيوعياً كان متديناً أيضاً غير إن دينه هامشي وفطري ويسمح له أن يتزوج امرأة سيئة السمعة، ويسمح له أن يسرق من المطحنة ويجمع المال، الشيء المهم في حياة هذه الشخصية ذات المعتقدات الخرافية هي الجرأة والانشباك في التجارب الطاحنة، لا بمغامرة اشتراكه في انقلاب سياسي فاشل فقط إنما حتى بتجربته مع هذه المرأة الهائلة الحجم، فهي وإن عملت عاهرة مدة من الزمن فقد كانت مشهورة، وتعمل في التلفزيون وكانت عشيقة أحد الضباط المعروفين، وهذا في غاية الأهمية لجندي أراد أن يصير نائب ضابط ففشل.

مكتبة الفكر الجديد

إذن في هذا العالم الساكن، كان لعبود دور، وقد كانت رحلة بحثه عنها واقتناصها وترك زوجته الأولى وأولاده هو نوع من المطاردة المقدسة في حياته، لقد كان مفتتناً بسعاد، وهي جرته أعمق فأعمق حتى حطمته... كانت سعاد ترى في خضم هذا الصراع أن زواجها منه إهانة، وقد أُجبرت عليها، ولذا أرادت تحطيمه، ولم يشعر هو إزاءها بأية عدوانية أو كراهية، إنما كان يظن إنه يستحق كل ما صار.

هذا العالم، عالم الراقصات والداعرات والمواخير والذي سبح فيه جيل آبائنا كله تقريباً، تهيمن عليه صورة الحد الأقصى فإما قاتل أو مقتول، إنه نوع من العودة إلى الصورة البدائية أو الطبيعية للحياة البشرية، هذا الشعور الأولي الذي يربط المخلوقات ببعضها، يربطهم أحياناً بوحدة وشعور يتجاوز الإطار المدمر الذي يقعون فيه، إنه نوع من التآلف العميق مع الحقائق المؤلمة للمطاردة والعنف والموت، والغريب أنهم يتجاوزون هذا الإحساس المأساوي لهذه الواقعة، فالعاهرة تحب بل تعبد هذا الشخص الذي يعيش على القمامة وتنتشله، وهو سيحاول تدمير حياتها ويمتص كل شبابها وأموالها ونظارتها ويقوم بتحطيمها، ولكنها تحبه وتعبده، إنها تنتشله من المكان المظلم، من الجزء العميق في الحياة، وتمنحه كل شيء وأرخص ما لديها جسدها وأغلى ما عندها مالها بل روحها أيضاً، وهو سيقتلها، وهي تتعاطف معه، تقول إنها تستحق كل ما فعله بها، وبدرجة مختلفة نوعاً ما منحت سعاد عبود جسدها، ولكنها لم تمنحه روحها، ومنحها هو روحه وبهذا فقط استطاعت سعاد أن تذله وأن تستخدمه، لا لأنها تريد ذلك إنما تشعر وتحس بضرورة ذلك، فإن كان عبود جريئاً ومتحدياً وبطلاً لأنه حاول بجرأة أكثر من الآخرين، وعرض نفسه لإخطار أكثر جسامة، فقد كانت سعاد ماكرة، وقد واجه كلاهما احتمالات الهزيمة والموت، وقد كان من نصيب عبود، فإن استطاع أن يصطادها فهي في الحقيقة سحبته إلى الأعماق السحيقة حتى مات.

مكتبة الفكر الجديد

سعيد الشاعر

هبطت الدرجة الأولى من المتجر فالتقيت هناك سعيد الشاعر، وهو شخصية فنطازية على نحو غير مسبوق: شاعر كلاسيكي، وصحفي، وبائع أدوية غير رسمي، وصاحب كشك لبيع الكتب والجرائد، وفضولي على نحو غير مشهود، ويتداول الإشاعات بشكل فاضح، وسكير، ومخبر، تزوج من سيدة متدينة موسوسة بالطهارة، كانت تلتزم أيام قصف الطائرات الإيرانية لبغداد ضريح الإمام الكاظم، تذهب هناك وتوزع الصدقات على المؤمنين، وفي يوم استقبل سعيد في المنزل عاهرة مسيحية معروفة اسمها جانيت، وحين انطلقت صفارات الإنذار وسمعت دوي قصف الطائرات الإيرانية هربت جانيت تاركة كالسونها على الفراش، غير إن سعيد تصور أن الكالسون هو كالسون زوجته، وحين عادت قدمه لها:

«هذا لباسك لقيته على الفراش..» قلبته بيدها وقالت: «هذا مو لباسي..». فارتبك أمامها مثل طفل، فقبضت عليه متلبساً، وحاصرته فاعترف لها، وطردته من المنزل، وهو إلى اليوم يتنقل من فندق إلى فندق.

وقف أمامي بقامته الطويلة، وعيناه غائمتان خلف زجاج نظارته السميكة، يمص سيجارته وينفث في الهواء، فسألته بشكل مباشر عن عباس وتمارى، وكأنه لم يصدق، لم يترك قصة من القصص التي تحاك عنهم مع الإشاعات والأقاويل والتلفيقات لم يذكرها لي، يعيد التفاصيل بصوته الأجش وضحكته المكتومة التي تخرج من بين أسنانه السود والمثلمة، ويضيف لها من خياله، وما هو مهم من كل هذه الأكداس التي كومها أمامي هي أن تمارى تزوجت مهندسا في النفط طلقها وهي الآن صديقة وليد:

«أي وليد..؟». قلت له.

«وليد اللبناني..». قال وهو يضحك.

مكتبة الفكر الجديد

«الشاعر..مستحيل؟» قلت مستغرباً.

وانفجرت أمامي صورة وليد اللبناني

صورة

صورة وليد هي صورة الخارج تواً من القصص الغرائبية والفنطازية، فهو دجال ومخادع بشكل صاخب، جاء إلى العراق كما يقول بسبب الحرب اللبنانية، غير أن وسامته ومظهره الأرستقراطي وصلعته الفينيقية تشفع له على الدوام، بل وتغري بشكل مطلق لتصديقه والتواطؤ السافر معه، ادعى عند قدومه إلى بغداد بأنه وليد عقيل ابن الشاعر اللبناني سعيد عقل، وقد كان يكتب قصائد سريالية لا علاقة بقصائد والده، ويستلم رسائل من كل المعجبين بسعيد عقل في بغداد، ولكثرة الأدباء العديمي المواهب الذين عملوا في تلك الفترة في الأعمال الحرة، كان وليد يعيش تبطله اللامحدود على حسابهم: مطاعم فاخرة، أوتيلات، ديسكوات، بارات..وكان يستلم منهم قصائد يدعي إنه يرسلها إلى والده، والآخر يكتب ردوداً وتقريضات بارعة، لقد جعلهم هذا اللص الودود يعيشون أوهاماً لا حدود لها.

كان تعرفي على وليد بطريقة أغرب من كل هذا، قبل تسرحي من الجيش كنت كتبت رواية صغيرة بعنوان شتاء العائلة وبغياب النشر في بغداد وغياب الاتصالات مع العالم العربي كلياً بسبب الحصار، أصابتني هذه الرواية بنوع من الفراغ المحزن، غير إن أحد أصدقائي أخبرني بوجود شخص اسمه وليد الريس قال لي عنه إنه أخو رياض الريس صاحب أشهر دار نشر في بيروت، وما أن سمعت بهذا الخبر حتى شعرت بأني لا أقوى على الوقوف على الأرض:

«شتقول..رياض الريس في بغداد؟..».

«لا...وليد الريس..أخو رياض الأصغر..»

مكتبة الفكر الجديد

لقد كدت أن أجمع الأرض والسماء والنهر والشجر في قبضتي وأقفز عالياً، كنت أقصى ما أحلم به هو أن أنشر في دار رياض الريس لشهرتها ودورها في نشر الرواية..ثم أكثر الروائيين العرب نشروا رواياتهم هناك.. كدت أسقط من الفرح، واتفقنا أن نذهب إلى شقيق رياض الريس في الغد صباحاً، قال لي صديقي إنه يجلس على الدوام في مقهى ومطعم قريب من أكاديمية الفنون الجميلة في الوزيرية اسمه هو وهي. في ذلك الوقت كانت إيران تشن هجومها الرابع على البصرة، وكان علي الالتحاق لأن إجازتي الدورية انتهت، والأمر فيه مخاطرة على حياتي كبيرة، فالتأخر عن موعد الهجوم كان يعد خيانة عظمى ومصيره الإعدام المحتوم، ولم أبال بالأمر، بل بقيت حتى الصباح أغير بعض الفقرات وأضع فقرات جديدة، أضيف وأشطب وموسيقى البيتلز تصدح من حجرتي في الطابق الثاني من منزل أهلي، وليذهب الهجوم والعسكر و«أرض البشر» إلى الجحيم، ركضت في الصباح بملابسي العسكرية وحقيبتي وروايتي في يدي إلى منزل صديقي.

طلبت من سائق التاكسي أن ينتظرني، هبطت بسرعة، ضغطت زر الجرس، خرج صديقي على عجل، وصعدنا التاكسي التي انطلقت بنا إلى كافتريا «هو وهي» في الوزيرية، مقابل المكتبة المركزية لجامعة بغداد.

مشهد

الوقت ظهراً. كانت الكافتريا واسعة، ذات نكهة خاصة، بزجاج مظلل تقدم بعض الأكلات الرخيصة للطلاب.

قبل أن ندخل سمعنا صخباً هائلاً في الداخل وحين دفعنا الباب كان المشهد مذهلاً لي ولصديقي، فقد وجدنا شخصاً سميناً بعضلات رخوة، وأثنين معه، يمسكان وليد الذي كان جالساً مع طالبة تدرس الرسم في الأكاديمية من زيقه، وإن بدا وليد مرتعداً تحت قميصه الحرير، فإن

مكتبة الفكر الجديد

الشتم لم يتوقف، ولا الكفخ، ولا الصحون التي أخذت تتطاير نحوه، وكان البويات يهرعون نحوهم ويصرخون ويطلبون منهم الخروج ويهددون بإخبار الشرطة، غير أن وليد يرفض ذلك لأنه يعتقد بأنه إذا خرج من المطعم فإنهم سيقضون عليه، وحين رآنا استنجد بنا، وقد اتضح لنا المشهد تماماً، فقد ادعى وليد لهذا الضابط بأنه وليد تويني ابن غسان تويني صاحب دار النهار الشهيرة في بيروت، الأخ الأصغر لجبران تويني! وقد أخذ منه مبلغ مائتي دولار لطبع كتابه المخصوص بالستراتيجيات العسكرية في المنطقة!

وحين سمعت هذا الكلام، قلت له باستنكار مطلق:

«إنت العكروت ابن نادية تويني..» الشاعرة التي كنت أعبدها ذلك الوقت، وهي زوجة صاحب الدار.

سحبت يد صديقي إلى الخلف، والتفت إلى هذا الضابط المغدور وقلت له:

«خلص عليه..».

رفعت حقيبتي من الأرض وهرولت.

في الواقع مر وقت طويل على هذه الحادثة حتى تعرفت جيداً على وليد، فقد كان طليقاً على نحو استثنائي في الكلام، يضفي حضوره على المكان بعدا ساحراً على الدوام، ولكن كل شيء فيه كان زائفاً، ولدرجة الزيف الذي يحمله والغش الذي يحيط به حياته، كنا نشك أن يكون أي شيء فيه حقيقياً، بل إن قسماً كبيراً من الناس كانوا يعتقدون أن صلعته ليست حقيقية إنما باروكة!

«مستحيل..» قلت..وهي آخر كلمة ودعت بها سعيد الشاعر وأنا أصافحه، ثم انطلقت إلى مكتبة موجودة في الجوار، تقع بالقرب من كشك زهور معروف، كنت أعرف بتردد وليد عليها، وأنا كنت أيضاً أتردد عليها

مكتبة الفكر الجديد

منذ عامين تقريباً، وهي تحوي كتباً مختلفة ومتنوعة أجنبية وعربية ولكن أسعارها خيالية، صاحبتها اسمها آزادوهي وهي أرمنية، متساهلة، حبابة، وذكية، غير إنها تعرف كيف تبرز أظافرها وأنيابها وقت اللزوم، أحيانا كنا نذهب أنا ووليد معاً إليها، نقف أمامها نثرثر ونضحك، وآزادوهي تجلس خلف مكتب خشبي مغطى بزجاجة عريضة، بجسدها الممتلئ، وصدرها الجذاب، وقد وضعت ساقاً على ساق، كان وجهها مستديراً وعيناها سوداوين وشعرها الأشقر كثاً وعشوائياً، وكانت تضحك كثيراً على خلاف الأرمنيات المتجهمات، وصوتها دافئ ومعابث وشيطاني، وتتعمد استخدام بعض الكلمات والإشارات والنظرات التي تتحمل دلالات جنسية.

ذكرى تمارى

انعطفت عن الشارع قليلاً وسرت وسط مرآب ذي ساحة مبلطة وسياج حديدي قد علاه الآس، وفي الوسط شجرة صفصاف ضخمة، يمينا إلى طريق المكتبة الذي يمر بأشجار معراة وسوق صغير ومطاعم قذرة وحوانيت للبسط والسجاجيد على حافة الجامع ذي القبة الصغيرة، أما المكتبة فتقع في مبنى واطئ نسبيا وخلفه منازل قديمة ذات شناشيل خشبية، وقرب المكتبة بائع حلويات ريفي سمين وأبيض من الموصل ذو شوارب رفيعة، وكنت أعرفه، كان يعمل بواباً في إحدى الصحف، وقد هرب من الخدمة العسكرية وأخذ يرتدي ملابس أنيقة في غاية الأناقة، بدلة راقية، وقميصاً غامق اللون، وأزراراً مذهبة في الأكمام، وخاتماً ذهبياً، أما وجهه فقد كان أبيض بلون وردي مثل لحم الخنزير، عيناه القويتان وصوته الهادئ المهذب ومحفظة النظارة السلويت بارزة من جيب الصدر، سرق سيارة وزيف أرقامها، واستخدم عنده سائقاً بالأجرة وأخذ يدعي بأنه وكيل وزير الثقافة ولا يمكنك إلا أن تصدقه فهو يتحدث بثقة عن مشاكل الوزارة وعدم صدق الأدباء وتمادي الفنانين ومعاداة البعض للثورة، وأخذ الناس يقدمون

مكتبة الفكر الجديد

له الرشاوي كي يتوسط لأبنائهم الجنود الهاربين أو المحكومين أو الذين يريدون السفر أو الطامعين بالصفقات حتى قبضت عليه الشرطة، ويقال إنه هو الآخر دفع هذه الأموال رشوة وخرج، واشترى بالفائض منها متجر الحلويات القريب من المكتبة، أما المكتبة فقد كانت صغيرة تعرض رفوفها الكتب أجنبية وعربية، وهنالك أيضاً بطاقات التهنئة والأقلام والقرطاسية وكنت لمحت آزادوهي صاحبتها في الداخل، ولكني لم أدخل.

تأمل

قبل أن أضع رأسي على الوسادة أدرت وجهي إلى الشباك وأنا أدخن بهدوء، إن إحساسي بالشبع يلهمني تلك اللحظات أن أتأمل ما تدفعه الساحة من شحاذين بشعور مهوشة وملابس متهرئة وهم يبتسمون، أتأمل الحلاقين الذين يرسمون بمقصاتهم وأمشاطهم النكات على شعور زبائنهم وهم يضحكون، ما يديره الضوء نحو كرش المكوجي وبنطاله الطويل الذي يسحبه بيديه، وأن أتذكر وسط فورة من التأملات التي تجتاح روحي تلك اللحظة، مراهقتي التي أمضيتها في هذا المكان، وتعرفي على تمارى وعباس منذ ذلك الوقت:

كنت أعرف عباس وتمارى منذ مراهقتي، وقد كانا نقيضين تماماً، فتمارى التي تشبه سعاد أمها بإغرائها وحركاتها كانت سمراء مثل والدها، ما أعذب حركاتها ومشيتها، لقد كانت إيحائية على نحو مدهش، ويمكنها أن تديم حركة بمشيتها لا تديمها أعظم راقصة، بينما كان عباس سميناً، أبيض الوجه، وأحمق، ولكنه كان طيبا، وما كانت تمارى التي تكبره بعام تتخلى عنه، كانت هي التي تهب لنجدته إذا ما أصبح عرضة لسخرية الأولاد.

لقد كنت طهرانياً ذلك الوقت، ولم أكن جريئاً أو جسوراً، وحين كنت أذهب إلى عباس لنقرأ معاً كانت تمارى تحرص على تعذيبي واكتساحي بنظراتها الجريئة والمنتهكة.

مكتبة الفكر الجديد

لقطة

أقف أمام الباب، وأدق الجرس، تسير تمارى سيرها الرصين المذهل، بملابسها المختصرة-فانيلا ملونة وشورت قصير- وتتقدم نحوي، تقهر وجهي بنظراتها، وحين أرفع عيني أكاد أذوب وأنا أنظر إلى فانيلا صيفية حمراء أو زرقاء وقد برزت حافتا نهديها المكورتين من الحز، ترفع ذراعها وتتكئ على الباب بحنو أنثوي وهي تنظرني نظرات سريعة لعوبة متلاحقة، وتطيل تعذيبي بكلامها وهي تبسم على نحو سكسي وتداعب بأصابعها خصلات شعرها:

«شتريد منه..؟».

«نقرأ..» وتهبط نظراتي المقهورة إلى الأرض.

«شتقرون..؟».

«...».

وحين تستدير يهتز صدرها هزات متلاحقة فأشعر أن التكورات المتماسكة للصدر تتحرك حرة صاهلة دون ستيان.

نجلس أنا وعباس نقرأ في الصالة، أنظر نحوها وهي تسير في الحديقة أو تدخل الصالة بالقميص الساتان المفتوح من الصدر أو وهي تقف على الدوام عند شجرة النارنج تلبس الشبشب الخفيف والبنطلون القصير والفانيلا التي تكشف عن ذراعيها الممتلئتين البيضاوين، أو تجلس أمامي بالشورت بركبتيها اللامعتين وربلة ساقها المخروطية الناعمة، أو تضع على رأسها قبعتها الملونة العريضة لتتدلع بها، أو تتحدث معي عنوة وهي تفتح فمها نصف فتحة، فتنفرج شفتاها وهي تخرج رأس لسانها على أسنانها، لا أقول كنت أشعر بجسدها الساخن وأشعر برائحته العذرية واهتزازه وراء الملابس الخفيفة المغرية أو أشعر فقط بغموض سواد عينيها ورائحتها التي

مكتبة الفكر الجديد

أنشقها وهي تنظر نحوي وكأنها تريد أن تقتحمني وأنا لا أستطيع مقاومتها، لا أستطيع النظر إليها، ولا أستطيع أن أخفض عيني كلياً، ولكني كنت أشعر بشيء قوي وحاد ومتسلط يكبس علي، كنت أرى أمامي جسداً مصنوعاً باتزان محكم إلى حد الكمال، وإلى اليوم لم يهزني جسد بهذا التنوع والاتزان: ردفاها وساقاها ونهداها أبلغ من كل ما رأيته في حياتي، لقد زرقتني مراهقتها بنشوة فردوسية سأعيش عليها طوال حياتي، هذا الإغراء والتمنع الذي يصل إلى حد الاحتشام قهرني.. نعم.. ولكنه رشّق كل خيالاتي الإستمنائية التي كانت مترهلة قبل أن أراها، وأغدقت على روحي هذا الفيض النوراني والشهواني الذي عشت على نعمته الفردوسية طوال مراهقتي.

كنا نجلس أنا وعباس على المائدة الطويلة المغطاة بمفرش أبيض مشغول بنقوش أزهار وأوراق مطبوعة، وأختلس النظر إليها حيث تجلس قبالتنا وتعبث بالتلفون ترفعه وتحكي ثم تضعه وعيناها مصوبتان نحوي، تنهض وتتحول إلى الكرويتة العالية المفروشة بملاءة من الساتان الأخضر تتدلى الكراكيش على أطرافها، تجلس في العتمة الخفيفة ولا شيء غير نور مصباح حليبي يقطع الحجرة، ومن بعيد أتنشق رائحة جسدها الساخن وعطرها النسائي الفائر، تجلس وتقلب بصحف ومجلات قديمة موضوعة على الطاولة.

علي غلام

مر عام حين اكتشفت أن تمارى كانت على علاقة بأحد الجيران، علي غلام، أبن شير علي، تاجر الأقمشة، من التبعية الإيرانية، كان منزلهم على مقربة من منزل سعاد التركمانية، تعود أصولهم إلى قزوين في إيران، وكانوا أثرياء جداً، وقد زرناهم أنا وأمي أكثر من مرة في عاشوراء، فقد كانوا يحرصون كل عام على استقبال العائلات الشيعية في منزلهم في ذكرى

مكتبة الفكر الجديد

قتل الإمام، يجلسونهم في صالة كبيرة مؤثثة بأفخم الأثاث، وهنالك بيانو في الزاوية ووجاق كبير من المرمر صفت فوقه قناني الويسكي-لم يثر هذا الأمر استنكار أحد- وفي الأعلى كانت صورة الشاه وزوجته فرح بهلوي، وفي الحديقة الطيور والحيوانات التي يجلبونها من إيران، ويضعونها في أقفاص تحت الظلية الخلفية للمنزل، وكان لعلي غلام أخت اسمها زينب، كنت رأيتها أكثر من مرة تعوم بالمايوه المختصر جداً، البكيني، في مسبح مشيد في الحديقة الخلفية.

ولكن بعد أن حدثت الثورة الإيرانية تغير منزل هؤلاء الناس بشكل غريب، لقد علت وجوههم مسحة حزينة وتحجبت زينب وأمها، وأطلق علي لحيته، واختفت صورة الشاه وفرح بلهوي من الصالة وحلت محلهما صورة خميني، وقد انفصل عن تمارى وأخذ ينظر نحوها باحتقار، ويقال بأنه تخاصم معها لأنها رفضت أن تتحجب، وقبل اندلاع الحرب مع إيران، قبضت الشرطة على أهله وسفرتهم إلى إيران، غير إنه هرب، وبعد عامين قتل علي بظروف غامضة في ساحة الطيران في بغداد.

سنوب ونساء

«وليد..». قلت في نفسي وشعرت بنوع من الحسد والضيق.

«شلون..» وزحفت صورته لحظتها بعنف، محطمة صورة علي غلام التي احتلت فترة غير قصيرة ذاكرتي بحسد وفتنة معاً، لقد اضمحلت الصورة المتهرئة القديمة، وحلت محلها صورة جديدة لوليد الذي عرفته من سنوات، وما قفز إلى تفكيري تلك اللحظة تماماً، حادثتان، الحادثة الأولى:

كان وليد يأخذ صديقاته في الليل إلى مقبرة الكنيسة ليغازلهن هناك، وفي الغالب يأخذ معه قنينة العرق، وفي يوم بلّغ الأب سمعان عليه الشرطة، فكبسوا المكان ذلك المساء، وحين رأى وليد الشرطة ترك صديقته وهرب بأقدامه المتثاقلة، وهو يترنح إلى الثلمة الموجودة في السياج، وهناك

مكتبة الفكر الجديد

قبض عليه الشرطي، فارتعب وليد وأخذ يرتعش، وحين سأله ماذا يفعل في المقبرة، قال بصوته الثمل وعينيه الزائغتين:

«والله العظيم أنا ميت من سنتين ومدفون بهذي المقبرة..طلعت شوية.. بس أبول..وأرجع للقبر..!».

والحادثة الثانية:

في يوم خريفي مشمس تلطفه نسمات باردة، طلب مني وليد أن أغديه في مطعم صغير يقدم الشاورما والبيبسي كولا قرب اللوفتانزا الخطوط الجوية الألمانية في شارع السعدون، وهو أمر يفعله وليد دون خجل، ودون استجداء، ولكن بطريقة آمرة في أغلب الأحوال، أو بطريقة ساخرة، أو بشكل طبيعي تماماً، وكان يقول إنه يأتي إلى المقهى دون مال، وبعد أن يتغدى ويتعشى ويشرب الويسكي يعود إلى شقته المدفوعة أجورها من الأصدقاء أو من الاحتيال بالتاكسي الذي يوصله بأناقته التي تشبه أناقة رجل أعمال.

جلسنا على الستولات الموضوعة على حافة البوفية، كان العامل يرتدي مريولاً أبيض ويضع على رأسه قبعة شبيهة بقبعات البحارين، قدم لنا لحمة الشاورما الطرية بالصحون، وصب البيبسي كولا في كؤوس بيض مضلعة، فقد كان الجو ساخناً في المحل بسبب الازدحام وقت الظهيرة، وبسبب الشواية التي تلهث نارها فوق الشاورما، وكانت البيبسي كولا باردة وقد تحبب الكأس بالرطوبة العذبة، وأخذنا نأكل بشهية ووليد يثرثر ويضحك كعادته وبلهجته اللبنانية التي يستخدمها بصوت عال للاستفزاز ولإلفات النظر، فمن عادة الغرباء إخفاء لهجاتهم والتحدث بها بصوت مهموس، إلا وليد، يتعمد استخدام أكثر الكلمات تعقيدا وبعدا عن الاستخدام ليجعل الشخص الذي يقف أمامه يتلفت دون أن يعرف شيئاً مما يقال.

في تلك اللحظة دخل فريق تلفزيوني لبناني إلى المحل، ثلاث شبان وصبية جميلة ترتدي بنطلونا من الجينز ضيقاً ومثيراً جداً، وقميصا أبيض

مكتبة الفكر الجديد

فوقه صديري كاكي، كعادة الصحفيين، وعقدت شعرها إلى الوراء حيث ينكشف عنقها الأبيض والطري، قفز وليد نحوهم، سلم عليهم بحرارة، وأخذ يسألهم عن الأحوال هناك، ثم أخذ يشكو لهم حاله، لقد جلسوا على ستولات قريبة منا، وأخذ وليد يتحدث عن نفسه بأنه لبناني ويعيش في العراق، وهو يشعر بالعذاب بسبب جهل الناس وغبائهم وانحطاطهم، وما لفت انتباهي لحظتها هو تعرفه على الشابة العاملة في الفريق، قال لها بأنه يعرفها من زاروب الصفح، ولغرابة الكلمة بقيت محفورة في ذهني حتى الآن، وتحدثا عن أسماء وأشخاص متعددين، وأحداث، هذا مات وهذا رحل، وتلك تزوجت، غير أنها أنكرت أنها رأته من قبل أو تعرفت عليه، رغم تشبثه بأنهما التقيا كثيراً، وحين سألته الشابة عن أهله من هم ما هي أسماؤهم تردد كثيراً، وغير الموضوع مباشرة، وحرف الحديث إلى النقطة التي كان يبغيها، وحين همّوا بمغادرة المحل أخذ من الفتاة عنوانها في الفندق، وحلف عليهم أن لا يدفعوا فلساً واحداً، والتفت نحوي مشيراً بأن أدفع عنهم أيضاً، بلعت اللقمة بصعوبة ودفعت آخر فلس في جيبي على أناس أكلوا وشربوا على راحتهم وأنا لم أتكلم معهم كلمة واحدة.

قلت له: «يا قندرة..آني شعليه حتى أدفع عنهم..».

«كرم عراقي..» قال.

وحين ذكرته بأنه قبل قليل لم يترك منقصة إلا وألصقها بالعراقيين، قال العمل يتطلب هيك.

طبعاً كان جذلاً وفرحاً جداً بمعرفة هذه الشابة، ثم التفت نحوي واخترع قصة نسجها خياله في الحال بسبب إنكار الشابة له، حين خرجوا قال لي إنها أنكرته بسبب وجود هؤلاء اللبنانيين الحمقى والتافهين الذين معها، وقال لي إنه قبلها مرة حين كانا جالسين في المقاعد الخلفية من سينما كانت قريبة من بيتهم اسمها سينما كارمن، وارتفعت حماسته وهب وكأنه

مكتبة الفكر الجديد

يتحرك على الخلفية الغجرية لأوبرا كارمن، واسترسل في مبالغاته الجنسية، وصور تحليقه العاطفي حينما كان مراهقاً مع هذه الصبية المنمنمة ونجح بصوته الجذاب أن يخلع لها كالسونها خلف شجرة كينا عتيقة، ومن ثم أطل عليهم شخص كريه له جسم رياضي..كمال أجسام، وقبض عليه، إلا أنه ركله على خصيته حتى طرحه أرضاً وأطلق ساقيه للريح.

لقد كان وليد يتحدث عن نفسه بوصفه الوسيم الذي لا تصمد أمامه امرأة، ويغفل ذكر صلعته الفينيقية التي تشبه القبة والتي داهمته وهو شاب صغير، وهو القوي، ويغفل عضلاته الرخوة، ونحافته، وهو المفكر العظيم، ويغفل بعض المقالات الصحفية التي نشرها في مجلة الطليعة الأدبية والتي لا يفهم حتى الجن الأزرق منها شيئاً، وهو الشاعر الكبير، ويغفل قصائده النثرية السريالية المهلهلة، ويغفل تقليدها الفاضح لقصائد السرياليين الفرنسيين.

وليد

دخل وليد مطعم الخضراء في الوزيرية، هو والشابة اللبنانية التي كانت تعمل في فريق التلفزيون، كانت أناقته وعطره مميزين ذلك اليوم، كان يرتدي بنطلوناً من الصوف، وجاكتة كحلي بخط رصاصي خفيف، وربطة عنق حرير، وقد لمحتهما بين اختلاط الأصوات ببعضها ودخول الشباب وخروجهم، كانت صورتهما منعكسة على المرآة الموضوعة على جدران المطعم بعد أن جلسا وأخذا يأكلان على الرف الفورمايكة الطويل أمامهما، وخلفهما صورة نبات بحري مسمرة قرب المغسلة، كان وليد يتحدث لهذه الشابة، ينظر بعينيه السوداوين وهما تشعان بوميض فسفوري في عينيها، وفي الوقت ذاته يراقب الآخرين في المرآة التي تقابله، بينما كانت اللبنانية جالسة على الستول العالي وقد انفرشت مؤخرتها، ومدت ساقاً طويلة ممتلئة إلى الأرض، وهي تأكل وتمسح فمها بالكلينكس.

مكتبة الفكر الجديد

لمحني، رفع يده من بعيد محيياً وأدار وجهه نحوها بإشارة أن لا أقترب منه، فوجودي دون شك سيفسد عليه قصصه واختلاقاته التي لا حد لها.

مثقف شفاهي

كان وليد بارعاً في نسج القصص وتأليف الحكايات، وكان بارعاً في إدارة الحديث والجدل وبلغة استثنائية، فهو مثقف شفاهي على نحو لا يضارع، بل كنت أعده آخر مثقف شفاهي على الأرض، مثقف شفاهي يحمل ثقافته معه أينما يذهب، فأنا لم أره يوما يحمل كتاباً أو يقرأ كتاباً، ولكنه بارع في التقاط أحاديث الآخرين وتحويلها وتمثلها وهضمها وقلبها وعكسها وعرضها ومن ثم التفرج عليها، لقد كانت لديه براعة هائلة في الكلام، فهو يفترس الكلمات يتلاعب بها مثل ساحر، يتكلم عن الأدباء والكتاب وأعمالهم دون أن يقرأ كتاباً واحداً لهم، كان يطور أفكاراً أصيلة وجديدة وهو يمشي ويتناقش ويقلب الفكرة يميناً وشمالاً، تشعر وقد برز أمامك فيلسوف من فلاسفة المشائين، يسير دون حدود، يسير في الشارع كي لا يصل أبداً، وما أن يلتقط فكرة من الأفكار حتى يبدأ بالتنويع عليها وإدارتها وترشيقها وطرحها، وسيشتق منها فكرة أخرى وينوع عليها.

نعم لقد عرفت في تلك الفترة هذه الشخصية الغريبة والموهوبة والمتوهجة قوة ومهارة استثنائية مع النساء، لقد كان يستمد حضوره الخاص من جاذبيته الواضحة لا من ثقافته الاستعلائية ذات البريق السطحي، ومن قدرته على التقليد، أي من السنوبية اللبنانية التي تظهر مباشرة وبكل جلاء أمام تجمع الأدباء العراقيين وأكثرهم من النازحين من الأرياف، فيمكنك أن تميز وليد مباشرة من خلال حيويته المبالغ بها ومدائنيته التي لا تعرف الحياء، صحيح لم يكن عميقاً ولكنه برشاقته وسرعة بديهيته وهذه الأزيائية البيروتية والحركات الإغوائية التي يقوم بها بحضور المرأة صنعت لنفسه حضوراً حقيقياً وصلداً، وإزاء الحياء والحصرية الاجتماعية والعادات العزلوية التي يبديها الأدباء العراقيون يبرز هذا البيروتي الذي لا يعرف للحياء معنى.

مكتبة الفكر الجديد

مرة كنت رأيته واقفاً أمام مطعم صغير بواجهة زجاجية يقدم الفاست فود في الوزيرية، وكان هنالك عدد صغير من طلاب الجامعة الذين يحملون ساندويشاتهم بأيديهم ويجلسون تحت مظلات مفروشة في الخارج، وقف وليد هناك وهو يمسح يده بورق الكلينكس وكان عطره الرائق يضوع في المكان، وقفت إلى جانبه رسامة أعرفها من عام أو عامين ترتدي قميصاً مورداً وتنورة طويلة وتلف على شعرها شريطاً أبيض وقد لطخت وجهها بالمساحيق، كانت الشمس تنشر أشعتها الصباحية العذبة، والسيارات تمر بسرعة وهي تطلق كلاكساتها، حين رآني سلم علي، وجلسنا نحن الثلاثة تحت مظلة أمام المطعم، وبعد ذلك جاء شخصان أو ثلاثة ممن يعرفهم هو وجلسوا معنا تحت المظلة.

وأخذ يتحدث لنا ذلك اليوم عن حركة أدبية مهمة في بيروت نشأت في الثمانينات وانطفأت، هي حركة الرصيف، وكنت للمرة الأولى أسمع عن هذه الحركة، ولم أصدق كلمة واحدة مما قال، وقد ذكر شعراء مات قسم منهم والآخر قد هاجر بأسماء مستعارة مثل آدم حاتم، وأبو روزا وولف، وأسماء لم أعد أذكر منها شيئا، لأنها اخترعها هو أمامنا، وفي الغالب ما يفعل هذا الشيء، لديه قدرة على اختراع حركات أدبية وتيارات لم يسمع بها أحد، ويعطيها أسماء، ويكتب لها قصائد، ويدعي أشياء غريبة عنها، وبعد ذلك ينساها، وحين تسأله عنها ينكر إنه تحدث عنها، أو سمع بها، ويقنعك بأنك توهمت، أو تدعي عليه زورا، أو تتهمه، أو تشوه سمعته، وأحيانا ينكرها وبعد ذلك يتذكرها، ويخلط بينها وبين أخرى كان تحدث عنها...وهكذا لا يمكنك أن تجلس أمامه دون أن يجعلك تضطرب..وتدوخ.

ثم نهض إلى البوفية مع صديقته التي اشترت له ساندويشين وأخذ يأكل بهما ويشرب البيبسي وقد بانت على ملامحه علامات الرضا والشبع.

وقد راقبت حركاتهما هو وهذه الفتاة، وقد أدركت لحظتها أن هذه

مكتبة الفكر الجديد

الفتاة مسكينة، لم تعرف أنها أمام شاب موهوب وكسول وفاسد، فقد كان يمتدح نفسه بصورة إعلانية، ومع أن هذا النوع من النرجسية المتحمسة قاتل بشكل فوري، إلا أن الأمر لم يكن كذلك معه، فلم يكن يمتدح نفسه بفجاجة أو عدم نضج، إنما يجد الموقف المناسب ويختار الكلمات المناسبة، وكنت أجد انعكاس هذا الأمر بجلاء ووضوح كليين على الفتاة التي كانت تجلس إلى جانبه، كانت تنظر نحوه بإعجاب لا يضارع، وكنت أميز بوضوح إنها مفتونة به، ومع ذلك كان بالإمكان معرفة أن هذا الفاسد يفضل على الدوام علاقات لا تدوم، علاقات تتفسخ لمجرد لمسها، وهي ليست علاقات جوهرية.. وكان على هذه الفتاة أن تميز وسط إعجابها الأعمى به هذا المظهر الكاذب والخادع مما أثار اشمئزازي، وهذا ما أثبتته صدمتها العاطفية المروعة بعد أشهر..فقد كانت إلى جانبه تتمنى أن تلامس شفاهها شفاهه، أو أن تضع رأسها على كتفه، بينما كان يعاملها معاملة تهييجية متمنعة، ومفضوحة..أمام الجميع، كنت أتصور في البداية أنه يخجلها أو أنه يضعها على المحك لكي تشعر بحالة هياج شديد وأن تذهب بعيداً نحو الاشمئزاز السريع أو القرف أو النفور، فلا يمكنني أن أصف هذا الصوت الأنثوي المحشرج وهو يذوب أمامنا وبشكل شنيع ومضجر، حين يوشوش في أذنها وينظر في عينيها ويمد يده إلى سيقانها، وهو يتحدث معنا عن الكتب والإصدارات والصحافة، وقد أوصل هذه الفتاة إلى نوع من الهستيريا الجنسية، كان يكلمنا ويلتفت نحوها، وهو ينظر في عينيها بحدة، أو يمد يده نحوها وهي تضحك وتضع يدها على فمها بصورة فاضحة.

سنوب

إن هذه الشخصية والتي بقيت ملغزة نسبة لي لسنوات كانت تعيش على نظام الخدمة التي تقدمها المجتمعات دون حدود لمن يعيش على هامشها، فشخصيته اللاذعة والساخرة والهجائية رغم الدعابات المحيطة

مكتبة الفكر الجديد

بها تأخذ ما تريد دون أن تقدم أي شيء، إنه سنوبي بالمعنى الكامل لكلمة «سنوب» وهي الخصيصة التي يلحظها العربي عند اللبنانيين مثلما يلحظها الأوربي عند الفرنسيين، وإن كانت له قدرة على تقليد أساليب متعددة في الكلام ولو على سبيل التهكم، إلا إنه يتحدث اللهجة اللبنانية والعراقية بطلاقة، ومهما تحدثت عن سنوبيته المتقنة أو مصاحبته لمن هم أرقى منه، أو التكبر على من هم أدنى منه، أو المدعي لتفوق، أو التشبث بثقافة أزيائية مستعرضة، وأتكيت إجتماعي فاقد لمحتواه، فإننا لا يمكننا أن نلغي القيمة الحقيقية لألمعيته وذكائه وقدراته الاجتماعية الهائلة، بالتأكيد لم يكن مفكراً هذا الذي يستخدم ذكاءه في تحليلاته الفلسفية، لكنه لا يفتقر للقدرة الهائلة على التحليل الذي يمكنه من الدخول إلى.. بل اقتحام الأسر الثرية، والصالونات الاجتماعية، أو الدخول إلى الأماكن التي تخدمه: الفنادق الراقية، المطاعم، البارات، الملاهي، إنه يستخدم مخيلته وذكاءه وتحليلاته للحصول على أفراح الحياة ومباهجها، ولكن ما يميزه..بطبيعة الأمر هو إنه لا يريد التخلي عن كونه شاعراً وهذا ما جعلني أشك من البداية بأنه عراقي وليس لبنانياً.

كان وليد يفعل كل هذا من أجل أن يعيش، من أجل أن يصرف ويرتدي الملابس ويأكل ويشرب دون عمل، مثل أي أرستقراطي على الأرض، وكانت هذه الحكمة التي يلتقطها بغريرته تجعله يجلس في المقهى على الدوام وهو يتأمل بأفق صامت أبيض، يمسك قصبة نارجيلته ويدخن.

إنه التعبير الأكمل عن شخصية الكسول الأبدي، وشخصية المحتال الأبدي، و لم يكن وليد عاجزاً أو مسترخياً أو فاقداً للإرادة، ولا يقدم أية مقاومة سلبية للعالم مثل شخصية ابليموف التي أبتدعتها عبقرية إيفان كونتشاروف، إنما بالعكس وليد هو الكسل الفلسفي بالكامل، وهو قادر أن يكسب بذكائه، وقادر أن يصل إلى مركز الحياة ببساطة شديدة، وأن

مكتبة الفكر الجديد

يتجاوز الهامش بحساسيته وذكائه وكسله وثقافته، إنه شخصية أرستقراطية، وسيم، ومترف، وساحر، وشارد، ورؤيوي، ودجال، ومخادع، وتقي، وورع، لا يساهم في صنع الحياة إنما يأتي فقط ليلتهمها.

عودة المواطن

أزحت الستائر البيض ونظرت من النافذة المطلة على الشارع الإسفلتي مباشرة، كانت قطرات المطر تنهمر بشكل متواصل على شكل أعمدة متوازية، وعند الشجرة الضخمة المقابلة للأستوديو كانت هنالك صحيفة صفراء قديمة مرمية على الرصيف المبلط، فتحدث صوتاً مسموعاً، وكان ضوء مصباح العمود الكهربائي الأبيض يسطع بشدة فيكشف نوره حبات المطر المتلاحقة السقوط إلى الأرض، لقد اغتسل الشارع كلياً بالمطر الربيعي بشكل هادئ وصامت، وقد تبلل كل شيء أمامي: الشجرة الكثة الأوراق التي لمعت خضرتها تحت نور المصباح، ورأس الشرطي الواقف ببذلته الكاكية، وأزراره النيكل التي تومض، ومسدسه الذي وضعه إلى يمينه في محفظة جلدية مفتوحة من الأسفل، أبواب المنازل الخشبية، السيارات المتوقفة في الكاراجات، الأسيجة الطابوقية التي تحيط بالحدائق الخضراء الوارفة الأوراق، كبنكات المتاجر المغلقة في شارع الكرادة الطويل والذي خلا من السابلة، وعند سياج الحديقة المقابلة لشرفتي لمحت صلعة وليد المسجفة مثل قبة بين الأشجار، حتى ظهر أمامي وهو يحيط بخصر تمارى بذراعه ويسيران معاً، كان ظهراهما محنيين للأمام، وكان نور المصباح الغازي ينعكس على صلعة وليد فتبرق مثل صفيحة تحت وهج الشمس.

أغلقت الستائر بسرعة، ارتديت ملابسي على عجل، ووضعت معطفي المشمع المطري على كتفي وخرجت بهدوء من باب الشقة، أغلقت الباب بالمفتاح، هبطت السلم، وأصبحت مباشرة في الشارع المبلط بالإسفلت، كانت مياه الأمطار تدفع الأوساخ عند حاجز الرصيف العالي،

مكتبة الفكر الجديد

قفزتها وذهبت إلى الرصيف الآخر، حيث كان شجر النارنج مكوماً على أسيجة المنازل وهو يقطر ماء.

وبعد أن سرت خطوات قليلة أصبحت جزءاً من المشهد المبلل، فقد تبلل شعري تماماً، وأخذ يقطر على وجهي، تبلل معطفي وتبلل حذائي أيضاً، تناولت علبة السجائر من جيبي، أخرجت سيجارة وحيدة مكرمشة من العلبة، أشعلتها بالقداحة رميت العلبة وسرت، كان الدخان الرصاصي يخرج من فمي وأنفي ويختفي سريعا في الهواء البارد، وقد تبللت السيجارة بقطرات المطر الهابطة بقوة و حاولت أن أحميها بكفي، دون جدوى، وقد صارت تترك مسحة لاذعة على لساني بسبب الرطوبة.

وحين خف المطر قليلاً، وضعت السيجارة في فمي بشكل مائل، ووضعت يدي في جيبي معطفي المطري، أحنيت رأسي قليلاً وسرت بمحاذاة سياج الحديقة، ومن دون أن أرفع رأسي تماماً كنت أحدس وجود وليد وتمارى أمامي، وهما واقفان تحت سقف مائل من الألمنيوم المموج، رفعت رأسي قريباً منهما وقد التقت عيناي مباشرة بعيني وليد، كان يرتدي بنطلوناً من الجينز وسويتراً مطرياً ويدخن بمبسم من العاج، وإلى جانبه تمارى بحركتها السكسية وشعرها الغجري وقد لمعت سمرتها بعذوبة تحت المطر، كان وليد يرفع قدمه قليلاً على أحجار بيض قرب سياج الحديقة المثلوم، لمعت عيناه وابتسم لي، وأنا أيضاً تصنعت تفاجئي برؤيته وتعانقنا بقوة تحت وابل المطر دون أن نعبأ بالمطر المنهمر فوقنا، بينما بقيت تمارى واقفة وهي تدخن سيجارتها وقد اتكأت على السياج دون أن تنظر نحوي، وإن كنت عزمت أن لا أنظر نحوها إطلاقاً كي لا أثير شكاً عند وليد، غير إني رغم حذري المحترس كانت تتفلت مني نظرات سريعة تمسح تمارى بشكل خاطف من الأسفل إلى الأعلى...ومن الأعلى إلى الأسفل.

مكتبة الفكر الجديد

وقفنا-وليد وأنا-نتحدث بصوت عال، ونضحك، وننفخ دخان سجائرنا تحت المطر، وأسفل الرصيف تندفع مياه الأمطار وتجرف من أمامها كل شيء: جرائد قديمة، أغصان مكسرة، ورق أشجار، أعقاب سجائر، أكياس نايلون، نفايات، وعلى مقربة منا كان المصباح المشتعل أعلى العمود الكهربائي الكائن قرب سياج الحديقة يكشف بشعاعه القطرات المتلاحقة الهابطة في الفراغ، كنا نتحدث بصوت عال، هو ينظر باتجاهي وأنا مرة أنظر باتجاه تمارى ومرات تهرب نظراتي نحو العطفة التي تقود إلى المطعم الصغير ذي الواجهة الزجاجية التي تطل على الحديقة وقد وضع صاحب المطعم الكراسي البلاستيكية على الرصيف، أو على الدكان الصغير الذي وضع مظلة حمراء تمتد إلى طول رصيف الشارع، ثم ركزت نظراتي نحوه، وقد وقف هو بعينيه الضاحكتين الماكرتين، وبين الحين والحين كان يمسح صلعته المبللة والمسجفة مثل قبة، بيده.

أبدى ملاحظة سريعة دون أن أستشيره، بأن هذا المطعم القريب هو الأفضل بين المطاعم الرخيصة في الشارع، ثم التفت إلى تمارى وأشر لها فتقدمت نحوي وعرفني بها، قرب وجهه منها ووشوش لها بصوت خفيض فضحكت، وقد انفرجت ملامح وجهها المثيرة وشع كل شيء في جسدها بجاذبية آسرة، وحين خلعت جاكتتها ظهر ذراعاها العاريان، وظهرت طية بيضاء مثيرة تحت الإبط تزنقها الفانيلا البنفسجية، نكتتها من الماء ثم ارتدتها مرة أخرى، لقد كانت هيئتها أشبه بلوحة انطباعية مرسومة بألوان باستيلية أمامي، شفتاها المطليتان بالأحمر القاني، شعرها الأسود الكث وقد لمع مأتلقاً تحت المطر، أما عيناها فقد كانتا مشعتين بصورة مذهلة.

كنت أطلت بحديثي كي أبقى أكثر فترة ممكنة قريباً من تمارى، وهو أمر كنت أحلم به الدوام، صحيح لم أتمكن من النظر إليها بصورة مباشرة ولكني كنت أقتنص النظرات بخفة اقتناصاً، وفي الطريق كان هنالك

مكتبة الفكر الجديد

قلة من السابلة الذين يركضون تحت المطر أو ممن يسيرون تحت المطر بالمظلات، أو ممن يحنون رؤوسهم ويسيرون باتجاه الكرادة، أو باتجاه نهر دجلة، أو باتجاه البارات والملاهي على الشارع العام تحت المطر والليل الذي يخفي بسواده نساء الملاهي اللواتي يقفن عند الدكان ليشترين الكلينكس والسجائر والبسكويت، بعضهن يهبطن من التاكسي بملابسهن المثيرة إلى الدكان ويصعدن، فتلاحقهن عيوننا بشكل سريع وخاطف، ونلتقط وسط الحديث المضطرب والذي يتحدث عن كل شيء، ركبهن المكشوفة، ملابسهن الخليعة والمثيرة، والماكياج الذي يكشف عن الليل الأحمر واللزج في الزوايا المظلمة.

كانت هبات الرياح الباردة الممتزجة بقطرات المطر تضربنا فتنتشقها مختلطة بعطر تمارى الفائر، ورائحة النفايات القريبة، ورائحة الأشجار المبلولة والتي تتوسط الشارع، كان وليد يتحدث ويلتفت إلى تمارى، وأنا أنظر إلى الشارع مرة، ومرة إليه، ومرة أقتنص نظرة ذات مغزى من نهدي تمارى المتوثبتين، أو من استدارة وركيها الناعمتين، أو من حركة متلوية بشكل مثير ومغري من شفتيها الحمراوين القانيتين، وتحت نور المصباح كان المطر الذي يتساقط يمحو صورتها في عيني ويضببه، فأتخيلها عارية نائمة مثل الآلهة البابلية أنانا وقد ضاجعها الراعي بين أشجار الحديقة المنتصبة والعملاقة، بين السدر الذي يحيط بالسور الواطئ والمهدوم، وقد تعتم لون جسدها بسبب الماء الذي يتساقط عليه.

كنت أتحدث مع وليد وأضحك، واللوحات الجذابة والمتنوعة لتمارى منذ مراهقتها تتلاحق في ذهني، تصطف وتنفجر مخلفة شظايا متعددة ومختلفة ومختزلة، تتشكل وتتبعثر مخلفة في نفسي حركة جاذبة، وأنا تحت قطرات المطر المتلاحقة التي تهطل باستمرار أرى كل شيء ينضح ماء: صلعة وليد المسجفة مثل قبة، وجه تمارى الأسمر المغري وشفتيها

مكتبة الفكر الجديد

السكسيتين المطليتين بالحمرة القانية، أشجار الصفصاف الخضر العالية وقد أخذت تقطر إلى ما لا نهاية، الشيء الغامق اللون أمام ظل أو حافة سطح، كان العالم الذي يحيط بنا يعيش نشوته، فالسماء التي تمسك بالأرض وتشدها ترتعش وتقذف قطرات المطر المخصبة التي تغمر عالمنا، كل شيء يحيط بنا كان يعيش نشوته الجنسية تحت قذف قطرات المطر التي تتلاحق وتتشابك، أعشاب الحديقة مثل عانة الأرض تنام وتهدأ، والأشجار نهداها، والشارعان مثل ساقين مفتوحتين على اتساعهما، وكل شيء يحيط تمارى كان يرتعش ارتعاشة خفيفة ويتأوه تحت هذه القطرات المخصبة المتلاحقة.

الفرنسية لكمة الحظ

غازل وليد تمارى أمامي وهو يضحك، التفت نحوها وقال لها جملة بفرنسية غريبة، لفظها بشكل ممطوط، والتفت نحوي ليتحقق منها، لم أعرف ماذا كان يريد بالضبط، وكالعادة انعطف بنا إلى مدرسته التي كان يدرس بها الفرنسية في بيروت، غير إنه نساها الآن ثم التفت نحوي، وقال:

«تذكرت..أنت تترجم عن الفرنسية أليس كذلك؟».

قلت له: «نعم..». كنت نشرت بعض المقالات النقدية عن الرواية، وبعض القصائد المترجمة عن الفرنسية لأبولنير ورينيه شار وفرلين، في الصحف، أوانذاك.

فاهتمت تمارى بالموضوع وللمرة الأولى منذ أن وقفت أمامها، نظرت إلي بعمق، وأخذت تتحدث باهتمام، قطبت حاجبيها وقالت:

«عباس تعرفه.. أخوي..يريد مترجم فرنسي..».

قلت لها وأنا أدفئها بنظرات متلاحقة لا تشبع:

«ليش عباس راح يصير سفير العراق في فرنسا..؟».

مكتبة الفكر الجديد

فانفجر وليد بالضحك.. بينما تعليقي الساخر والذي خرج رغما عني لم يعجب تمارى تماماً، فشعرت بارتكاب خطأ من نوع ما..قالت:

«لا..لأ مو سفير..هو يحتاج فد مترجم حتى يترجم له كم رسالة بالفرنسية إذا عندك مقدرة وتعرف فرنسي زين مر عليه..بأجور طبعاً..».

والكلمة الأخيرة التي ركزت عليها بعصبية أرعشتني قليلاً، وشعرت بأني بعد كل شيء سأمر إلى المنزل العظيم، منزل الأسرار الذي جلست أمامه، وكأني سأدخل إلى صندوق من صناديق ألف ليلة وليلة وهناك سأرى تمارى مثلما كنت أراها في مراهقتي.

في الطريق

في اليوم التالي ذهبت إلى محل عباس لتصليح الساعات، فوجدته مغلقاً، سرت في الشارع المزدحم المؤدي إلى زقاق الكنيسة، قرب الحديقة الوسطانية ازدحم الناس، بعضهم كان يجلس على المقاعد وعيونهم تنظر إلى الحديقة حيث ينبعث ضوء ساطع من المصابيح، وكان ظل الجدار القديم يمتد إلى طرف الطريق من الجانب الآخر، وفي الفسحة المزروعة نساء وأطفال ورجال وعجائز، وفي الشارع يمر الجنود حاملين حقائبهم، وأمام المحلات يتحرك عمال المطعم يرتدون المريولات البيض ويحملون الصواني، وهنالك مجموعة من العمال الذين يرتدون البذلات الزرق يدخلون إلى متجر صغير في الطرف الآخر من الشارع، وقرب شجرة السرو الكبيرة، كان هنالك ثلاثة شبان يتشاجرون بالأيدي، وقد أحاطهم الجمهور من كل مكان، وقد سألت أحد المتفرجين عن الأمر فشرح لي، إن هذا الطويل، وهو يسألني: «هل تراه..». وأنا أقول له: «نعم.. نعم..» باهتمام، كان يسير مع فتاة، وقد تحرش بها اثنان، فعاد إليهم الشاب الطويل، تشاجروا بالكلام أول الأمر، ثم تحول الشجار إلى الضرب بالأيدي والأقدام.

رجل نحيف ذو بشرة سمراء سقط على الأرض، وأخذ الاثنان يضربانه

مكتبة الفكر الجديد

بأرجلهم، والمرأة تطلق الصراخ، والمتفرجون يتحلقون بسرعة ويسألون بفضول واهتمام. وقد تدخل أحدهم وحاول أن يمنعهم إلا أن الشابين ألقوه أرضا، وسددوا إليه ضربات شديدة على وجهه وبطنه، وفجأة صرخ أحدهم:

«شرطة..شرطة..».

فهربوا من الفتحة الصغيرة الكائنة في السياج، قفزوا المصاطب، وصفوف الآس، واختفوا في الظلام، فخرج الناس من البوابة الصدئة المفتوحة على مصراعيها، وتركوا الشرطة واقفين في مربع الضوء وسط الحديقة، وقد حمل شخصان الرجل المطروح أرضا والذي كان يرافق المرأة، ومددوه قرب أشجار السدر الكائنة عند المبولة القريبة من فتحة الجدار.

فقراء وأغبياء

تركت المكان واتجهت إلى منزل سعاد التركمانية، كان المطعم خالياً إلا من شخص واحد يأكل ساندويش الفلافل على الطاولة الموجودة في الخارج ويقرأ الصحيفة، ومن الداخل ينبعث صوت موسيقى صاخب، فدخلت في الظلمة التي تجتاح مجموعة المنازل على اليمين، تناهت إلى سمعي ضجة غامضة، وهب على وجهي هواء بارد، ومن بعيد كنت أسمع ضحكات وصيحات وأصوات سكارى وحديث اثنين في السياسة يمران في الظلام، وفي الشارع العام باص يتوقف ويهبط منه رجال ونساء. كان السياج تظلله أشجار النارج الكثة، وقد اختفت درجات المنزل المرمرية الممسوحة على الدوام في الظلام، طرقت الباب توقفت، بعد دقائق خرج عباس بشعره السرح، ووجهه الأبيض السمين، وبكرشه الذي خرج قليلاً من الأسفل، وهو يتأبط البوما للصور كبيراً، فتح الباب، تصافحنا، وأنا أتنهد تنهدة قصيرة، قلت له بشكل مباشر لكي أتفادى سوء الفهم المحتمل:

«تريد مترجم..حسب ما قال لي وليد..».

«ايه إيه..» قال مبتسماً وقادني إلى الداخل.

مكتبة الفكر الجديد

كان المنزل من الداخل جميلاً وقديماً، وفي الصالة التي يغطي أرضيتها السجاد والأرائك الجميلة جلست والدته هناك على كرسي من الخيزران، وأثناء مرورنا بها حييتها بأدب وردت التحية مثل أم كبيرة طيبة:

«هلا..إبني..».

كان للكلمة الأخيرة رنة صادقة أخجلتني وصدمتني معاً، أخجلتني من كل ما فكرته بها وبالقصص التي حيكت حولها والتي تذكرتها مرة واحدة وأنا كنت أتناول الفلافل في المطعم ليلة أمس، لقد وقفت أمام امرأة مختلفة كلياً عن المرأة التي وصفتها قبل صفحات، امرأة عجوز شبه مهدمة، بغدادية بكل معنى الكلمة، تجلس قرب صندوق خشبي رقيق محفور بتموجات منمنمة مرهفة على شكل زهور ونباتات متفرقة، وضعت شيئاً مهفهفاً شفافاً أسود على رأسها، أما هذا الترف وذلك الإغراء الذي رافقها طويلاً وطبعها بطابعها فقد غادرها تماماً، كما غادرتها تلك النظرة القاتلة التي كانت تتمسك بها مع عبّادها الكثيرين، بينما زينت الحائط صورتها القديمة.

صورة وطباقها

نجمة ساطعة في عتمة الخمسينات والستينات، صورة مدهشة، لامعة، مصقولة، تقف وتضع عكسها على بار خشبي، وفي يدها علبة سجائر جريفن لماعة، وفي اليد الأخرى سيجارة منفوخة مذهبة الفم مكتوب عليها بالحرف الإفرنجي، نظراتها الرقيقة، تصفيفة شعرها، وملبسها الأنيق والمثير جعلت منها نجمة إغراء حقيقية.

لقد تهاوت هذه النجمة، وحلت محلها هذه الكومة الراعشة، ذات اللهجة الأمومية الحانية والطيبة، والوجه المتهدل الناعم قليلاً، والعينان الغائرتان وإن كانتا تتألقان بمرح، أما تدفقها وحيويتها فقد سكتتا تماماً.

مكتبة الفكر الجديد

دار الحديث أول الأمر بيني وبين عباس عن السجائر هذه الأيام، وقد تغير طعمها كثيراً، كان كلانا يمسك سيجارة في يده، ننفخ الدخان في الهواء ونرتشف الشاي الساخن من الإستكانين الموضوعين على الطاولة، ثم انعطفنا في الحديث عن أشياء متنوعة لا رابط بينها، وبعد ذلك تحدثنا عن العمل:

في الواقع كنت أتصور أن الرسائل هي رسائل تجارية تخص عمله في الساعات، غير إنه فاجأني حين قال أن الرسائل لا علاقة لها إطلاقاً بعمله في الساعات، إنما تخص زواجه:

«زواجك..؟» قلت بتعجب.

«إيه..زواجي من واحدة مغربية..» قالها وهو يتنحنح!.

كان الأحمق السمين ذو الكرش المدور يتحدث بصورة بلهاء أمامي، وكما لو مررت ريشة طاووس في خياشيم ثور عطس بقوة وأخذ يحدثني عن فتاة رياضية، مغربية، سمراء، جميلة، جاءت إلى بغداد قبل أشهر ضمن وفد رياضي مغربي كبير للعب الطاولة، ومرت هذه الفتاة بالصدفة على محله لتصليح ساعتها العاطلة، وقد تعارفا بسرعة، فلم يكن بحاجة إلى أشياء ووسائل كثيرة للتعارف على فتاة مغربية جاءت إلى بغداد فوجدت فرصتها العظيمة في الزواج منه!

وهكذا، وبسرعة البرق سقطت المغربية في غرامه، كما أن عباس سقط في غرامها، واتفقا سريعا على الزواج، ذلك لأنها لم تعد تطيق الحياة من دونه، وحين تعود إلى المغرب ستبعث له من هناك ثمن تذكرة الطائرة ليلتحق بها في طنجة، سيتزوجان ويعملان وينجبان الدراري يا روح ديالي! وبالفعل فما أن وصلت عيشة –وهذا اسمها-إلى طنجة حتى كتبت له رسالة بالفرنسية، تؤكد الاتفاق بينهما وتطلب منه القدوم إليها حسبما اتفقا تماماً في بغداد، أما لماذا كتبت رسالتها بالفرنسية؟

مكتبة الفكر الجديد

ذلك لأن الطنجاوية الجميلة تعرف التكلم بالعربية اللغة القومية المجيدة، إلا أنها لا تعرف القراءة والكتابة بها، فقد درست في مدارس استعمارية ولو إنها من مواليد الدولة العربية الحديثة، وهكذا فهو بحاجة إلى من يكتب له الرسائل بالفرنسية ليتم زواجه العظيم دون أن يسمح لمن يبدد أوهامه بجملة أو اعتراض أو بتعليق يظهر ويشع بشكل بطيء وأكيد وساخر.

تحدث عباس لي عن أهمية هذا الموضوع نسبة له، إنه صفقة حقيقية لا زواج وحسب، فهذه المغربية سوف تستقبله في المغرب، وسيعيشان هناك في شقتها في طنجة، في شقة جميلة سيزينها بلوحات ملونة وأفراح مستقبلية، إن السعادة التي يستحقها قد تأخرت في المجيء، ولكنها جاءت أخيراً، ولا يعكر صفوها سوى عامل مأساوي واحد فقط:

«ما هو..؟» أنا سألت.

«المال..» قال...فهذه الرحلة بحاجة إلى ألف دولار على الأقل..كيف سيتدبره هذا الأحمق والسمين، وقد حقدت عليه في سري، وحسدته دون ريب، قال:

«ستبعثه لي.. كما اتفقنا..».

البطاقة الجميلة التي في يدي والمكتوبة باقتضاب والتي تذكر طنجة ثلاث مرات على التوالي، تقول شيئاً آخر:

(Mon amour Abbas
Je pense á toi jours et nuits, on va depasser facillement les obstacles.
J'ai parlé á ma mère et á mon pere ; ills sont d'accord, Je t'attand ici á Tange.
Je te rembourserai tous les frais de ton voyage a ton arrivé, ici, á Tange.
Ta bien aimée Aisha Tange)

مكتبة الفكر الجديد

وترجمتها له على الوجه التالي:

(حبيبي عباس

أنا أفكر فيك ليلا ونهارا، سنجتاز الصعوبات
بسهولة. فقد حدثت أمي وحدثت أبي. ووافقا..
وأنا أنتظرك هنا في طنجة.

سأعوضك كل مصاريف سفرك عند وصولك
هنا في طنجة

حبيبتك عيشة. طنجة).

ثم قال لي إنه يحبها جداً، وأخرج لي دفتراً صغيراً كتب لها قصائد حب كثيرة..

استبدال

كنت أتحدث معه..أنظر نحوه وأحيانا تختفي صورته وتحل صورتي محله ماذا لو كانت هذه الرسالة لي لا لهذا الأحمق السمين..لقد كنت أنظر نحوه بحسد حقيقي هذا الذي سيتخلص كلياً من هذا الجو الضاغط هنا في بغداد، الحصار ومجتمع الكراهية والنهب والقسوة..والجوع والسياسة والحروب..وسيسافر إلى المغرب، سينام بكرشه المفلطح على الجسد الناعم والأسمر والأملس للطنجاوية التي لا تعرف للحياء معنى، سيرتدي الطاقية المغربية الحمراء على رأسه..وسيرتدي الثياب البيض.. وسيرمي طرطور العباءة على ظهره مثل أي مغربي «تيبيك»، ويجلس في المقاهي المورسكية من الصباح حتى المساء يكرع البيرة ويتحدث مع المغاربة عن قصيدة النثر..ماذا يريد هذا الأحمق السمين أكثر من هذا..بدلاً من أن يتزوج بنت الخياطة مثلاً.. ويتعب من العمل.. ويشيخ مبكراً.. ويصبح بلحية بيضاء طويلة.. وملابس رثة.. وسيعمل مثل العبيد..وسألت نفسي:

مكتبة الفكر الجديد

لماذا تكافئ الحياة على الدوام أبناء العاهرات بالفرص السعيدة، بينما أبناء الشريفات يشقون مثل الحمير؟!

وقد أنهت عيشة مكتوبها على البطاقة البريدية فضلاً عن رقم صندوق بريدها في طنجة بملاحظتين اثنتين، الأولى تقول له فيها بأنه تأخر كثيراً وعليه أن يحزم أمره للوصول، بالسرعة الممكنة، وملاحظة أخرى، بأنها كتبت إلى أخيها الذي يقطن في مليلة عن أمر زواجها منه، وهي تنتظر رده مع إنها لا تعتقد بأنه سيرفض، وهي ملزمة أمام والديها بأخذ موافقته.

بطاقة بريدية

كانت البطاقة التي تصور طنجة في مشهدها البحري جميلة، بل آسرة، ومن الخلف مكتوبة بخط جميل وبفرنسية صحيحة وجذابة، وقد تفننت أنا بترجمتها بطبيعة الأمر، وأقول الحقيقة بأني كذبت وأضفت بعض العبارات التزيينية لتترك ترجمتي أثراً حسناً عليه، فأنا أحتاج هذا العمل في النهاية، ومن الممكن أن يساعدني بمردود مالي، ولو بسيط، وحين قلت له إنها ذائبة من حبه، ابتسم بوجهه الأبيض السمين الذي يشبه القرع، وقد فرح كثيراً.

مسكت البطاقة بيدي الاثنتين، رفعتها وحدقت بمنظر طنجة البحري المرسوم عليها، كانت عيناي ترفان على شاطئ المدينة في أقصى جنوحه، ومن عمق هذه الصورة يرتجف نداء أبيض نظيف وصريح يجذبني لأغتسل من الوحل والمياه الآسنة التي علقت بجسدي، كان بحثي عن الخلاص هو الذي يجذبني..الخلاص من بغداد.. المدينة المتحجرة.. المدينة التي أبرزت في الحرب شناعة دمائها النتنة..وفي الحصار القرقرة المقذعة لبطنها الجائعة.. كان هنالك سحر قاتل يجذبني إلى السفر، إلى الهروب من الناس، من شناعة التجار وجشعهم المقرف، من المجاعة المرتقبة والتي ينبئ عنها الخبز الأسود، من الحروب المحتملة للعربدة السياسية في بغداد، من

مكتبة الفكر الجديد

القسوة التي لا ترحم، من الشوارع في عريها المأساوي وشحوبها المترب، والناس الذين أعياهم تعب صرف وهم يسيرون بيأس وكآبة لا نهاية لها في دروبها وطرقاتها، لقد شكل لي هذا المشهد البحري لطنجة استعارة مقتضبة وخشنة للتناقض الذي يبرز بمنتهى الاحتقار والتجرد، فهذه الزرقة المستقرة بلطف في الثراء المغربي المحض، وهي تنتزع تعاطف كل من ينظر إليها بشكل أصم ومذيب، وهذا المشهد البحري العالي التلوين بثقله الحي، بموجه الممحو مع رمال الشاطئ، وهذا الغموض الصاعد والمثير للفضول، يشكل تناقضا غير محدود مع مدينة أعيتها السياسة ودمرها الحصار..لقد كشفت هذه الصورة المربعة الصغيرة عن شمس أخرى، وعن روح صامتة ووحشية ترقص وسط سيرك من الألوان التي يغلب عليها الوردي الملتهب، عن أرض تسير عليها النساء بعري أبدي، وعن سماء تحلق لقالقها وسط ذهب أخضر.

أعدت له البطاقة بيد راجفة، فتناولها وأخذ يحدق بها هو أيضاً، رفعت استكان الشاي ووضعته بين شفتي وأنا أنظر إليه..لقد كان يدقق بالمشهد مثلي..كان يدقق بالمشهد كما لو كان كلباً أسطورياً ينظر بعينين مندهشتين مفتوحتين على اتساعهما، وقد فغر فمه الوردي ولواه بطريقة لا إرادية كأنه يريد التهامه، وقد كشفت شفتاه عن أسنان صفر من التدخين أشبه بأسنان الخيل، شعرت بالدم الأحمر وقد صعد إلى وجهي من الأسى، لأن هذا الكديش سيذهب إلى الدنيا، إلى فاس ومراكش وطنجة، أما أنا فسأتعفن هنا، هنا في بغداد..ونفخت حسرة ساخنة...

نظر إلى البطاقة البريدية، وضع سبابته على شاربه الخفيف، وأخذ يحرك يده التي يحمل بها البطاقة حركة خفيفة، فرفرت زواياها كأجنحة الطير، أما عيناه السوداوان فكانتا تحدقان بي..ثم تكلم..قال:

«أريدك أن تكتب لي رسالة..بالفرنسية..وتسألها أن تبعث له مبلغاً..قدره ألف دولار كي أستطيع السفر..».

مكتبة الفكر الجديد

«نعم..بالتأكيد..». هذه الجملة قلتها كما لو كنت مخدراً..كما لو كنت في وهم كبير..وفي فراغ محزن..وصدى كلمات عديدة يرن في ذهني بشكل متلاحق وغامض، صدى كلمات من الصعب عليه أن يفهمها، مثل: المتوسط..نساء بول بولز..روايات بيير لوتي..رواية الفارس روبير التي جعل شارل ديديه أحداثها تدور في طنجة وتطوان..كتاب غروب الإسلام لفاندريه شفريون، فندق أطلس لسالكرو وهو يتحدث عن النخيل في مراكش وبدائيتها القروسطية..كتاب الساعات المغربية للأخوين ثارو.. وجولات المهاري للضباط الاستعماريين، أسياد الأطلس..فاس..برجوازيات الإسلام.. وبيير لوتي حين رأى سكون وغموض المغرب فصرخ: كيف أعبر عن هذا؟..

طنجة

كنت أشم وأنا في بغداد صباح طنجة الصاخب وميناؤها الكبير. كنت ألامسها وكأني أجتاز شوارعها وساحاتها الفارغة وأرى على أرصفتها فتيانها وأطفالها النائمين على المصاطب، وشحاذيها الذين يتململون في جلابيبهم الوسخة في الحدائق، وبحارتها الذين يتركون روائحهم الضارية على صباحات الميناء الصيفية الحارة المفعمة بروائح الأسماك والبواخر والحبال الغليظة المبللة، كنت أشعر، وأنا وسط حزام قاتم اللون يحيط بالأرصفة البحرية حيث يطلع النهار ويجلس الصيادون ليبيعوا سلال السارديين، وكأني أمام بانوراما عظيمة وخارقة..

كنت أتكلف احترامه بطبيعة الأمر ولو كان في يدي لخلعت حذائي وانهلت به على رأسه..ألف دولار يا ابن القحبة..كنت أحاول أن أجمع شظاياي أمامه دون أن أتمكن مطلقاً من تحديد مشاعري أو تجميع أفكاري، وكان علي أن ألمعه واحترمه، كنت مضطراً على فعل ذلك وملزماً أيضاً، ومع إني متكتم على إشفاقي على هذه المغربية التي سترسل ما جمعته بطريقة أو أخرى إلى هذا الأحمق المتكرش صاحب الحظ السعيد وهو

مكتبة الفكر الجديد

يعيش وسط بغداد الحصار حيث أصبح الناس لا أقول فقراء إنما يمسكون الشيطان الأسود من ذنبه!

كنت أتساءل في نفسي: هل ترسل هذه المغربية لهذا الأحمق ألف دولار كي يرتب نفسه ويذهب إلى المغرب لتتزوجه، ماذا وجدت فيه؟ هل ستقدمه للشعب المغربي بوصفه تحفة تاريخية من العراق؟..هدية؟! ماذا تعني نزوات المرأة هنا بالذات، ما الذي اجتذبها به؟...

توقفت قليلاً وأنا أصافحه كنت محرجاً بعض الشيء، تمتمت مع نفسي بكلمات غير مفهومة، ثم تشجعت وقلت له:

«أريد بعض المال..».

انتبه وأصغى لي، فأكملت:

«لأشتري بعض الأقلام.. وورق رسائل من نوع خاص.. ومظاريف.. وبعض الكتب!..».

وكان للكلمة الأخيرة وقع غريب عليه، فقلت له:

«إني أريد الكتب كي أقتبس منها عبارات غزل وأبيات شعرية وأضعها في الرسائل..».

كان استغلالاً مفضوحاً، ومع ذلك قبله هو من جانبه وفرح به، وأنا كنت في الوهلة الأولى محرجاً ولكني تشجعت كثيراً حين رأيته متساهلاً.. بعد ذلك جاء بمبلغ من المال وعدّه على يدي عدّاً، ثم تحول بسرعة إلى طاولة قريبة، تناول دفتراً صغيراً بورق مخطط يستخدم من قبل التجار على الدوام لتقييد حساباتهم الشخصية، وقيد المبلغ أمامي في صفحة كتب عليها من منتصفها في الأعلى عبارة «مصاريف الزواج»! ثم بعنوان فرعي «الرسائل».. وقال لي بأنه سيقيد كل المصاريف في هذه الصفحة وسيطلعني على كل شيء..وسيعطيني حقي، بعد إرسال كل رسالة وقراءة

مكتبة الفكر الجديد

كل رسالة..وبالفعل فقد قيد ثمن الورق والرسائل والكتب..وقال لي بثقة عالية شبيهة بثقة تاجر أو دلال:

«هذا..كافي..».

طبعاً قلت من جانبي كلمة «كافي..» بشكل تلقائي دون أن أفكر ملياً بالموضوع، أو أدقق بالمبلغ، فكان يكفي أن استلم المبلغ أي مبلغ ليصيبني هذا الأمر بالامتلاء والفرح والرضا، ثم دفع لي ثمن قراءة البطاقة البريدية التي بيده وقيد تأريخها في الدفتر بعد أن كتب «الرسالة الأولى» وسجل على البطاقة ذاتها كلمتين: «مقروءة» و «مدفوعة»، ثم دفع ثمن كتابة الرسالة التي سأكتبها مقدماً، وقيد في الدفتر عبارة «الرسالة المرسلة الأولى مدفوعة»!

أنا وجدته في غاية الدقة، هذا الذي أعده أحمق، كان أكثر دقة مني وتنظيماً، بل يعد تناقضاً فاضحاً لفوضاي وتلجلجي، قبل أن أخرج قال بصوت محرج:

«ما رأيك بقصائدي..».

قلت له: «عظيمة..».

فذهب إلى الطاولة جلب الدفتر وقال لي:

«هل يمكنك أن تنشر لي منها..في الصحيفة..عند أصدقائك..وليد يقول انت تعرف الكثيرين..».

بلعت ريقي..بكل رضا.. تصافحنا لدى الباب واتفقنا على اللقاء يوم غد وغادرت.

طنجة ودنانير

بالرغم من أن فصل القصائد كان ثقيلاً وممجوجاً..إلا إن فصل الدنانير

مكتبة الفكر الجديد

كان ساراً جداً..لقد كنت في غاية السعادة والفرح بسبب المال الذي دفعه لي ذلك المساء، ووجدت نفسي للمرة الأولى متحرراً، أولا سأشتري الكتب التي أريدها من مكتبة آزادوهي الأرمنية والتي كنت أنظر نحوها بأسى ويأس كامل كلما سقطت عيناي على أسعارها الباهضة المكتوبة بخط واثق ودقيق، فهو الذي سيدفع بالأخير أثمانها، وسأماطل قليلاً للكسب أكثر وأكثر حتى أشتري الملابس المستوردة كما كنت أفعل قبل الحصار، وسأتناول الطعام الذي يعجبني بطبيعة الأمر كلما زادت الرسائل وطالت فترة انتظاره، وهذا من شأنه أن يساعدني كثيراً على كتابة روايتي وإتمامها، وكان علي –وإن بدا هذا الأمر خال من النزاهة نوعاً ما- أن أعرقل بشكل سري الإتمام السريع لسفره، فأنا الذي سأكتب له الرسائل، أنا صوته وفكره وضميره، ويمكنني أن أعرقل بعض الشيء مسيرتهما كي أكسب أطول فترة ممكنة ريثما يتسنى لي أن أجد منفذا سهلا غير هذا، أو أكون أتممت روايتي أيضاً وطبعتها وكسبت منها بعض المال، أنا أعرف مدى حراجة هذا الأمر من الناحية الأخلاقية، ولكني لا أدري من أين أجد التبريرات اللازمة في تلك اللحظة كي أتجاوز هذه المعوقات نحو الأشياء التي من شأنها أن تنفعني دون التفكر طويلا بما يسببه هذا الأمر من أذى للآخرين..كنت أحاول أن أضع نفسي بموازاة أدباء آخرين فعلوا كل شيء في حياتهم من أجل إتمام أعمالهم الأدبية أو الفنية، ولم يشعروا بالضيق والحرج:

«هل ما أفعله أسوأ مما فعله فاغنر؟!!..». قلت في نفسي، دون أن اضطرب لوضع نفسي بموازاة فاغنر. «أبداً..أبداً..».

وليأسي..وإدراكي أن عباس هو الذي سيسافر إلى طنجة ولست أنا، فعلي أن أجد مبرر وجودي هنا..هل طنجة ضرورية لكي أكون كاتبا..لا..بطبيعة الأمر..في بغداد يمكنني أن أكون كاتباً أيضاً..كنت في واقع الحال أبحث عن كل التبريرات التي من شأنها أن تدفعني خطوة نحو إتمام

مكتبة الفكر الجديد

روايتي..أضع الورقة البيضاء في الطابعة، وأنظر من النافذة إلى المدينة كي ألتقط أبطالي..هل هم النزيهون؟ أبداً..الفن يرتكز على الطبقة الدنيا من المجتمع، على القاع، على الأشياء الخفية والمطمورة فهو الذي يكشف عنها، أما هؤلاء الناس النزيهون والحبابون والطيبون موجودون في الواقع، ولكن في الفن، من يبحث عنهم؟!

إذن علي أن أبحث عن الحبكات الحمراء، حبكات أجواؤها فاضحة، ساخنة، فهي وحدها المرغوبة والمشتهاة، فهي وحدها التي لها هذه الجاذبية التي لا تقهر حتى وإن كانت منفرة..حتى وإن كانت داعرة، حتى وإن كانت خيالية، أو مصنوعة، أو قبيحة، فهي بعد كل شيء نادرة..إذن علي أن أخلق على الصفحة البيضاء كل تلك المشاهد المنحازة، والمشاهد الرازحة تحت ثقل عواطفي، المشاهد التي ألتقطها من هناك..من بيوت الفقراء، أو من بيوت الأثرياء، من هناك..من منازل السكان البلديين، أو من الأجانب الذين يعملون في مكاتب السفارات، المهم أن أكتب عن هذه الحياة التي لا تركن في البيوت، الحياة التي تتسكع على الدوام في الأزقة والدرابين، الحياة الملقاة على أبواب الملاهي والنوادي والبارات، حياة الخدم والبغايا والفقراء والدراويش..

«حياة رحيم ابن العمية..».

وأطلقت ضحكة مقهقهة في الهواء، فركت يدي بسرعة، وذهبت للثلاجة، أخرجت قنينة البيبسي كولا المثلجة وضعت منها في الكلاص، وشربتها بسرعة، لأن طعمها أصبح أشبه بالأسفنيك بعد الحصار، فكل الأشياء أصبحت صناعتها رديئة، المهم يربح التجار..ولا تهم صحة الناس..فلتذهب إلى الجحيم!

عدت إلى مكاني.

مكتبة الفكر الجديد

مشهد

الوقت عصراً.

ها هو رحيم ابن العمية جاء يركض-على الورقة-مثلما كان يركض في عاشور وهو يحمل الخنجر ليدفعه في خاصرته، ثم يسير في شوارع الكرادة الصاخبة بالنساء المسيحيات بأجسادهن التي تشبه المصابيح وروائحهن التي تنهك الرغبات، يركض أمام جرجيت التي تتعرق تحت الشمس الصفراء الساخنة وقطرات العرق تتساقط من جبينها مثل قطرات الشمع الذائب، يقولون إنها وقعت في غرام ضابط متقاعد شديد التدين وقد ارتدت الحجاب من أجله، تزوجته، ثم تطلقت منه، ورمت الحجاب في الزبالة، وقد أخذت تربي ببغاء في حديقتها، وكانت تسقيه البيبسي كولا كل يوم لئلا يتعكر مزاجه، أما ابنها فسرعان ما هاجر إلى كندا بعد زواج أمه مباشرة، وابنتها نادية فقد تزوجت من بولص الذي كان يسكن في عمارة بهية هو وأمه وشقيقته فكتوريا زوجة أوراها صانع الإسكافي، وقد هربت منه نادية بعد شهر واحد فقط من زواجهما، يقولون إنها رقيقة لا تحتمل بولص الذي كان يريد أن يمارس الجنس معها مثل جاموسة معصوبة العينين، مثل جاموسة تدير المحراث في أبدية السواد..

«بولص..نزاح البلاليع..بولص التلكيفي..ينام مع هذي الزهرة..».

قال سركيس المصلاوي الذي أحبها..وكان يتساءل، كيف كانت تحتمله؟.. كيف تحتمل هذا التلكيفي الذي كانت تنبعث منه رائحة مدفن مفتوح، ولأنه مسيحي مصلاوي كان يشعر بنفسه أرفع بكثير من تلكيفي ريفي يقود سيارته التي تنزح بلاليع البيوت..ويحمل قاذورات المسلمين بيديه، بينما تنبعث منه رائحة تشبه رائحة السمك المتعفن..وقد بنى بولص عمارة أسكن فيها المسلمين وقال لهم:

مكتبة الفكر الجديد

«بنيتها من خراكم..وأخذت منكم فلوس..وأسكنكم بخراكم وهم آخذ منكم فلوس..».

أو أكتب عن الأرمنيات اللواتي يشبهن شمعدانات المعابد، هذه الأنفة، والبرود المتعالي، وهذه المسحة الأوربية المميزة والاحتقار الخفي للمسلمين والمسيحيين البلديين معاً..أو عن الآثوريات اللواتي يترفعن على الكلدانيات..أكتب عن الخضرة المحاذية للنهر، عن المنازل الفخمة المشيدة على الطراز الأوربي، وعلى مقربة منها تسرح قطعان الغنم والسخول والأبقار التي تتحرك ببطء وهي تنهش في المزابل، عن الكائنات التي تتحرك على مرايا صافية تظهر وتختفي بين الأدغال، عن الصيحات المرتعشة غير المرئية والتي تتجاوب مع صدى ذكريات طفولتي من بعيد، صورة الريف المنسي وهو يعيش في الأخلاق التي ورثناها، يعيش مثل نحل خفي يطفو بأجنحته الذهبية وهو يصعد لملاقاة نور الشمس المتوهج، بينما هذه الأرواح التي تصعد، لا تتفتح إلا تحت أشعة الشمس المتقدة، وفضلاً عن أجراس الكنائس التي نسمعها أيام الآحاد، هنالك صوت المؤذن الذي يتموج في سماء من المخمل، فيرتعش في الهواء نابضاً ومتألقاً وحيوياً.

تفصيل

أنا الآن جالس مخدرا أمام الصفحة البيضاء.

أنهض وأنظر من النافذة كي أكتب صفحة واحدة فقط عن هذا الاشتعال العاري المتكون من ألف شمعة متوهجة في الليل، اشتعالي أنا في الليل الذي يمتد أسود من النافذة، اشتعالي أنا أمام الأضواء التي تومض فوق واجهات المتاجر مثل قطعة من القطيفة، اشتعالي..وأنا أنظر طرف المئذنة المضاء والمتوهج والذي يرتعد بمرح مغرد وسط الركود الكامل، وسط الشعور الكئيب والمخدر وهي يغطي بالتواءاته المدينة مثل ثعبان..قلت لأكتب عن المختار المسيحي وصديقه صاحب الدكان المسلم الذي

مكتبة الفكر الجديد

يتعشى عنده في البيت ويفرش سجادة الصلاة في المطبخ ويصلي.. وكيف كانا يطاردان وليد..لأنهما رأياه مرة وهو يضاجع إحدى العاهرات على أحد القبور، فقد كان وليد على الدوام يصطحب إحدى البغايا من الملهى، يقول لها إن له شقة في هذا الحي، وبعد أن يدوخها من اللف في الشوارع يقول لها تعالي هنا في المقبرة لأن شقتي مشغولة لسبب من الأسباب التي يخترعها في تلك اللحظة.

لم يكن وليد يفعل هذا الأمر وحده، هنالك الكثيرون والكثيرات اللواتي يخلعن كالسوناتهن ويعشن اهتياج الحب الصاخب في مقبرة الكنيسة المقدسة، وهو المكان المجيد للسكر والعربدة والصياح، والذريعة الممتازة للهو وللرذائل، كان الشباب يترقرقون عليها مثل هبوب الريح في حقول الحنطة، حتى بعد أن تحولت الوحدات الرملية إلى منازل وأماكن عبادة إسلامية وهي ترجع الأصداء المنسية للموتى المسيحيين الذين حطوا في ترابها من أوراها إلى رجينا..رجينا التي عمرت هذه الفوضى الجنسية بعد أن بنت الملاهي القريبة في شارع السعدون..

تفصيل آخر

أكتب عن الكرادة..الكرادة التي يقطنها أشراف الناس من أسياد المسيحيين والمسلمين، وعلى مقربة من منازلهم الفخمة..في شارع السعدون، أو شارع أبو نواس على النهر، أو في العرصات، أو في العلوية حيث تنتشر الملاهي والبارات وبيوت الدعارة غير المرخصة من قبل الحكومة، كانت منازلهم مغلقة والجنس محرماً..وكنا مراهقين نسمع من الشباب الأكبر منا وهم يتحدثون قرب صالة البلياردو عن صديقاتهم العذراوت اللواتي يمارسون الجنس معهن دون إيلاج، وكنا نحن الأصغر سنا ننظر بصمت إلى المراهقات اللواتي يتحولن إلى صبايا يافعات بجمال مدهش، وشعورهن الصبيانية تحتفظ بألوانها الذهبية البراقة، ننظر نحوهن

مكتبة الفكر الجديد

لكي نخمن من وراء الملابس السميكة التقاطعات المثيرة لأجسادهن، ونحلم بكسر غطرستهن المحتدمة، يوماً، أو بكسر صمتهن الطويل.

وقد طرد صاحب صالة البلياردو الشباب الذين يقفون أمام الصالة لأنهم كانوا يتحارشون ببنات الناس، وفي يوم كان عائداً من الصالة إلى منزله في البولصخانة، في ساعة متأخرة من الليل، وقريباً من جوني مصلح العجلات في مرآب رخيته انقض عليه ثلاثة من اللصوص وسرقوا له محفظته وقمصلته الجلدية، وقد اتهم هؤلاء الشباب بسرقته للانتقام منه، إلا أن الشرطة عثرت فيما بعد على أحد هؤلاء اللصوص، اسمه رحومي، وهو جندي في جبهة الحرب مع إيران، وفي الإجازات كان يعمل أجيراً في متجر للفاكهة في السوق، ويقال إنه مدمن على الكحول والمراهنات على الخيول، ولعب القمار بأنواعه، ومع ذلك لم يثنه هذا الأمر من أن تكون الفتيات هي فكرته الثابتة والتي تتجلى في علاقاته السعيدة مع البغايا والعاملات في مصنع الحلويات.

أما صاحب صالة البلياردو والذي كان متزمتا، فقد طلقته زوجته، وفرحنا بذلك، ثم تزوجت سائق شاحنة في الهندسة العسكرية التي تشق الطرق المؤدية لجبهة الحرب مع إيران، بينما تزوج هو ابنة صاحب الدكان، صديق المختار، وجعلها مثل زوجته القديمة، تروف جواربه الكريهة وتتحمل نزواته القذرة، يقولون بأنها كانت تحب صاحب المكتبة، المعلم الأنيق الذي كان يكتب الشعر العمودي، ويحب الجواهري بطريقة مجنونة ويكره السياب كرهاً لا شفاء منه، وحين أخذوه للحرب قبلت ابنة صاحب الدكان بصاحب صالة البلياردو كي لا تبقى عانساً، لكنها اكتشفت هذا التناقض الفاضح بين الزوج الكريه وذلك الشاعر الخجول ذي الطبيعة الرومانتيكية، اكتشفت خطأها مع هذا الكائن الذي كان يجبرها على الجنس دون استحمام، وكانت مضاجعتها نسبة له تشبه تمارين الرياضة البدنية، ويقال

مكتبة الفكر الجديد

أنها كانت معه خالية من المشاعر ومشبعة بالزيف العاطفي والمجاملة، ويقال بأنه لم يكن يحبها ولكنه يفضل المتعة وهي ممتزجة مع الحشمة، أو لأنه كان يريد أن يحرق قلوب الشباب الذين كانوا مولعين بها، أو انتقاماً من الشاعر صاحب المكتبة الذي أخذوه لجبهة الحرب، ولم يكن يفضلها في واقع الأمر على المسيحيات البدينات اللواتي يتجمعن قرب كنيسة القديس روفائيل، ولم يكن ردفاها النحيلان يوازيان هذه الأرداف الممتلئة التي تنفخ أنسجة البناطيل، وكانت النهود المكورة والصلبة خلف الشيرتات هي التي تشبع هذياناته الجنسية، فالخواص الأنثوية لا تكون إلا في عربدة اللحم الحي، وفي الجسد الوردي الذي ينز شبقاً في الظلام العنيد...

صرخة

صرخت لماذا أسافر إلى طنجة وأمامي كل هذه المشاهد التي ستجعل مني الكاتب العظيم..!!!

الاحتيال مهنة

في مساء اليوم التالي..كانت السماء تمطر.

خرجت من الشقة الدافئة إلى الشارع، نشرت مظلتي على رأسي واتجهت صوب مكتبة الأرمنية في الكرادة لشراء بعض الكتب، كان المساء المضاء بالمصابيح مبهجاً وقد مسحته غلالة المطر المتناثرة بمسحة ضبابية شفيفة، والنساء اللواتي يسرن في الطريق يحتمين بالأفاريز ومظلات المحلات وآرماتها، وبعضهن كن يحملن في أيديهن مظلات منشورة، وحقائبهن الجلدية معلقات بالسيور على الأكتاف، وفي الشارع الضيق الذي سرت فيه واجهتني امرأة سمينة تمسك بيدها سلة صغيرة، وقفت أمام كشك صغير اشترت صحيفة وغادرت، فعرفت إنها ابنة صاحب الدكان، وقد تغيرت كثيراً، فعبرت على الجانب الآخر حيث طغى سور الجامع بطابوقه المرتفع والمصمت، وبوابته الضخمة المغلقة على الرصيف، كانت هنالك

مكتبة الفكر الجديد

مجموعة من محلات الشاورما يقال بأنها كانت قديما ثكنة عسكرية دكتها الطائرات الإنكليزية أثناء الحرب، وقد تحول معتقل الأسرى الأثري الصغير إلى تواليت عمومي، وتحولت الثكنة القديمة إلى منازل تنفتح على الجهة الأخرى من الشارع المحاذي للنهر.

صورة

كانت الكرادة خانات قديمة، وبساتين للنخيل والزيتون والليمون تدور بظلالها اللزجة والمعتمة وبضوئها المتموج المشحون برائحة الأرض، طوقتها البيوت الحديثة من جهة النهر، وفي العمق زحفت إليها مصابيح البترول حيث كان الجنود الإنكليز يلعبون القمار تحتها، وبعد أن اخترقتها الربلات السود جاءتها الباصات الخشبية من ساحة الباب الشرقي، ومن جهة النهر كانت تتدفق إليها قفف القار التي تحمل البطيخ والرقي، الإنكليز والسيخ والكركة يخترقونها بالسيارات الكاكية كل فجر، والمعسكر الذي بنوه هناك تركوه وراءهم فأصبح مأوى للصراصير والجرذان، ثم تحول إلى مقاه، ثم إلى ملاه، ثم تحولت الكرادة إلى متاجر ضخمة: محلات لبيع المشروبات، محلات عطور، دكاكين ملابس، أكشاك زهور، شركات سياحية، مطاعم فخمة، منازل وقصور أجروها للسفارات والقنصليات، جوامع وكنائس وحسينيات، مستشفيات وصيدليات ومنازل مشبوهة، مكتبات ومتاجر للملابس الداخلية، متاجر لبيع الحصران وكراسي الخيزران، ومقاه يدخن الجالسون فيها بصمت، ويأكلون الرقي بالملاعق، ومن بين الزحام هناك الشحاذون الذين يقفون صامتين عند أعمدة الكهرباء مثل تماثيل الآلهة القديمة.

عايدة

كان الهواء المحمل برذاذ المطر يرش الطريق، ويرش حدائق البيوت، وأسيجتها، ويرش الشرفات الطابوقية العالية، ويرش الكنيسة المشيدة على الطراز الإنكليزي، ويرش أشجار السرو والنارنج والنخل الهندي بسيقانه

مكتبة الفكر الجديد

الطويلة المحززة، ويرش أشجار اليوكالبتس التي جلبها الإنكليز معهم من الهند لتطرد برائحتها الكافورية البعوض، وقد ترامت أغصانها على أسوار المنازل الحديدية التي تومض وتتنفس تحت عبق الخضرة الشتوية الغامقة.

دخلت المكتبة، كانت الكتب موضوعة بشكل أنيق ومعتنى به في الرفوف الخشبية التي تمتد من الأسفل إلى الأعلى، وهنالك أكداس عديدة من الكتب القديمة موضوعة في الكارتونات على الأرضية، فلم يعد يصل الجديد بعد الحصار ولا أحد يعرف ما يدور في الدنيا، أما السقف فقد كان منخفضاً، ويبرز منه خشب محزز ذو ألوان باهتة، خلف المكتب الصغير الموضوع في الواجهة كانت عايدة المصلاوية تجلس، وهي الموظفة التي تناوب آزادوهي في المكتبة، وفي أحيان كثيرة كانت تحل محلها، ارتدت ذلك اليوم بنطلوناً أسود، وقميصاً أبيض، وهي تقرأ بكتاب للأبراج أحمر الغلاف، ووضعت أمامها صندوقاً خشبياً أسود يحتوي على مقص وكابسة وأوراق ومجموعة من الأقلام ودبابيس، ومحبرة صغيرة، وبضعة دنانير أيضاً.

وقفت أمام هذه الفتاة وسألتها عن آزادوهي، قالت وهي تبتسم إنها لن تأتي اليوم.

في الواقع لم أكن أعرف عايدة بشكل جيد، وفي المرات الأولى كنت شعرت بسحنة عدائية موجهة نحوي بشكل خاص دون أن أعرف لماذا، إلا أنها سرعان ما غيرت لهجتها وسلوكها معي، وأخذت تحدثني وتمزح معي مما شجعني هذا الأمر على افتعال الأحاديث معها، دون أن تكون لهذه الأحاديث معنى على نحو خاص.

لقطة

وقفت عايدة أمامي، كانت تتحدث معي وهي تعدل بنطلونها و قميصها، اضطربتُ وكأنني أقف على الحافة، ثم انتقلت إلى صفوف الكتب.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أحدثها وأنا واقف أمام الرفوف وأقلب الكتب، كانت تكلمني من مكانها وهي تضع سيجارتها في فمها، أو وهي تشرب العصير، وأحيانا تتكلم معي من بعيد وهي تضع ركوة القهوة على النار على الطباخ تحت السلم الخشبي.

في الواقع كنت أجدها أنيقة، وملابسها تعجبني جداً، فهي ترتدي على الدوام بنطلونات فاتحة اللون، وجزماً قصيرة، وحين أتحدث معها تنقر ببوز حذائها بضربات خفيفة على المكتب المصنوع من خشب الصاج، وهي تدخن كثيراً، وكنت أشعر بأنها متحررة ولكنها تافهة أيضاً...وأنا من جانبي لا أخسر شيئاً..من مجاملتها، وفي الغالب أدخل المكتبة أدور في المكتبة دورة أو دورتين، وألقي نظرة على الكتب المرتبة في الرفوف، ثم أتقرب منها وأسألها عن الأسماء ومن النادر أن تعرف ما أريد إنما تعتمد اعتماداً كلياً على السعر الذي تكتبه آزادوهي على الغلاف.

كتب رومانتيكية

ما أبحث عنه اليوم هو كتب فرنسية كي أطعم رسائل عباس ببعض أبيات الشعر، أو الفقرات الرومانتيكية..أو أضع الاقتباسات من كتاب فرنسيين مهمين، وهو أمر لا يخلو من خبث بطبيعة الأمر، فأنا أريد في واقع الأمر إلفات نظر عيشه بشكل خفي نحوي، فطبيعة هذه الكتابة ستجعلها تشك بأن يكون هذا الأحمق هو الذي كتبها، وستفكر بمن كتبها، ستفكر بي، ستشعر بسخونة عواطفي وربما في النهاية ستلتفت لي، فلا يمكنها مطلقاً أن تربط بين استشهادات واقتباسات كبيرة وصورة هذا الأحمق، وربما ستبني صورة خارج هذه العلاقة المترهلة لمن يكتب لها الرسائل، سترسم له إطاراً وستعلقه في ذاكرتها، سترسم له إطاراً فارغاً، وسأجيء أنا دون شك في النهاية، وربما ستكون هذه النهاية قريبة، أعدل جاكيتتي بيدي، وأضع نفسي داخل هذا الإطار.

مكتبة الفكر الجديد

وقفت أمام الرفوف وأخذت أقلب مجموعة كلاسيكية بالفرنسية موضوعة في الزاوية، وفي تلك اللحظة التي كنت أقلب بها كتاباً مخلعاً للامارتين دخل شاب وسيم وأنيق جداً إلى المكتبة، كنت أراه بين آونة وأخرى يدخل إلى المكتبة ويتحدث مع عايدة بلكنة مصلاوية واضحة، وهذه المرة دخل، وقف أمامها ووضع يديه على حافة المكتب وأخذ يحدثها بصوت خافت، في تلك اللحظة فاحت القهوة التي وضعتها في الركوة على النار، فنهضت بسرعة ودخلت في الحجرة الصغيرة الكائنة تحت سلم خشبي يصعد إلى الأعلى، كان الطباخ هناك خلف باب خشبي مطلي باللون الأصفر، وفي الداخل حطام من الصناديق وكتب ممزقة موضوعة تحت السلم، وبالقرب منها مرحاض صغير، وسنك لغسل الصحون.

دخل الشاب خلفها، لحظات من الصمت، ثم سمعت تنهداتهما، أرهفت سمعي لألتقط ما كان يدور بينهما، فقد كانت تتنهد وهي تتحدث معه، ثم تحول نحوها، وسحبها من يدها إلى الصناديق خلف السلم، وأخذ يقبلها، انتظرت طويلاً لم أكن أراهما لأنهما كانا ملتصقين ببعضهما أمام الباب الخشبي للمرحاض الكائن خلف السلم ما خلا ظهرها وعجيرتها المحصورة تحت البنطلون، وهي تسترسل في إطلاق أناتها المنتظمة الرتيبة.

بعد ذلك انفلتت من يده وعادت وهي مضطربة إلى المكتب وجلست، وقف قليلاً أمامها وهو يحدثها بهمس ثم غادر بعصبية المكان، بقيت أقلب الكتب هناك، ثم استدرت نحوها لأكلمها، لم تكن تصغ لي جيداً، وهي تسرح بعيداً، كنت أنظر نحو صدرها البارز الذي يحصره قميصها وهو يتكور محبوساً تحت النسيج، ثم خلعت حذاءها وهي تحدثني وأمسكتها بيدها وسارت حافية على البلاط، وأخذت تدفئ أقدامها على المدفئة الغازية المقابلة لها، كانت أصابع أقدامها مطلية بالمنيكير الأحمر، وقد رفعت بنطلونها الأسود قليلاً فظهرت ربلتا ساقيها سمينتين وبيضاوين..

مكتبة الفكر الجديد

ثم عادت إلى المكتب وجلست. اقتربت منها، ووضعت كتاباً للامارتين، وآخر لألفرد دو موسيه، وقصائد الحب لرونسار على الطاولة، وأخرجت محفظتي من جيبي لأعطيها المبلغ، فتناولت الكتب دون أن تنظر إلى أثمانها ووضعتها في كيس أسود، وقالت:

«لا..لا..لا تدفع هذي المرة..هذي المرة علينا..». وقد قلبت الراء إلى غاء على طريقة اللهجة المصلاوية.

«ليش..».

فدعتني للجلوس قريباً منها، وقالت إن هذا الشاب أجبرها على فعل ذلك، وطلبت مني أن لا أخبر آزادوهي، بالتأكيد لم أحقد عليها لأنها استسلمت لصديقها، ولكني شعرت بأنها لا تريد أن تأخذ مني الفلوس رشوة لكي لا أخبر آزادوهي، فقلت لها: «انت موظفة..وستدفعين من جيبك..إنت منين لك..».

في هذا الموضع تغيرت هي تماماً، واسترسلت لي بالحديث، قالت إن هذا الشاب هو من تحب، وقد أحبته لأنه يريد أن يسافر.

«أين..» قلت مندهشا.

«إلى أميركا..».

«أوه..» قلت حاسدا.

غير إنها نظرت بحزن وقالت إنها مخطوبة لآخر، وهذا هو سر حزنها، وخطيبها أكبر منها في السن، هو في الأربعين، وهي في العشرين، اسمه رائد، صاحب مطاحن كانت تطحن الحنطة التي تقدمها له الحكومة لتوزيعها على الناس، فيسرق كمية كبيرة من هذه الحنطة ليبيعها في السوق بالاتفاق مع مراقبين حزبيين يعطيهم الرشوة، ومن ثم يطحن الكمية القليلة الباقية مازجاً إياها بالشعير ونوى التمر والأحجار وحتى ذروق الطيور، فالخبز الذي

مكتبة الفكر الجديد

كنا نأكله أوان ذاك كان أسود مخضراً، ما أن تمر عليه ساعة حتى يتحول إلى حجارة صلبة لا يمكن قضمها..

كانت عايدة تتحدث بصورة حزينة عن خطيبها رائد، وهي تكشف هذا العرض الأخلاقي لسلوكه وتصرفه، وقد خففت عليها بأن قلت لها:

«كل أصحاب المطاحن يفعلون هذا الشيء».

وقالت إنه متزوج ولديه أربعة أولاد، ولفقرها وللمسؤولية التي تتحملها في إعالة أمها وأخوتها قبلت به، وقد اعترفت بصوت رائع وفسيح بكل شيء، ولم تخفي حبها للمال والملابس والذهب والأشياء الثمينة الأخرى.

وأعترف بأنها سحرتني ذلك اليوم بنبرة صوتها وبشعرها الفاحم الأسود المتهدل على أكتافها، وبعينيها السوداوين الجميلتين، وخديها المبسوطين، ووجهها الناعم، كنت أشعر بالراحة وأنا أنظر نحوها، وحين انتهى وقت عملها خرجنا من المكتبة، حملت الكتب بيدي وخرجنا معاً، وقد ساعدتها في إغلاق المكتبة، ثم وقفنا قليلاً على الرصيف قبل أن تأتي سيارة خطيبها رائد الطحان، سيارته المرسيدس السوداء التي تأخذها كل يوم تقريباً من هناك...وتحدثنا عن أشياء متنوعة وبشكل سريع وطليق أيضاً، وهي تتلفت إلى الوراء بانتظاره، وحين قلت لها بأنه من المستحسن أن أذهب كي لا أثير غيرته، رفضت، وأصرت أن أبقى واقفاً معها، وحين جاءت سيارته المرسيدس السوداء وتوقفت على مقربة منا.

«باي..» قالت وهي ترمي حقيبتها الجلدية السوداء على كتفها، وسارت بشكل مستقيم نحو سيارته تاركة عطرها الفائر وهو يضوع في رطوبة الهواء.

(شعرت بنبضات قلبي تتسارع وأنا أنظر نحوها وهي تغادرني نحو الشخص الآخر، شعرت بيقظة هذه الرغبة التي وضعت مشاعري أمامي عارية ومخدرة).

مكتبة الفكر الجديد

فتحت باب السيارة، دخلت و أغلقت الباب بقوة، حين مرت من أمامي وأنا أقف على الرصيف أومأت لي برأسها، ثم غابت في سواد الليل الذي تضيئه مصابيح السيارات.

شعرت بحزن، بقيت أنظر في الفراغ وهي تغيب في المضيء المعتم، وأنا لم أحسد صديقها رائد الطحان لا على سيارته ولا على أمواله، إنما عليها، وقد تخيلته كيف سيتزوجها، هذا السمين الأربعيني والأبله، وسيخلع لها ملابسها الداخلية ويعيش دفء جسدها وآثاره الخفية.

امرأة متخيلة

دخلت الأستوديو، فتحت الكيس الأسود ووضعت الكتب على الطاولة، أشعلت المدفئة لتجفف رطوبة الحجرة، فقد كان الجو ربيعياً وليس بارداً، ولكن الأمطار جعلت منه رطباً ومبللاً، ثم خلعت حذائي ورميته تحت السرير، وأخذت أجفف قدميَّ على المدفئة فقد وصل الماء إلى جواربي، ثم خلعت ملابسي وذهبت لأضعها في الخزانة.

تحسست الباب بأسى، لقد كانت خزانة ملابسي باردة، ماذا لو كانت هناك فساتين امرأة، فساتين امرأة معلقة جنب ملابسي، فساتين جميلة ذات فتحات جانبية تظهر رشاقة الساق البيضاء إلى الأعلى، أو بنطلونات جينز ضيقة، أو تنورات قصيرة حين أتحسسها أجدها ما زالت دافئة بسبب التصاق نسيجها على لحم المرأة الحي، ماذا لو كانت هناك بلوزاتها الخفيفة، قمصانها المكوية التي ينبعث منها البارفان الممزوج بعرقها القديم والمشع رغم الغسيل والكوي، ماذا لو كانت تحيطني بوجودها في كل لحظة:

أدخل الحمام فأشم رائحة الشامبو تضوع من كل مكان، فكل شيء في الحمام يأخذ طابعاً أنثوياً شفافاً، زجاجة الشانيل التي تجلس أسفل المرآة، أصبع الروج، فرشة الأسنان الناعمة، والمشط العاجي الموضوع في

مكتبة الفكر الجديد

مكانه بعناية، وفي الصالة أجد منفضة السجائر مملوءة بأعقاب سجائر الكنت الملطخة بالروج الأحمر، روايات الحب مرمية على السرير، وعلى الكومدينو دواوين نزار قباني، وتذاكر سينما، وورق كلينكس، ومنديلها الأبيض مرمي على الطاولة.

إنه حلم المرأة، حلم أن تكون امرأة في شقتي، حلم أن أراها في الصباح وهي تستعد للنزول، حلم أن أراها وهي تضع في حقيبتها شيئاً غير محدد، سندويشاً مثلاً، أو تفاحة، ترتدي قميصها أمامي، وبحركة سريعة تدخل الصالة-أنام على الدوام في الصالة- حيث أكون ممدداً على القنفة وأنا أنظر إليها:

تزر أزرار بنطلونها، تسوي السوتيان على صدرها، أو ترفع تنورتها، أو فستانها، وتشد كالسونها وهي تغمز لي، امرأة تتحرك الحركات الأنثوية في الشقة فتجعلها حيوية ساخنة:

«ما طعم شقة من دون امرأة..»هكذا كنت أسأل نفسي.

لقطة

جلست إلى الطاولة، نظرت من النافذة إلى الشارع المبلط حيث تتلاقى عنده عدة شوارع جانبية مضاءة بالمصابيح، في تلك اللحظة قررت كتابة رسالة لعيشه المغربية، رسالتي أنا باسم عباس، أقول رسالتي لأني أردت كتابتها بروحي وعواطفي، وكنت مسكوناً بهذا الهاجس الذي أخذ يرتعش على الورقة، قررت أن أتخيل وجهها وجسدها، أن أتخيلها أولاً، ومن ثم أحبها، كي أكتب لها بعواطف متفجرة ومشبوبة، لا لأن عملي سيعتمد على مقدار نجاحي في إدامة هذه العلاقة المهزوزة، إنما لأني فكرت بعيداً، بعيداً جداً، فكرت بالطريق الذي سيوصلني لا محالة إليها، أو لطنجة في واقع الأمر.

مكتبة الفكر الجديد

خيال

في البدء أخذت أتخيل وجهاً مغربياً، فبدا بسمرته والشعر الأسود الغجري والعينين المتوحشتين أقرب ما يكون لوجه المطربة المغربية سميرة سعيد، وهو أكثر وجه مغربي رأيته في حياتي، فلا وجود للمغاربة في بغداد، ووجه سميرة سعيد وحده الذي يحتل هذه المساحة الهائلة من الذاكرة، أتخيل وجهاً مغربياً فيه توق غريب، توق ووحشة ترفض أن تذوب، جسد مثل أعشاب بحرية جففتها الشمس، صدر ينبض، وسيقان طويلة تنتهي بخليج سعيد، أما العينان الرقيقتان فهما بدائيتان وشهوانيتان أيضاً.

«ياه..» وضعت القلم على الطاولة وشعرت بشيء عاصف أشبه ما يكون بعاصفة الحب، شعرت بشهوة مفرطة في غزارتها، ومحبطة أيضاً، كل هذه العاطفة الجارفة وهذا الاتساع الوحشي للخيال والذي لا نهاية له سيرتطم بحافة النافذة أمامي ويعود، أما هذا الجسد الساخن والذي ينبض سيكون بين يدي هذا الأخرق، يا لي من أحمق مسكين أنا الذي حلمت بالحب والكتابة والسفر والمال وبما لا أدري أيضاً، لا أجد من نفسي غير أن أحسد شخصا على امرأة تخيلتها.. ولم أرها:

«كيف يكون هذا..؟».

طبعاً لم أسخر من نفسي لأني متعثر بعواطفي، ولم أشعر بصوتي وهو يرتعش، أو يدي وهي تهتز أمام هذه الفصلة الساخرة من حياتي، إنما كنت أشعر بالحب!!!..بل وأحس حنوه الثقيل، حنو جارف على امرأة لم أرها بل تخيلتها، وهكذا وضعت القلم على الورقة.. وكتبت «مون شيري إيشه»..ومع إنها عبارة معلبة تتصدر كل الرسائل..إلا أنها ذات عاطفة مفارقة للعواطف المبذولة الأخرى كما في أغنية الشاب خالد عن عيشه مثلاً، عاطفة عتيقة قادمة من الشعور بالأسى والهجران، إنها إشارة باهتة لا للبوح الكلامي فقط إنما للتماس الجسدي أيضاً، ماذا لو كانت بملابس

مكتبة الفكر الجديد

السباحة، فتظهر ساقاها المسمورتان الملساوان تحت أشعة شمس طنجة المتوهجة، وهي تتمدد على ضفاف بحرها الرائق، وبالرغم من أن وجهها المغربي لا يحمل معنى الجمال بالمقاييس التقليدية كالذي تحمله السورية أو العراقية إلا أنها تقدم لي وأنا أعانقها لهفة لا تقاوم مطلقاً، وعواطف مكبوتة تغرد باهتياجها على الدوام.

طنجة

طنجة..طنجة..

كيف أتخيلها؟ هل هي البغال الرصاصية التي تتهادى واهنة، ومخدرة في الظل، البغال التي تسير وئيدة على الرمل الأبيض، وعلى خلفيتها ترتسم صحراء الأطلس الزرقاء، فيمتزج المشهد كله بنعاس المدينة البيضاء الرتيب، النعاس الذي يلتف مثل خيط على المكوك.

طنجة ليست طنجة ابن بطوطة بطبيعة الأمر، طنجة السحر والهيبة والأعاجيب، فما أن ألفظ اسمها حتى أحلم.

إنها كلمة..نعم..ولكن لفظتها تجعلني أتخيل رصيف مستعمرة طويل مرسوم على البحر، رصيف بحري تثقله جزم الأوربيات الماجنات، وأقدام المغربيات المحجبات، وسيقان السماسرة والمضاربين الأوربيين الذين يجتاحون المدينة، أحذية المستوطنين، كواليش المسلمين والرهبان الفرنسيين، ومن بعيد هنالك الحقول التي حافظت على بدائيتها وهي تزحف نحو رمل البحر حيث تصطف البواخر والسفن والقوارب، وفي البارات القريبة يلعب القراصنة القمار وألعاب الموت الخطرة، أما في الليل المخيف.. فيمكنك أن تصيد النساء مثل السمكة، بالسنارة أيضاً.

كتبت جملة أو جملتين، ثم أخذت اقتباساً من لامارتين، وعاطفته المسفوحة التي لا تنفع اليوم سوى المراهقات، أرجعت رأسي للوراء وسبحت في ألوان

مكتبة الفكر الجديد

طنجة الساحرة، ليست طنجة الجاثمة على البحر وقد مددت ساقيها في اللازورد الأبدي للأطلس العظيم وكأنها تطلب من يضاجعها، فقط، إنما طنجة التي تمتزج فيها جميع اللهجات، وتتداخل فيها جوقة من الأزياء، وألوان البرانص، وجميع الأشجار الصحراوية والبحرية معاً، طنجة الأثرياء الذين يعمرون الفنادق، وطنجة الفقراء الذين يرقصون على أضواء القناديل فوق الرمال، أما النساء الشبقات، فهن ينظرنني بأعينهن السود المدلهمة المغرمة، مثل نساء ديلاكروا.

خيال

لقد كان خيالي وأنا في حجرتي الصغيرة والرطبة والمهملة والمنفية في زاوية صغيرة من هذا الكون، يقلب لي حتى القمامة المتكونة عند رصيف البحر إلى تل من الذهب، حتى هذا الفقر الشنيع الذي كان من الممكن أن أعرفه من الروايات المغربية يتحول إلى نوع من المزاج الشرقي، يتحول نسبة لي إلى بساطة عارية، وخالية من الإدعاء، كل شيء في تلك اللحظة استحضره هو عجائبي وغرائبي، كل تعاسات الناس تتحول إلى شيء جميل وعذب طالما أنا أتفرج عليها ولا أعيشها، وهكذا يستطيل خيالي ليصل إلى سمك الظل في طنجة، في تلك اللحظة يجعلني خيالي أسبح في ضوء المساجد، أو يجعلني أرقص أمام حوانيت الحلاقة، يجعلني أشرب الشاي في مقاهي طنجة، في حي روكسي، حيث يتقدم الطرزي محمد وهو يحمل فانوسه في منتصف الليل ويذهب إلى محظيته بنت سيدي مغربي، كنت أجلس على كرسي هناك وأقرأ صحيفة أنوال المغربية وأنا أنظر إلى البذلات المحلية التي يغلب عليها اللون الأحمر، أو أضع يدي بجيوبي وأسير في الأسواق البلدية، أأكل الكسكس المغربي بالشطة والفلفل، وأجلس مع فرسان القبائل وهم يحملون الغدارات، وندخن النرجيلة التي تستقر عند الأقدام، وحين تمر صبية جميلة أطلق حسرة وأقول:

«آه.. يا روح ديالي..».

مكتبة الفكر الجديد

هناك الخطوط تأخذ شكلاً آخر، الألوان تأخذ عمقاً آخر، وحتى الروائح اللاذعة والأصوات، والضجيج، والمنازل البيض، والشجر الأخضر المسود، والزرقة الحية للبحر، وهذا الريف الصاخب الذي تملأه صيحات الكراكي.. إنها طنجة الأطلسي، طنجة التي تسبح بإعجاز مدهش، طنجة التي تتمدد بلذة غامضة ووميض أبيض، وأنا أرتدي الملابس المغربية البيضاء، والشنة الحمراء على رأسي، وأغازل الفتيات اللواتي يحملن سلال الخبز في السوق، ويصرخن في الزحام: «بالك..بالك».

لقد اكتملت صورة طنجة وصورة عيشه معاً.

رميت القلم على الطاولة، ضربت بيدي على رأسي وقلت:

«كل هذه الأشياء سيستمتع بها هذا ابن القحبة.. وأنا سأتعفن هنا..».

كيف لا يخرب مزاجي؟

لبست نعالي، بعد أن جرجرته بيدي من تحت الطاولة وذهبت لأبول في الحمام، ثم ذهبت لأحمي الشاي، وقد انتبهت لحظتها وأنا أصب الشاي في الاستكان إلى نفسي الحالمة والمضللة:

«عجيب..» قلت في نفسي.

ما الذي يجعلني أضع نفسي محله، لماذا نريد ما يريده الآخرون، فأنا أريد أن اصطاد تمارى من وليد، وأريد أن اصطاد عايدة المصلاوية من رائد الطحان، وأكتب رسالة لشخص سيعطيني أجوري، بينما أنا أخطط لاصطياد صديقته وطنجته معها.. كيف يمكنني أن أبرر كل هذا..كنت أقفز من فوق الموانع الأخلاقية نحو أشياء تجريدية بسرعة..أضرب على صدري مثل همنغواي وأقول ولكني كاتب..سأكتب شيئاً عظيماً سيطربق الدنيا.. أنا ثروة عالمية!!!..ألست كذلك؟!! وما هو مهم نسبة لي هو كيف أخرج من هذه المدينة المقهورة والمحاصرة والتي لا تنفع عبقرياً مثلي!! هل أنا

مكتبة الفكر الجديد

المسؤول عن غزو الكويت..هل أنا من يستحق العقوبة، وحياتي وفرديتي أين تذهبان..هل أتعفن بقية عمري في هذه الحجرة المنخورة والرطبة، وما أكتبه أين يذهب، أنا أتعفن في هذا الخراء بينما يعيش الشباب في العالم على ضفاف البحار المشمسة وهم يجدفون في البحر..ويحضرون المؤتمرات والمهرجانات الأدبية، ويغنون ويرقصون.. كنت أشعر وكأني ألامس حافة العالم..كنت أعيش دواراً من نوع جديد..كنت أشعر بالاختناق ولا يمكنني أن أبقى هكذا..إذن كل ما أفعله مبرر..طالما أنا كاتب يريد الوصول إلى البقعة البيضاء والمضاءة من هذا العالم..وليس لي من طريق سوى هذه الرسائل..عظيم..عظيم قلت في نفسي ولكن كيف؟

هل أكتب إلى عيشه رسالة، أقول لها فيها اتركي هذا الأخرق وتعالي فأنا أحسن منه؟ كيف يمكن أن تقبل هذا، وهي لم ترني، ولا تعرفني، وقد قبلت هي بهذا الأخرق كما يقول، لأنه عراقي، والمغربيات يحبنَّ العراقيين؟!! لماذا؟

سرت في نفسي أشياء وهواجس وآمال لم أستطع أن أقضي عليها.

كان هنالك شيء خفي، وغامض، وسري، يجعلني آمل أن أجلس جنبه، وأمد يدي وألطشها منه، وأضعها في جيبي، أقول لم أرغمها على ذلك، وقد حدث كل شيء بطريقة اعتيادية وأخلاقية تماماً!! كنت أقول لنفسي انتظر وسنرى ماذا سيحدث.

لقد كتبت الرسالة بعاطفة مشبوبة، وقد ضمنتها مقاطع كثيرة من شعر الحب الفرنسي لأفريد دو موسيه، ولامارتين، ومن سونيتات الحب لرونسار، وبالغت في نهاية الرسالة في الكلام كثيراً لا في عاطفتي المشبوبة ومظاهر الحب إنما في التوسل والطلب والرجاء لتبعث الألف دولار كي يسافر هذا الأخرق، وأنا ماذا سأستفيد؟ بطبيعة الأمر خططت أيضاً لنفسي، وحدثتها باسمه عني، بأن له صديق هو الآخر عراقي، مخلص وبارع (تلميح

مكتبة الفكر الجديد

جنسي)، إذا تم أمر سفره وتزوجها سيدعوه كذلك للسفر والخلاص أو يهيئ له الأمور هناك..والخ الخ..

مغاربة وابن الرشد

كنت أعرف أن الأمور لن تجري بهذه السهولة ولكن علي أن أخطط بصورة دقيقة ومنتظمة، علي أن أصبح صديقه الحميم، الصديق الذي لا يمكنه الاستغناء عنه، وأن أحشر نفسي في هذه القصة بأية صورة، وبكل السبل، علي أن أصنع لنفسي دوراً، أن أكون شريكاً في شيء حتى لو كنت محشوراً في الزاوية، فمن يدري ربما تنقلب الأدوار وتصبح الزاوية هي المركز، والمركز هامشاً!! كما يقول دريدا، فما كنت قادراً أن أغادر هذا الموضوع هكذا ببساطة، دون أي شيء، هذا أمر مستحيل -قلت لنفسي- حتى لو كان هذا الأمر خاضعا لسلوك مبتذل، ذلك لأنه إذا نجح، سرعان ما سيتحول إلى شيء أخلاقي ونقي ورائع ومدهش، ولا سيما لو أنا بالفعل حققت هذه القفزة، من بغداد إلى طنجة.

سبلين دو بغداد

لقد ضجرت من بغداد، ضجرت من حصارها الشنيع، وفقرها المدقع، وحرارة صيفها المدمرة، وأسعارها الباهضة، ودنانيرها الطبع.. وسياراتها الدفع..وملابسها الرقع..مللت رداءة طعامها، وقدم كتبها، أما السياسة فلا أريد التحدث عنها، والنساء فقد تراجعن كثيراً بعد الحصار، وأصبحت ملابسهن ريفية، وسلوكهن مستهلكاً، أريد طنجة، أو أي شعب جديد، مركب من طباع مختلفة، وأجناس مختلفة، أريد نساء مختلطات ومكونات من جميع أجناس المتوسط، بربريات متحمسات للحياة والتمتع بأهواء جامحة، نساء سهلة الانقياد، نساء كسولات، أوربيات مهاجرات، حبشيات، أريد شيئاً أشبه بمأدبة المرتزقة في سالامبو، طبعاً..طبعاً

هنالك شيء واحد أكرهه في المغرب، هو ولعهم بابن الرشد، فالمغاربة

مكتبة الفكر الجديد

وحديثهم الممل والمكرور عنه يجعلني أجن..يكتبون عنه مقالات، يكتبون عنه قصائد، يكتبون عنه روايات، تقول لهم هذه النساء.. يقولون لك: قال ابن الرشد، تقول لهم هذه الرمال جميلة.. يقولون لك كان يحبها ابن الرشد..لو يتركون هذا الخراء ويتمتعون بالبحر الساخن والرمل الأبيض وهذا المحيط الشعبي والوجداني والحسي والطفولي والديكوري لكانوا أفضل شعب في الدنيا، أما أنا فسأقول لهم اقرؤوا ابن الرشد واتركوني أتمدد على الرمال الساخنة جنب جسد عيشه الأسمر، وأشم رائحة الزيت المقلي قرب كشك يبيع الساردين، إنه كسل حسي ومتحمس وأرض عالية التلوين وألوان بيتورسكية واضحة وصريحة، بعيداً عن هذا البلد المحاصر والمغلق، وحياته التي عادت كما كانت قبل ألف عام، فكلما أمر بسوق باب المعظم أتذكر سوق عكاظ في فيلم الرسالة والذي يعبر عن الدولة العربية البدوية قبل ألف وأربعمئة عام.. هل أنا مستشرق كي أذوب في عالمه الصامت والبدائي والوحشي..أنا أريد ضياء غير هذا الضياء.. أريد أن أسبح في الجانب الغامض من جنة مشيدة على البحر حيث الشباب والصبايا يعبرون أودية ممتلئة بالزهور المتفتحة، أريد أن أتأمل اللون الوردي الملتهب تحت الظلال العميقة، وأقبل عيشة حينما تقف اللقالق على سطوح المنازل التي تسخنها الشمس، بقدم واحدة.

يوتوبيا

طيب..كل هذه اليوتوبيا التي أحلم بها هي يوتوبيا عظيمة ولكن كيف أصل إليها؟ ليست لدي وسيلة أخرى سوى الرسائل..وهذه القصة التي حدثت مع عباس ربما ستكون هي قصتي أيضاً، والمصادفة التي حدثت معه ربما ستحدث معي، ولكن ماذا أكتب لعيشه حتى تصبح مصادفة عباس مصادفتي، هذا هو الأمر الصعب، في البداية كنت أكتب الأشياء الفجة والمباشرة، مثلاً:

مكتبة الفكر الجديد

«صديقي هو الآخر يريد الزواج من مغربية ألا توجد واحدة من جيرانكم أو أصدقائكم أو أقربائكم تريد الزواج من عراقي وسيم أعزب ومثقف ويقدس الحياة الزوجية!!..» ثم أشطبها.. أكتب:

«لي صديق لا يمكنني أن أستغني عنه.. فهو مفيد جداً في تشغيله أو الاعتماد عليه..»-أقول في نفسي هل أعمل حماراً لهذا الأحمق- ثم أشطبها..أخيراً قررت أن أبني دوراً صغيراً في الرسائل الأولى..صغير نعم ولكن من الممكن أن أنفخ به كل مرة، حتى يصبح المنفوخ مهيمناً كلياً على المشهد، ومن يدري، ربما ستصبح الألف دولار من حصة النافخ.. وسأكون أنا المسافر إلى طنجة لا هذا ابن القحبة!!

أكملت الرسالة أخيراً، وضعتها في المظروف، وكتبت العنوان الموجود على مظروف رسالتها، وهو عنوان مقتضب جداً، اسمها عيشة بنسعيد، صندوق بريد، ورمز بريدي، طنجة ومن ثم المملكة المغربية، وكتبت من الجهة الأخرى عنوان عباس..وهو عنوان محله.. لتصليح الساعات..في الكرادة الشرقية/ رخيتة - بغداد..العراق..

نمت، وفي الصباح مررت على المحل، وأعطيته الرسالة، وتحدثنا طويلاً عن الأمر، كان واقفاً أمام المحل بكرشه ورأسه المفلطح وقميصه الأبيض الذي اسودت ياقته قليلاً، كان كلانا لديه رغبة لا تنتهي في الكلام عن هذا الموضوع، ربما تحدثنا أكثر من ثلاث ساعات عن الموضوع، كررنا كل شيء وبشكل متواصل، رددنا الجمل ذاتها آلاف المرات دون ملل أو ضجر، وكان مبتهجاً جداً..وأنا أيضاً كنت مبتهجاً ومسروراً..فالحديث عن هذا الأمر لم يكن مملاً لا لي ولا له، وحين أردت أن أغادر رفض، وطلب مني بإلحاح أن أبقى، وكنا نستخدم تعابير مغربية أيضاً في كلامنا، مثل:

« ياروح ديالي..بالزاف..الدراري..».

وكان يجرب أن يلفظ كلمات فرنسية، مثل «كس كو سيه..مون آمور..»

مكتبة الفكر الجديد

وحين يخطأ يفطس من الضحك.. كل شيء يتحرك مع قهقهته..كرشه العظيمة، وخداه المترهلان وأفخاذه الصاعدة إلى الأعلى، وكانت عيناه تدمعان من الضحك..ووجهه يحمر بقوة..وقد أقنعته أن يكتب لها الرسائل تلو الرسائل ولا ينتظر إجاباتها..فالغزل سيجعلها تتعجل بإرسال المبلغ.. ووافق على هذا وأعطاني المزيد من المال كي أشتري المظاريف والورق والأقلام والكتب التي تنفعني في كتابتها..

وحين غادرت قال:

«ألا تمر علي في المساء..حتى نتحدث في الموضوع؟»..

صفقة وليد

في اليوم التالي هبطت من الشقة على عجل وتوجهت إلى المطعم الصغير المقابل للحديقة، بالقرب من سياجها كان وليد متكئاً على جذع شجرة يوكالبتوس يرتدي الحذاء الباتا والبنطلون الجينز، ناداني بصوت خفيض، وعبر الشارع المبلط نحوي، سلمت عليه، وتوقفنا عند البوابة الخارجية لمنزل المختار، كان وجهه متعبا وقد اغبر قميصه قليلاً، وأخذ يحدثني عن صفقة تجارية يقوم بها الآن، يتحدث بحماس، وعلى مقربة من النخلات الكثيرات مجموعة من الأطفال الذين يهرجون الحديقة بالضجيج والصياح:

«صفقة تجارية.. وهل تفهم بالتجارة..أيضاً؟!» قلت مستهزئا به.

هجم علي بلهجته اللبنانية الفصيحة، وقال إنه يفهم ببيع الأنتيكات والسجاد والصناديق القديمة والمخطوطات والأثريات وبعض التماثيل البابلية والآشورية وقطع الخزف من الحضارة الإسلامية والسيوف العثمانية والمسدسات والمذكرات والأسرار من العهدين الملكي والجمهوري والخ الخ..لقد صدمني بحديثه، فأعمال خطيرة مثل هذه يمكنها أن تؤدي إلى به السجن لا محالة..ولذا من حقي أن أرتعش خوفاً..إلا أن خشيتي

مكتبة الفكر الجديد

بطبيعة الأمر أثارت سخريته، ذلك لأني لن أكون روائياً طالما إني أخاف المخاطرة، واللعب، والمقامرة، فالأدب نسبة له مغامرة في الفن والحياة، ومن لا يستطيع المغامرة في الحياة لن يستطيع المغامرة في الأدب، وليد لا يفهم من المتاحف والمناطق الأثرية ودور المخطوطات والمكتبات المحروسة إلا إقليما للنهب، معه يمكنك أن ترى القطع الأثرية والتماثيل والمنحوتات والنقوش والرقم الطينية والقطع النقدية والمالية القديمة بشكل سافر، في كل مرة يأتيك وهو يحمل جرة بابلية بكيس، يتلفت يميناً وشمالاً ويسألك فيما إذا كنت تعرف أحد الأجانب أو العرب أو التجار العراقيين لشراء هذه القطعة، بيد أن الكثير منها كان مزيفاً، فهو على معرفة بالرسامين والنحاتين الذين لم يجدوا عملاً تلك الأيام غير تقليد اللوحات العالمية، وتزييف تواقيع الفنانين الكبار، وتزوير أوراقها الثبوتية من المتاحف العالمية، أو نحت التماثيل الأثرية وتزييفها، أو سك النقود ومن ثم وضعها في الطين والنار لتبدو قديمة، كان يحتال بها على الأجانب.

مشهد

كان الوقت مساء، أخذني وليد إلى شقته، لم تكن شقة بالمعنى الدقيق للكلمة، إنما حجرة من الجينكو أعلى عمارة صغيرة في الكرادة، لها باب صدئ، وفي الداخل رتب وليد كل شيء بعناية، بعض لوحات أصدقائه الشباب، وبعض اللوحات المزيفة المنسوخة عن لوحات جواد سليم، وفائق حسن، وضياء العزاوي وغيرهم، ربما كان يبيعها على الأجانب، سريره، كومدينو صغير، وكتب قليلة جداً على الرف! وهناك صندوق قديم، فتحه وأخرج منه تمثالاً من الحجر الأسود يشبه تمثال الملك البابلي نرام سين، وقال لي إن تاجراً عراقياً يتعامل مع مهربي آثار أمريكيين طلبه منه، وإنه سيحصل على مال كبير، ثم أخرج لي مخطوطة لابن عربي قال لي عنها إنها أصلية.. وسألني فيما إذا كنت أعرف شخصاً يشتريها، ثم

مكتبة الفكر الجديد

أخرج سجادة قديمة قال إنها تعود إلى الملك محمد علي القاجاري شاه إيران حين زار كربلاء في القرن التاسع عشر، فقد أنزلت للأرض كي يدوس عليها الشاه قبل دخوله الحضرة المقدسة، وأشار على طبعة حذاء واضحة عليها، وقال هذه طبعة قدمه!

ثم سألني لماذا لا أشتريها بخمسمائة دولار، وبالتالي يمكنني بيعها بألف دولار، فسألته إذا كان من الممكن أن تباع بألف دولار فلماذا لا يبيعها هو، فسخر مني لأني لا أفهم شيئاً في المصلحة، وأسهب في شرح العمليات المتناوبة للبيع والشراء والتي يمكنها أن تضيع مصدرها..على العموم رقم الألف دولار الذي لفظه أمامي لم يكن اعتباطياً إنما كان يدرك المقصود تماماً..فمن هو بحاجة إلى ألف دولار هو عباس كي يسافر، وقد عرف أن الطريق الملتوي سيؤدي بالنهاية إلى نتيجة!!

آزاد

في الظهيرة، غادرت الأستوديو وتوجهت إلى منزل عباس، في الطريق رأيت جورج، شماس الكنيسة، وسلمت عليه، وقال لي: «شلونه جدك..».وتعجبت لأنه كان حاضراً في عزاء جدي قبل سنوات!

قرب الدكان، كانت زوجة المختار البدينة تجلس على كرسي خشبي، وفستانها الأخضر ترده على ركبتيها بقوة، وبالقرب منها صبيحة الكردية، وزوجها آزاد، الذي يضجرني كل مرة بثرثراته الفارغة، يمسك حمالتي بنطلونه بإبهاميه ويحركهما إلى الأعلى والأسفل، وإذا انتهى من أحاديثه السياسية المضجرة التي لا تعرف عماذا يتكلم ومن ينتقد، يتحدث عن مغامراته الغرامية الوهمية، ولا يترك واحدة من الحي دون أن يتحدث عنها حتى عن الجارات المعروفات بحشمتهن، فهو لا يقول شيئاً بشكل مباشر، إنما ينظر إلى السيدة التي تمر من أمامه باستخفاف، ثم يلتفت إليك ويقول: «هناك شامة على ردفها الأيسر..» ويقهقه بصورة كريهة.

مكتبة الفكر الجديد

أو يقول: «حلوة بس من تضاجعها تمل منها..».

مررت خلسة كي لا يراني، لأنه يريد أن يصيد كل شخص يمر، فما أن تمر من باب منزله حتى يهرع وراءك بالبيجاما والفانيلا ويصيح عليك، مرات كثيرة، يخرج حافياً، لأنه يركض بسرعة كي لا تفلت منه، يأتيك يلهث وهو يمسك الجريدة بيد والنظارة الطبية باليد الأخرى، ويقول لك:

«يابا سمعت بالقرار الجديد..».

كان يتكلم بالسياسة بشكل غامض وعشوائي ولا تفهم منه شيئاً، وهو يتلفت من الخوف يميناً وشمالاً، ثم يجذبك شيئاً فشيئاً ليضعك في قعر هذياناته النسوانية.

قبل صبيحة، زوجته الثانية، كان آزاد متزوجاً من نرمين، وهي فتاة شيوعية معروفة في الستينات، أخلصت له كثيراً، تحملت تفاهته، وغسل ملابسه المبقعة بالزيت حتى سُلخت يداها، وتحملت العيش في منزله المظلم القذر التي كانت تعشعش فيه الجرذان والصراصير والسحالي المنتفخة في حي الأكراد، وحين سجنت عام ١٩٦٣ هجرها، يقال إنها اغتصبت هناك، فاشمئز منها، وتزوج من صبيحة، فاشترت الزوجة المهجورة آلة خياطة صنكر وأخذت تعمل بها حتى توفيت، فحصل من وفاتها على ما تملكه: آلة خياطة، براد قديم، موقد على الكيروسين، وغرامفون كانت تسمع به اسطوانتها المفضلة.

بعد أن تزوج من صبيحة، شعر آزاد بالفرق، وأخذ يتحدث بحنين عن زوجته الأولى، كان يحن لها، يحن لاسطوانتاها المطبوعة في بيضافون في القاهرة، يتحدث عن الكمادات التي كانت تضعها على جبينه حينما يمرض، يتذكر تسلياتها معه في سينما غرناطة وقد كانت تجبره على الذهاب إلى السينما كل خميس، أما الجنس فقد شحذته شحذا، جعلته مثل قاطع الزجاج حاداً وصغيراً وبإمكانه أن يفلق الزجاج إلى فلقتين، كان يتحدث

مكتبة الفكر الجديد

عن تلك الأيام كثيراً، ولكن هنالك حادثة طالما يتذكرها بحنين شديد:

بعد أن يعودا من السينما كانت هنالك إذاعة صوت العرب التي تقدم سهرة أم كلثوم، فتصفُّ نرمين المائدة بتشريب الدجاج والطرشي، وتعزم أقرباءه وأصدقاءه كما تفعل العائلات البغدادية كلها..

أما صبيحة فقد كانت مضجرة، جاهلة، غبية، ولكنها تملك هذا المنزل في الكرادة، ولأنها تملك وهو لا يملك أجبرته على العمل كعتال في الشركة الأفريقية، فأصبحت حياته لا تطاق، كان يرى نفسه أكبر من حمال للبضائع الثقيلة على ظهره، أكبر من أن يكون أجيراً، فهو مفكر، وعظيم، وسياسي خطير، يقول وليد:

«هذه مشكلة الشيوعية..»

وقد شرح لي هذا الأمر بإسهاب، ذلك أن الشيوعية بإطارها النظري تعطي لهؤلاء الناس نوعاً من الثقافة السطحية والخاصة جداً والتي لا يملكها عامة الناس، فتجعلهم يشعرون بتفوقهم، وبانسلاخهم عن المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، بل سرعان ما يشعرون بشرخ الهوية الذي يعاني منه المثقفون!!!

عبقري المادية التاريخة

كان آزاد يعيش وسط الحمالين والعتالين والأجراء في الشركة الأفريقية، كيف لهذا المفكر الذي يعرف ولو بشكل خلبي المادية التاريخية، والمادية الجدلية وصراع الطبقات، أن يحمل على ظهره البرادات والمراوح والطباخات وهو يشد نطاقاً من النسيج على بطنه؟

كيف لهذا العبقري الذي يسخر منك لأنك لا تعرف أن العبودية تأتي بعد المشاعية مباشرة، أو لأنك لا تفرق بين البنية التحتية والبنية الفوقية، أو لا تعرف وحدة وصراع الأضداد، أو التغيرات الكمية التي تؤدي إلى

مكتبة الفكر الجديد

تغيرات كيفية..والتي يحفظها عن ظهر قلب، كيف يعمل مثله مثل الجهلة والغافلين واللاسياسين واللامثقفين..إذن هنالك مؤامرة سياسية ضده، وبعد أن أخذت شرايين قدميه بالبروز والتشوه تفاقم الأمر عنده..وتأكدت لديه المؤامرة السياسية الاستخبارية لتحطيمه وتهديمه.

الكاتالوغ

طرقت الباب الخشبي المزخرف، وحين انفتح، باغتتني رائحة المنزل العذبة، دخلت وجلست على الأريكة في الصالون، كان الأثاث متراكبا فوق بعض، هنالك وفرة من كل شيء، وفرة تفتقر إلى الذوق الرفيع: وسائد مزركشة، صور، تخريمات، منحوتات خشبية من ذلك النوع الذي كان يجلبه العراقيون من سفرهم للدول الأشتراكية، أثاث قديم، سجاد، طاولات معشقة بالأصداف، متكآت حرير، أقفاص فضية للطيور المحنطة، ومجموعة من الخزفيات الزجاجية، من بقايا ممتلكات السيد العقيد. ولكن لا شيء يدل في المنزل على آثار السيد نائب العريف مطلقاً.

نهض عباس من مكانه وذهب مباشرة إلى الكومدينو، أخرج كتلوغا سياحياً ملوناً عن المغرب وناولني إياه، وتحرك بخطوات سريعة إلى الزاوية، وضع في الريكوردر شريطاً لأغان مغربية محلية جداً هي فرقة «جيل جيلاله»، صدح صوت الدرابك والمزامير والأصوات الرجالية المتداخلة بصخب في الصالون، نظر نحوي وقد التمعت عيناه ببريق لاصف، وضعنا الكاتلوغ على الطاولة الكبيرة، فتحناه، وأخذنا نتجول في طنجة.

لقد تجولنا كثيراً في شوارعها وساحاتها، أجرنا فنادقها، ضاجعنا صور الفتيات الملونة المرسومة على ورق الكاتلوغ الصقيل ونحن نضحك، أنظر إليه وأشير بإصبعي إلى فتاة سمراء ممتلئة ترتدي المايوه وتضطجع على البحر، أقول له:

«هل تشبهها؟» أقصد عيشة طبعاً.

مكتبة الفكر الجديد

يقول: «لا..عيشه...أحلى».

نذوب كلانا في عاطفة مخدرة، نذوب في صورة البحر الحبرية الزرقاء، نذوب ونحن ننظر إلى الرمال الساخنة التي تتمدد عليها آلاف الأجساد العارية، كنا نتيه في خيلاتنا، محرضين أنفسنا على الانغماس شيئاً فشيئاً في فضائها، شاعلين في روحينا جذوة حب يائس، عصي على التحقق، جذوة حب بعيد غير أنه يتراءى لنا في الكاتلوغ عبر هذه الصور البحرية والفنادق والشوارع وأجساد النساء والمأكولات المغربية المتبلة: الكسكسي، الطاجين، السمك.. كنا نحرض أنفسنا على حبها عن طريق الحديث عنها، ولم تكن المغرب نسبة لنا سوى أحجار وفخار وصور وأسماء وتمثيلات محولة، كيف؟

معرفة

وقفت أمام عباس وفصلت له معرفتي العظيمة عن المغرب.

تحدثت عن الملك (لم أكن أعرف عنه أي شيء.. سوى إنه أحسن ممن هذا الغوغائي الذي عندنا).

تحدثت عن الوزراء (لم أكن أعرف أي واحد منهم ولكنهم كانوا أحسن من الأوباش الذين يرأسون وزاراتنا وأكثرهم من النواب العرفاء).

تحدثت عن بن بركة (لا أعرفه إلا من خلال الفيلم طبعاً، وكانت صورة إيف مونتان تحل محل صورته مباشرة).

تحدثت عن اليوسفي، قلت له إني أحبه كثيرا (لم أكن أعرف عنه أي شيء).

قفزت إلى الأعلى وأنا أصيح محمد عابد الجابري (وإن كان تأثيره حاسماً علي وعلى جيلي لكنه لم يكن يحمل أية مسحة مغربية تقليدية، مثله مثل أي مفكر مصري أو عراقي أو لبناني).

مكتبة الفكر الجديد

غنيت له أغاني سميرة سعيد..المطربة المغربية (غير أنها كانت تغني باللهجة المصرية، اللهجة الفنية العربية السائدة).

أما الروايات فلم أتحدث عنها مطلقاً، لم أكن أريد أن أنغص صورتنا السياحية عن المغرب..فنظرة واحدة لروايات محمد شكري أو محمد زفزاف أو الطاهر بن جلون أو الميلودي شغموم ستجعلك تتقيأ ذلك اليوم دون تراجع مطلقاً، فهي نصوص كئيبة، مجروحة بعمق، وتعيش في جوهرها على قهر وحقد مخمر، إنها فرجة..فرجة حقيقية لصراع متوحش مع الموت، صراع مع الجوع، صراع مع القهر والضياع، إنها صورة للمدن التي تحولت إلى مقابر بشرية تبتلع على نحو بطيء ومتمهل هذه الكائنات المطرودة والمنبوذة من مهمشين ومقصيين وخارجين ومبعدين، لقد كنت أُبعدُ، بل كنتُ أُقصي في تلك اللحظات كل ما من شأنه أن يشوه هذه الصورة الخلابة المرسومة على الكاتلوغ، كنت أُبعد صورة الأب في رواية محمد شكري وهو يخنق بقنوط موحش أحد أولاده، كنت أُبعد صورة الكائنات البشرية التي يتهددها في كل لحظة خطر الانصرام الكامل، وهي تعيش على نحو قلق ومنعزل المشاهد المذلة والمهددة لقساوة الجوع، وخضوعها المهين لحضوره المتطلب وقوته التي لا تقهر.

أما عباس فقد كان يعيش هذه النشوة المرحة التي تنبثق من صور الكاتلوغ المتعددة دون أية فكرة مسبقة أخرى، كنت أظن في البداية إنه أكثر وهماً مني، لأني أعرف عن طريق الروايات هذه المشاهد المذلة والتي تهدد هذه الصورة المحلومة والمرغوبة بقوة، ولكني في الحقيقة كنت أكثر وهماً وخداعاً منه، لأني، ولكي أقبض على هذه النشوة المرحة التي كانت تجتاحه بعفوية، ولكي تبقى متوهجة في عينيَّ طوال هذه اللحظات، كان عليَّ أن أقصي عن تفكيري كل هذه النصوص الكئيبة والمتوترة، وأبعدها، كان علي أن أعيش ببراعة تامة وهمي أنا عن المغرب، وهمي أنا..بعيداً عن

مكتبة الفكر الجديد

باعة البسطات، والعاهرات الرخيصات، والمعوزين والشحاذين والمهربين والمجرمين والخارجين على النظام الاجتماعي.

سياحة

كان الكاتلوغ هو الوعي السياحي المتشرب بالمعنى السياسي حتى الأعماق، فالمكان الغريب والموحش على ساكنيه الفقراء والمعوزين يتحول في الخطاب الدعائي والإعلاني للدولة، والشركات السياحية إلى صورة مطابقة لما يريده الأثرياء، إنه الساحل والأوتيلات والمطاعم الفخمة والتي تظهر بشكل ملون ومبهج بوصفها فضاءات، أمكنة نظيفة، مشاهد عائلية، أقاليم، بيئات منوعة.

وكنت من جهة أخرى متشبعاً بأسطورة المغامرة السياحية، والمطاردة اليومية والتحطم والأسر في حكايات سفر الغربيين، والروايات الاستعمارية، ومذكرات الأدباء والسياح، وهي الإطلالة الأوربية الزائدة، والملونة للشرق وسكانه، وأمكنته، ورسم خريطته في إطار سياحي صرف.

المغرب المحلومة والمتخيلة

لقد أحببنا المغرب ذلك اليوم أكثر..لقد سمعناها عبر الريكوردر دون أن نفهم كلمة واحدة من اللهجة العربية المغربية التي لا يمكن أن يفهمها حتى الجنِ الأزرق، ورقصنا على موسيقاها التي تدور على وتيرة واحدة والتي تتداخل على نحو مدهش مع الفوضى والصخب..ورأيناها في الكاتلوغ وقد أقصت من فضائها كل ما يعكر المزاج السياحي الرقيق.. والمفاجأة الكبرى حين قدم لي عباس طاجين الباذنجان على الطريقة المغربية والمملوء بالشطة والفلفل.

«كيف صنعته..؟».

«على كتاب الطبخ..» ربما بطريقة مضبوطة..وربما بطريقة مقلوبة..

مكتبة الفكر الجديد

ولكننا التهمناه بمرح كامل، كنا نلتهم المغرب في واقع الأمر لا الطاجين ذاته، فنكرع كؤوس الماء مرة بعد مرة لحرارة الشطة التي تشع حمراء قانية من الصحون، وبالرغم من إنني شعرت بأن لساني قد انسلخ من مكانه، إلا إنني لم أنطق بكلمة تذمر واحدة، أولا لأنني لم أتناول أي حساء سوى الفلافل منذ أيام، ومن ثم كان علي أن أتعود..سنأكل هناك الكثير من الشطة والفلفل والتي تجعلك تشعر بالامتلاء أفضل بكثير من هذا الأكل المشرقي البارد...وهكذا أخذنا نتحدث بالمغربية..لقد صنعنا تمثيلية مغربية ونحن غارقان في الضحك، فعباس يجد عملاً محترماً في الدار البيضاء –بعد أن ترسل عيشة الألف دولار ويرحل إلى طنجة ويتزوجها طبعاً- فيترك عيشة في منزلهما الذي اشترياه في طنجة، ويرحل للعمل هناك، فتحبه ابنة صاحب العمل الجديد، جميلة جداً! وثرية جداً! وتغريه على البقاء في الدار البيضاء..كازبلانكا..مغامرات، نساء، مال، وحياة والخ الخ

بعد أشهر تكتب له عيشه رسالة:

«عباس.. هذه مدَّة وأنا ما عارفش أش جاري لي، باغية غير ندوي معَك..» وقد سكر من الضحك فاهتز كرشه مثل الكرة المنفوخة..

لكنها لا تعرف الكتابة بالعربية فتؤجر جيرانهم ليكتب لها الرسالة، فقال وهو يضحك وعيناه تدمعان:

«راني طلبتْ الفقيه ديالنا يكتب لي هذه البريَّة..خاطري مغيِّر بزاف.. حيت انت ما راكش هنا..».

نهض من مكانه لأنه لا يستطيع الإمساك بنفسه من الضحك، وقال على لسان عيشه طبعاً:

«راني قربت نولد، وعَوْتاني ما غَتحْضُرْشْ لزيادة ولدك. ما عرفتش علاش، ولكن هذه المرة قلتْ مصَّابْ كُنْ كنتِ هنا...». ثم غاص في

مكتبة الفكر الجديد

الضحك حتى سقط على الأرض..آخر جملة قالها وهو يرفس من الضحك على السجادة:

«علاش عباس ما تزاوكش فالباطرون ديالك بَاشْ يعطيك شويَّة دْالوقت وتجي تشوفنا؟».

خطوة إلى طنجة

قلت له: «انهض...السجادة لا توسخ ثيابك..».

في تلك اللحظة صمت..لقد قفزت إلى ذهني صورة السجادة التي أراني إياها وليد...قفزت مضاءة لماعة في ظلمة المساء، قلت في نفسي فكرة عظيمة أن نشتري السجادة ومن ثم نبيعها بثمن يمكّن عباس من السفر إلى المغرب، ومن ثم أحلق أنا وراءه. قلت له: «عباس هنالك صفقة..شوفني إياها وليد..إذا نجحت..ستكون أنت بعد أسبوع مع عيشه..وبعد شهر أنا معكم في طنجة...».

فغر فمه..ونهض ببطء بعينين مندهشتين..من الأرض، وقال بصوت متهدج: «شلون..».

وشرحت له الأمر، شرحت أمر السجادة التي شوفني إياها وليد، وقلت له عن ثمنها وعن ثمن بيعها في السوق، فسألني ومن يقول أن ما قاله وليد هو صحيح، قلت له يمكننا بطبيعة الأمر أن نتحقق من هذا الأمر ببساطة، نأخذها إلى مثمن سجاد، ونعرف سعرها الحقيقي، نساوم وبعد ذلك نبيعها..

«هكذا..ببساطة..».

«أبسط منها..ماكو..»

«الفلوس منين..خمسمئة دولار..منين»

مكتبة الفكر الجديد

«فكر..».

نهض من مكانه فتح أزرار قميصه بعد أن شعر بالحرارة وتناول كلاص الماء وشربه كله، قال:

«بماذا أفكر..لا أملك سوى ستين دولار..». كان هذا المبلغ نسبة لي ثروة.

لوى فمه علامة على عدم الرضا، كنت أفكر بداخلي بشيء آخر، بطبيعة الأمر، ولم أستطع في تلك اللحظة أن أصارحه به، ولكني قلته له بطريقة غير مباشرة:

«ألا يوجد لديك شيء تبيعه بخمسمئة دولار وتشتري السجادة..»

قال: «ها..هسه فهمت..البارحة جاءني وليد ومعه صاحبة الصيدلية عرضت علي خمسمئة دولار لشراء المحل..».

في واقع الأمر، اضطربت حين سمعت منه هذه الحكاية، فأنا لا أعرف إن وليد قد خطا خطوة عملية باتجاه بيع عباس المحل، ومع ذلك أردت أن أحذف كل ما من شأنه أن يدفعني للتفكير بنوايا وليد، طالما أن الموضوع يصب في النهاية بمصلحتي...

«أفهم من كلامك أنت ما تريد السفر للمغرب..».

«أنا ما أبيع المحل..».

لقد انفجرت في وجهه غضباً: «شوف عباس..إذا ما بعت المحل.. ستبقى هنا للأبد..وعيشة ستتزوج سي بن حدو..أو سي بن هدو..أو طرطران بن طرطري-ملمحا لطرطران دو تارسكون التي كتبها دوديه- أو أي واحد من هؤلاء المغاربة المشردين في طنجة ومكناس والدار البيضا.. وأنت ستتعفن هنا في محلك الحقير هذا..زين؟..».

مكتبة الفكر الجديد

قال بشكل قاطع وحاسم: «زين..».

لم يرف له جفن واحد، سوى أنه اضطجع بعجزه السمين على الأريكة وأدار وجهه عني.

ثم خففت لهجتي الحادة معه وقلت له بشيء من التوسل: «أنت لو تفكر بمردود زواجك من عيشه كان ما ترددت في بيع المحل..بعه يا أخي بخمسمئة واشتري السجادة من وليد..ثم نبيعها بألف..إذا أردت أن تسافر فسافر..وإذا ما تريد تسافر..فأنت ربحت خمسمئة دولار..ما خسران شي..».

قال: «انت مجنون..أكو واحد يبيع محل ويشتري سجادة؟!..».

«أخي..أنت ما تريد تسافر..تريد تبقى هنا مع ساعاتك القذرة و..». وسكت، وكانت لدي رغبة أن أقول..ومع أمك القحبة..وأختك...ووو.

«أنا حزين من أجلك..والله من أجلك..إذا كنت تفكر بأني متحمس حتى انت تدعوني وترتب أموري هناك إنت غلطان..كل ما أسويه هو من أجلك..».

كذبت عليه طبعاً، كانت فكرة أن أسافر وأخلص من هذا الوضع الضاغط في العراق كاسحة نسبة لي، ولم أعد احتمل فكرة أن أتعفن في بغداد التي عفنها التجار، واللصوص، والشرطة المرتشون، والنشالون، والسياسيون الفاسدون، ووو.

أخذت أتوسل به:

«جرب.. استفسر عن ثمن السجادة.. وبعد أن تتأكد..نفذ..».

قال: «طيب..نستفسر ونتأكد ثم ننفذ..».

بســاط الريح

لقد فرحت كثيراً في تلك اللحظة، شعرت بأننا اقتربنا بخطوة من

مكتبة الفكر الجديد

طنجة، فالرسائل البطيئة والانتظار كادت أن تفقدني أعصابي، ولكن الأمر مختلف، هنالك خطوة عملية يمكن أن تقربنا من شواطئ طنجة، وفرح هو كثيراً أيضاً، التمعت عيناه، «سجادة..» قال وكأنه يجربها بلسانه، ثم قال: «بساط الريح..» وأشار بيده علامة على إننا سنصعد على السجادة ونطير إلى طنجة. وسكر من الضحك.

لقد خلقنا نوعاً من الضوضاء على مائدة الطعام، وكسر الهدوء الحزين الذي عشناه قبل قليل طقات الملاعق على الصحون، الكلام بصوت عال والضحكات العالية، ثم مسحنا الشطة المتبقية في الطناجر بالخبز، التهمنا ما تبقى من الشطة في الماعون ونحن نكرع وراءها أقداح الماء، وأخذنا نتحدث متصنعين الخبرة عن مزايا المغربيات الجنسية والسايكولوجية..

عباس، غادره الخجل كلياً، وحل محله الشعور بالثقة الكاملة، لا بل بالبطولات الجنسية، الصورة التي لا يمكن لأحد أن يكتسبها إلا بعد الكثير من المرارات واللكمات، ومع ذلك قد بدا ذلك اليوم بمزايا لا تقدر بثمن.. فإن كان قد انحرم بسبب الخجل، فلم أسلم أنا من صاعقة العائلة المداهمة، ولم أكن الوحيد من جيلي الذي حرمته رعاية العائلة من الفوضى الجنسية، واللعب الخطر، والسكر والعربدة ومرحلة الشقاوات الرجولية.

وإن كنا نتحدث عن الجنس في مراهقتنا، فكلنا كنا نكذب في ذلك بشكل مؤكد، ولم نكن نملك أية فرصة لممارسته، وربما كانت بعض الفتيات في سننا قد حصلن على فرص أحسن، ربما صادف أن خرجت إحداهن من المدرسة، وقد وضعت ملابس أخرى في حقيبتها، أو شدت شعرها ذيل حصان، أو رفعت تنورتها إلى بطنها لتظهر ساقيها، أو طلت أظافرها بالمانيكير، أو مسحت شفاهها بالروج، أو صعدت في سيارة صديقها، وقد استسلمت لقبلاته، أو عصر لها نهدها، أو جلست معه في اللاين الأخير من السينما، وربما جلست وسط الظلام في حضنه، وشعرت بانتصابه

مكتبة الفكر الجديد

دون أن ترده.. ولكن أكثرنا بطبيعة الأمر لم نفعل ذلك.. وكنا نشكو من الرعاية الاجتماعية القاسية، مع ذلك كنا نتحدث عن ملذات بهية وهائلة لم نشهدها حقيقة إنما رأيناها في المجلات الخلاعية فقط!!!.

فنطازيا وجنون

طبعاً كان الأمر مثل مزحة، ولكن يبدو أن التجارة في بغداد أقرب إلى الجنون والمزاح منه إلى شيء عاقل وجدي، لقد استعادت بغداد وجودها مرة أخرى من ألف ليلة وليلة، فكل ما هو فنطازي لا يمكن أن يتحقق أصبح واقعاً فعلياً، مثلما كانت طاقية الإخفاء وخاتم سليمان والجنيات تقلب حياة الناس من حال إلى حال، كانت أحوال الناس تتقلب من حال إلى حال، قال لي وليد عن تجربة طبعا أن هؤلاء التجار لا يفعلون شيئا مطلقاً، فهم إما يعتمدون على علاقات مع المسؤولين الحكوميين، أو يشترون بثمن ويبيعون بثمن آخر وتتراكم الأموال، قال لي وليد إنهم يجلسون في مكاناتهم، لا يحكون ذقونهم، ولا يديرون رؤوسهم، ولا يستخدمون عقولهم..كان يقول الحقيقة، فكنت أعجب كيف أصبح الأميون، والمكارية، وباعة البسطات من أصحاب الملايين وأخذوا يزيحون الطبقات القديمة ويحلون محلها.

قلت لعباس:

«لماذا لا نكون مثلهم.. شينقصنا، ليش ما نصير تجار مرة واحدة..»

أو على الأقل هذه المرة ريثما تدبر عيشة أمرنا.

مثمن السجاد

في الصباح كنا الثلاثة عباس ووليد وأنا كل واحد في جهة، وليد ذهب ليتفق مع صاحبة الصيدلية لشراء محل عباس، وأنا ذهبت لعايدة المصلاوية لأقنعها بأمر السجادة كي تدبر لنا من معارفها التجار من يشتريها بألف دولار، كنت أفكر بطبيعة الأمر بخطيبها، برائد الطحان، وعباس ذهب إلى

مكتبة الفكر الجديد

وليد ليتأكد بنفسه من السجادة، واتفقنا بطبيعة الأمر على أخذها في الظهيرة إلى مثمن السجاد في العرصات:

هبطنا من التاكسي وقد حمل عباس السجادة على ظهره، كان الشارع المبلط ذي الأرصفة المزروعة خالياً تقريباً، بين منازل واسعة واجهاتها مكسوة بالحجر وأسوارها عالية، هنالك منزل المثمن الذي جاء بنا إليه وليد، منزل قديم تقريباً بطابقين وشجرة صفصاف في الحديقة، طرقنا الباب ففتحت لنا فتاة بيضاوية الوجه، ترتدي فستاناً عريضاً مهفهفاً، قادتنا من الباب الخارجي إلى الداخل عبر طريق طويل معبد بالبلاطات الملونة، حتى دخلنا الصالة، وهي حجرة كبيرة نوافذها من الزجاج الذي يمتد إلى السقوف وفيها أشياء متنوعة:

لوحات أصلية لفنانين معروفين، كتب قديمة، مخطوطات تراثية إسلامية أصلية، ألبومات لطوابع ثمينة وقديمة، تماثيل ومنحوتات متنوعة، وسجاد بكل أنواعه، وهنالك أشياء أخرى، مثل الخزفيات القديمة، الصناديق المرصعة بالفضة، آلات موسيقية، صور، وكراتين متراكبة فوق بعض، وغرامفونات سود من كل الأنواع.

من خلف الزجاج المؤطر الذي يحجز مكتباً كبيراً عن الصالة خرج لنا رجل برأس أصلع مدور ولحية بيضاء، وكانت عيناه متوقدتين جميلتين، يرتدي بذلة قديمة إلا أنها مكوية وجميلة ونظيفة، فرشنا له السجادة على الأرض، نظر لها، فحص صوفها، قلبها على وجهها، صمت..هز رأسه، تناول كتاباً وقرأ به قليلاً، ثم كتب لنا استشهاداً يؤكد به أصلية السجادة، فسأله وليد عن ثمنها، قال:

«تباع بين الألف والألف ومائتي دولار..»

نظر لنا وليد وقد اشتعلت عيناه فرحاً، عباس كذلك، أنا أيضاً، وسرت

مكتبة الفكر الجديد

عدوى الفرحة إلى مثمن السجاد، غير إني سألته هل تشتريها بهذا الثمن، قال:

«لا.. نحن لا نشتري.. إذا تريد نعرضها لك نبيعها ونأخذ خصم عشرة بالمائة من ثمن المبيع..».

«كم يطول هذا العرض» قال عباس.

«ربما يوم.. ربما شهر..ربما سنة» قال الرجل بثقة كاملة.

حملنا السجادة وخرجنا.

«ماذا نفعل» قال لي عباس.

قلت له جازماً:

«بع محلك أولا... فلا يمكن أن نفوت هذه الصفقة».

صفقة رابحة

لا أعرف بالضبط ما الذي حدث، ولكن ما أعرفه أن عباس في المساء وقع على عقد البيع لصاحبة الصيدلية المجاورة، وقبض وليد الثمن وترك عنده السجادة.

ذهبت لأتعشى عنده مثل كل يوم، حين فتح الباب كان وجهه شاحباً، لقد كان مضطرباً جداً، خائفاً..قلقاً..فأمه لا تعرف بالصفقة، واتفق مع تمارى أن يبقى الأمر سراً بينهما، وكان يخشى وهو محق بطبيعة الأمر من تقلبات الظروف وهذه الأشياء التي لم نكن لا أنا ولا هو ولا أكبر رأس في بغداد يعرف ماهيتها والخيوط التي تتحكم بها.. شيء بسيط يحدث في خليج المكسيك يمكنه أن يقلب الوضع الاقتصادي في بغداد من حال إلى حال، يمكنه أن يجعل صاحب البسطية مليونيراً ويحول أصحاب الملايين إلى شحاذين...حياتنا مثل حياة الأبطال في ألف ليلة وليلة: التقلبات الطفرات والتحولات الفنطازية، كان الناس مثل المسوخ، يتحولون من حال إلى حال وبسرعة مدهشة.

مكتبة الفكر الجديد

الجارية تودد

لكي أخفف على عباس بدأت بالحديث معه، وكما لو أن شهرزاد قد زرقتني تلك اللحظة بمصل فنطازيتها.

«ألا نسافر..» قلت له..»ألا تريد أن تكون مثل السندباد..». وقفزت على المائدة، يمكننا أن ننتعش اليوم بكل حكايات العراف البغدادي، بكل مغامراته، بكل صوره، يمكننا أن نعيش حياة الشرق كما كان يعيشها أجدادنا..حياة الشرق وضربت مثل سكران على المائدة..

لقد تراءت لي تلك اللحظة صور القصور الكبيرة المشيدة على النهر، سراي الباشا، عري حريمه، تراءى لي سوق الرقيق، بيوت البغاء، والقوافل التي تسير في الأسواق، لقد تراءى لي في تلك اللحظة خان التجار وأنا أصغي إلى الروايات التي حوّلت بغداد إلى أرض للمغامرات والمخاطرات المغرية وموطن للحب والانفعالات القوية... ماذا لو كانت عيشة هي الجارية تودد التي تعرف كل شيء، ماذا لو نعيش مرة واحدة ونحن نوظف كل العناصر الخارقة والصور الفنطازية ونرحل..ألم يرحل السندباد البحري إلى الهند والصين، ألسنا مثله؟

ألا يمكننا أن نصنع صوراً وأوصافاً ومغامرات ورحلات تجري أحداثها في عوالم خيالية مليئة بالمخاطر والأهوال؟

ألا يمكننا أن نواجه الحيوانات العجيبة العملاقة، وننتصر على طائر الرخ، وننفلت من جبال المغناطيس، وصخور الذهب والفضة، والخيول الطائرة، وأشجار الجوهر واللؤلؤ، وعبدة النار، وبساط الريح، والفانوس السحري...؟

صفقت بيدي وقفزت إلى الأعلى بينما تمدد عباس على السجادة وأخذ يسحبها كما لو كان يريد أن يطير عليها مثل بساط الريح.. لنذهب مثل السندباد البحري في رحلات ومغامرات عجيبة... سنعاود الأسفار

مكتبة الفكر الجديد

والترحال إلى مناطق نائية سعياً وراء المال والكنوز، وسنعيش كل الروايات الشيقة التي تلهب الخيال، نحن أيضاً أبطال مغامرون، نعرض حياتنا للخطر من أجل استكشاف الحقائق، نعاني مما كان يعانيه السندباد، ونشارك قمر الزمان تقلبات الدنيا، ونرحل على البساط المسحور، ونمتطي طائر الرخ، أو الحصان المجنح، ما به خيالنا..قلت له.. ألا يشبه خيال أجدادنا..؟

ألا نستطيع مثلهم أن نزور الجزر الخيالية، الكهوف العجيبة، العوالم الغريبة، الأراضي المجهولة التي سترسو عليها سفينتنا، وسنبحث عن الماء والزاد على ظهر الحوت التي نبتت عليها الأشجار، وسنهبط مع السمكة إلى الأعماق وتنطبق علينا الأمواج، إنه بحر طنجة بالتأكيد، وهناك سنكتشف الجبال المليئة بالجواهر واللآلئ، والكائنات الغريبة، والحيّات العظيمة العملاقة، والنباتات السحرية... سنعيش عوالم الخوارق والأعاجيب، سنواجه الأعاصير والوحوش والسحرة والكائنات العجيبة، ونعود بأكياس من الجواهر واللآلئ القادمة من الجزر الخيالية.

خيال الليالي

لقد استسلم عباس هو الآخر لخياله، يبدو أن البغداديين مفطورون على خيال الليالي، وحب المغامرات، فقد نفخ كلامي في روحه الحياة، وصار هو أيضاً يستعير الصور والمشاهد والنماذج والرموز، ويخاطبها بأسلوبه الأسطوري والخرافي. لقد استسلم للحلم الشهرزادي المتداخل، وانعقد لسانه وصار هو الآخر مأسوراً للعفاريت والجان وعالم الخوارق. فقد أحب عفريتة هي عيشة، التي ستنتشله وتذهب به إلى السماء، وسيلمس الخاتم الذي كانت بخدمته الأرواح، وسيمتزج الطبيعي بالخارق والواقعي بالعجيب وستكون السجادة المسحورة وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين وطاقية الإخفاء هي وسائلنا للسفر والترحال.

مضى أسبوع كامل تقريباً وأنا كل يوم أقضي المساء مع عباس، أقرأ

مكتبة الفكر الجديد

له الرسائل كلها تقريباً، وكل مرة يطلب مني أن أعيد له فقرة أو فقرتين، وعلى مقربة منا كانت السجادة المسحورة مفروشة.

في الصباح كنت أذهب إلى عايدة التي أجرت اتصالات كثيرة مع معارفها من أجل بيع السجادة، وفي يوم أربعاء، في المساء، جاءني عباس إلى الأستوديو وهو يحمل السجادة، قال إن عايدة مرت عليه قبل ساعتين وقالت إن لها قريباً يهوى شراء السجاد سيتواجد يوم الجمعة صباحاً في شقتها وأعطته العنوان، وهو قريب من الكرادة تقريباً، في البتاوين قرب سينما أطلس، قلنا ابتسم لنا الحظ، وسيسافر عباس إلى طنجة.

في الطريق إلى الشقة

أخذنا سيارة تاكسي وهبطنا أمام سينما أطلس بالضبط، أمام ازدحام الناس وصوت الجرس الذي يرن بصورة متواصلة، ارتطمنا بهذا وذاك ونحن نجتاز العنبر الحديدي، وعربات بيع الفلافل والبيض المسلوق، والبوابة المشبكة الحديد، والصناديق الألمنيومية الكبيرة التي تحمل إعلانات الأفلام وقد أضاءتها المصابيح، فهرولت نحو كشك بيع السجائر، وهو عبارة عن منصة خشبية طويلة خارجة إلى الشارع، وقد صفت عليها علب السجائر من كل الأنواع، اشتريت ثلاث سجائر فرط من ماركة مارلبورو وعدت، على الدكة المدرجة القريبة من السينما شخص يبيع الكتب، أشعل لي السيجارة من شخاطته وأنا أنظر إلى الكتب المرمية على الأرض، كتاب عن جورج أورويل، وروايات محفوظ، ومجموعة كبيرة من الكتب النقدية والأدبية باللغتين العربية والإنكليزية..دون أن تكون لي أية شهية بقراءتها، بل لم تستحوذ كما كانت تستحوذ علي مثل كل مرة فكرة شرائها، بل استبدلتها مباشرة بفكرة السفر، واستحوذت علي أمواج الأطلسي، وفكرة الخلاص، بعيداً هذه المرة عن الأوراق الصفر والأفكار الكبيرة المزلزلة.

سار عباس أمامي وهو يحمل السجادة على ظهره، قلت له أنت تحمل

مكتبة الفكر الجديد

بساط الريح، البساط المسحور الذي سينقلنا إلى طنجة، فانفرجت أسارير وجهه، قلت له ذلك لكي يشعر بارتياح وهو يبذل هذا الجهد، ولأخفف عليه ثقلها.

كنت أنا أيضاً مسرورا جداً وشعرت بفرح في هذا المساء الصافي والصاخب في شارع السعدون، فقد واجهتنا ونحن ننعطف في الزقاق عاملات الخياطة، موظفو المكاتب، عمال المدابغ والمصابغ، والذين يهرولون نحو الباصات المتوقفة هناك، حتى وصلنا شقة عايدة.

شقة عايدة

كانت الشقة في عمارة عتيقة تتكون من ثلاثة طوابق تقع مقابل بناية تجارية، تشغل طوابقها العليا مكاتب محامين، وأطباء، أما الطابق السفلي فكان محلات لباعة ملابس مستعملة، ومحل حلاقة، ومطعم صغير وبقالية.

دخلنا البناية من باب واطئ، صعدنا السلم، فوصلنا إلى الحولية وقد أضاءها مصباح يتدلى من السقف، لم تكن الشقق مرقمة، وكانت أمامنا ثلاثة أبواب، كان الأطفال يهرجون المكان، سألنا لم يعرفها أحد، تفاجئنا، ثم خرج رجل يحمل حقيبة صغيرة من شقته التي تقابلنا وأخذ يغلق الباب بالمفتاح، فسألناه عنها، لم يعرفها، ولكنه قال لنا بشكل غير متأكد أن هذه الشقة كانت خالية وقد استأجرت قبل يومين، ربما هم، ثم انفتح الباب، وخرجت لنا عايدة، فانبعث صوت الراديو المفتوح من الشقة...قالت بابتسامة مائعة:

«ما صار لنا كثير ساكنين بهذا المكان..أهلا..أهلا تفضلوا..».

ذراعان نحيفان، وجه جميل، وقد لفت بمنديل أبيض رأسها، نظرت إلى السجادة التي كان يحملها عباس على ظهره، وابتسمت.

دخلنا الصالة الخالية من الأثاث تقريباً، باستثناء كراس من البلاستيك، مائدة

مكتبة الفكر الجديد

صغيرة عليها مفرش أبيض ومزهريات فارغة، والبلاط الرطب كان عارياً تماماً...

قدمت لنا قريبها، وهو شاب بشعر بني مجعد، وعينين صغيرتين، يعرج قليلاً ويرتدي ملابس جد عادية، قالت إنه خبير بالسجاد، وسيسافر بعد أيام إلى الأردن ومن هناك سيهاجر إلى كندا، فنظرنا إليه بأعجاب وحسد، هذا الأعرج سيصل إلى كندا بقدم واحدة، ونحن بقدمين لا نستطيع الوصول إلى المغرب.

فرش عباس السجادة على الأرض، التفتت عايدة إلى قريبها ووجهها يطفح مرحاً، كانت تقف إلى جانبه بهدوء وهي تداعب خصلات شعرها بأصابعها، كانت نظراتنا تلتقي بود ظاهر، فتتبسم ابتسامات شهوانية:

وجهها المدور، سمرتها الرائقة، نهداها البارزان، وصوتها الناعم شغلني، وأحسست لحظتها بلحمها الحار من وراء قميصها المفتوح.

ابتسمت لي، فتحركت غمازتاها بعذوبة، واحمر وجهها خجلاً..نهض قريبها وفحص السجادة، يبدو أن لديه خبرة من عملية تقليبه للسجادة، وفحص صوفها وحك بعض الأماكن منها، لم يقل أي شيء بشأنها، إلا أنه حاول المساومة أول الأمر، فأصرينا أنا وعباس إصراراً كاملاً على السعر، وقد تحدثنا بشيء من الفوضى عن السجاد التركي والعجمي والبدوي، والصوف الطهراني والقاشاني والكرماني وادعينا بأن لدينا نوع كرماني فيه شيء مزروع على شكل أصص مثل شجرة متدلية من السقف، شجرة تنمو مثل غابة أو أي شيء آخر، ولكن يبدو أن ملاحظاتنا بالرغم من ادعاءاتها كانت مرتبكة، وأخذنا نتصرف مثل التجار، ونقلد سلوكهم بطريقة مفضوحة وفاقدة للأصالة تقريباً، وادعينا إننا بعنا منها الكثير، قال عباس بعنا أكثر من عشر سجادات حتى الآن، فابتسم لنا وقال بتقدير صحيح واحترافية كاملة:

«هذا النوع القديم فرادى ..لا يمكن أن تحصل منه على عشرة..».

مكتبة الفكر الجديد

فأصبح منظر عباس مضحكاً.

وأخيراً، قال: «طيب أشتري السجادة..اتركوها اليوم هنا..وباكر تعالوا اخذوا الفلوس..»

قال عباس: «لا..نجيبها باكر..وناخذ الفلوس».

قال بهدوء وهو يصافحنا: «طيب..موعدنا باكر..» وخرج.

في تلك اللحظة التفتت عايدة نحوي وقالت:

«شيشيلها عليكم باكر.. أبق أنت هنا..واحرسها حتى الصبح عندي في الشقة وبعدين يجي طارق-قريبها- تاخذ منه الفلوس لكم حصتكم ولي حصتي..وكل واحد يمشي بطريقه..».

حكاية الوزير نور الدين

في تلك اللحظة شعرت باستسلام كامل، أية فكرة عظيمة أن أبقى هنا مع عايدة في الشقة، فلا بد أن هذه السجادة الفارسية القاشانية تحمل العفريت في حكاية الوزير نور الدين مع شمس الدين أخيه، الذي يأخذ البطل من البصرة إلى حبيبته في القاهرة ليلاً... وقبل طلوع الفجر يقوم هذا العفريت بمساعدة عفريتة بإعادة البطل الأسطوري الذي قضى ليلة حمراء مع صديقته إلى مكانه.

طبعاً..رفض عباس الفكرة أول الأمر تماماً، ورفع السجادة ووضعها على كتفه، وكأنه يقول لي بشكل غير مباشر إذا تريد أن تبقى فأبقى واحرس عايدة، أما السجادة فأنا الذي أحرسها.

ولكني أصريت، ومانعت، وأفهمته أن عايدة تريد السجادة عندها كي لا نغير رأينا، أو نجد زبوناً آخر، وإنه حمار ولا يفهم بالتجارة، وأفهمته بصورة غير مباشرة أن أكبر حكيم في ألف ليلة وليلة ذلك اليوم لا يمكنه يقنعني

مكتبة الفكر الجديد

بالخروج من هنا، بل أكبر بلدوزر لا يمكنه أن يزحزحني من شقة عايدة... واستسلم لأنه كان متعوداً على قبول قراراتي الفجائية، غير المنتظرة، وأنزل السجادة من على كتفه وهمس بأذني بصوت قلق وخائف:

«ولكن أخاف أن يكون الثمن هو السجادة..».

قلت له:» لا تخاف بس روح..».

خرج عباس، بعد أن فرش السجادة على الأرض وهمس بأذني:

«ما أوصيك دير بالك على السجادة..».

ليلة من ألف ليلة

توهجت عايدة بعد أن خرج عباس، فتحت النافذة أول الأمر فدخلت ضجة الشارع، كانت أضواء المطاعم والمحلات وزعيق الأطفال مختلطة مع بعضها، وأحسست على الفور بنفح الرطوبة والعتمة الهادئة تحت نور المصباح في الصالة، كانت الأرض مبلطة وعارية من غير سجاد، ما عدا سجادة عباس المفروشة، وقد انبعثت من حجرة النوم رائحة حميمية حين دخلت عايدة وأخذت تغير ملابسها.

بعد دقائق خرجت مرتدية روباً شفافاً يكشف عن جسدها الأسمر، وقفت أمامي لتحدثني وقد تخايل كل شيء وراء بياض الروب الضبابي الشفيف الذي لبسته على لحمها العاري، نهداها بدورانهما المكتنز، شعر عانتها الخفيف، وبطنها المدورة السمراء، كاد أن يغمى علي وأنا أنظرها، من أنا هارون الرشيد؟

جذبتني بعنف، وضعت يدها الرخصة العارية على كتفي، واندفعت صوبي فاصطدم صدرها بصدري، نظرت بعيني تماماً، ارتمت علي وأغرقتني بقبلاتها، تنشقت عطرها الخفيف، وأخذت أصابعها تفك أزرار قميصي، ثم جذبتني ودخلنا حجرة النوم، لم تكن حجرة نوم بمعنى حقيقي، دولاب

مكتبة الفكر الجديد

خشبي صغير وضعت فيه ملابسها، سرير حديدي مفروش بصورة مبعثرة، ومرآة على الحائط نشرت قربها ماكياجها وعطرها وأدوات زينتها، أطفأت المصباح، فشعرت بها وسط الظلام ناصعة ومضيئة وغامضة، شعرها الكث مبتل قليلاً، وكان جسدها رطباً وساخناً وعميقاً، طرحتها على السرير وذبنا معاً، تحت خفق الهواء العذب الذي كان ينبعث بخفوت فيهيجنا، بقينا أكثر من ساعتين عاريين على السرير وقد نمت دون أن أشعر بنفسي مطلقاً.

طاقية الإخفاء

في الصباح استيقظت، كان الهواء البارد والرطب ينبعث من النافذة المفتوحة، مختلطاً بصخب الصباح: صوت هورنات السيارات، صراخ باعة البسطات، زعيق الأطفال، وكانت الستارة البيضاء تتماوج بخفة وسط الحجرة، فتحت عيني قليلاً ثم بقيت دقائق هكذا حتى انتبهت إلى نفسي، كانت عايدة قد غادرت الفراش وبقيت الشراشف مكومة على السرير، وشعرت بشيء غريب في اللحظة ذاتها، ذلك أن عطرها وأدوات ماكيجها اختفت من تحت المرآة كلياً، التفت إلى الدولاب كان بابه المفتوح يكشف عن خلائه، بل لم يكن أي شيء في حجرة النوم يدل على عايدة، لا نعالها ولا روبها ولا ملابسها ولا أي شيء آخر، قفزت إلى الصالون مباشرة وأنا أصيح:

«عايدة..عايدة..».

كان التواليت خالياً، المطبخ كذلك، والصالون خال منها ومن السجادة ولا شيء سوى كراسي البلاستيك والطاولة والبلاط العاري من أي شيء، لم أكن بحاجة إلى ذكاء كبير لأدرك أن الذي طار بالسجادة المسحورة هي عايدة لا عباس ولا أنا.

«ماذا أصنع..». كانت لحظة صعبة بحق.

مكتبة الفكر الجديد

ارتديت ملابسي وهبطت على عجل، قررت الذهاب إلى المكتبة ولو على نحو يائس لأني لا أعرف شيئاً آخر أفعله، تحملت بعذاب زحام الناس والسيارات في الضحى، كان باب المكتبة مغلقاً، طلبت من السائق أن يعيدني إلى العمارة، رابطت هناك، كل شوية أروح وأطرق الباب دون فائدة، وقد شربت أكثر من عشرة استكانات شاي من الشايشي في العمارة المقابلة وسألته عن صاحب العمارة، وأرشدني إلى الحارس، غير أن الحارس أنكر أن يكون أحداً استأجرها، ففهمت منه إنه أجرها ليومين مقابل أجرة دون معرفة صاحب العمارة..وتأكدت بأني سقطت بفخ وخديعة مدبرة، فعدت إلى المكتبة..وجدتها مفتوحة، كانت أزادوهي الأرمنية جالسة وبالقرب منها سيدة أخرى تبيع ملابس نسائية في الشارع المقابل للعرصات، جلست قربها وهي تقلب مجلات البوردة، فسألتها عن عايدة، قالت لي إنها أخذت حساب شهرها، وبطلت من العمل.

لقد كانت الأمور واضحة، لقد ارتدت طاقية الإخفاء ورحلت، وما هو غير واضح في ذهني هو ماذا أصنع، وكيف سأشرح الأمر؟ وكيف سأذهب إلى عباس وماذا أقول له؟

اعتراف

في الطريق كان عباس قادماً باتجاهي وقد بدا عليه الاضطراب والقلق والتعب ومن الواضح أنه ذهب إلى الأستوديو عشرات المرات ولم يجدني، فصاح بوجهي بعصبية ويأس:

«هاي وينك.. وين الفلوس..وين السجادة..؟».

كنا واقفين أمام المطعم المقابل للحديقة، وقفنا وجهاً لوجه، فدخلت المطعم راكضاً نحو المغسلة، فتحت الصنبور وغسلت وجهي بالماء البارد،وعباس ورائي وهو يصرخ بعصبية:

مكتبة الفكر الجديد

«لك وين السجادة..».

قلت له بوضوح بأني نهضت الصبح فما لقيت لا السجادة ولا عايدة ولا ملابسها ولم تكن مؤجرة حقيقية، وإنها بطلت من المكتبة..لم يفهم..قال:

«اشتقصد..».

قلت له: «سرقت السجادة..وهربت..».

صرخ بوجهي صرخة هزت الشارع، كانت عيناه تتطاير منهما الشرر وهو يتنفس بعمق، وهجم علي بالبوكسات والجلاليق أسقطني على الأرض ونام فوقي مثل ثور، لم أكن أعرف أن ابن القحبة هذا بهذه القوة، لقد ضربني بكل ما تناولته يده: صحن حمص بطحينة، سلة الزبالة، حذاء أحد العمال، طنجرة قذرة، برميل صغير، كاد أن يخلع المغسلة ويهشمها على رأسي لو لا العمال الذين أوقفوه ووقفوا حاجزاً بيني وبينه، وحين رأيت بأنه لم يقتلني، بل شعرت بأني نجوت، وإن كثرة العمال والزبائن والسابلة الذين تجمعوا وأخذوا يفرقون بيننا سيكون مانعاً من أن يصلني، استخدمت لساني بطلاقة معه، لم أترك شتيمة لم أقذفه بها، قلت له إن أمه قحبة، وأخته قحبة، وإنه نغل، وقلت له إنه متعجب من إني نمت مع عايدة بثمن السجادة فأمه نامت مع المقدم واعطاها البيت، ونامت مع توما وأعطاها المحل، فالمحل جاءه لا من تعبه إنما من خلع كالسون أمه وأخته لقد كنت قاسياً عليه جداً..وقد فقد أعصابه تماما، ولم يتمالك نفسه لأنه لم يكن بإمكانه أن يطالني فأخذ يشتم ويهدد ويتوعد..

إخفاق

عدت إلى الأستوديو منهاراً تقريباً، ارتميت على الأريكة بحزن وكآبة..كان تعبي شديداً، ويداي وقدماي تخلعتا من التعب والضرب، شعرت بتضايق وندم كبير من قسوتي على عباس، ومن خسارتي كل شيء، لقد

مكتبة الفكر الجديد

شعرت بغبائي متجسداً أمامي، فشعرت بيأس قاتل، حاولت أن أكتب صفحة من الرواية لم أستطع، استسلمت إلى صوت الشارع الذي يضج بالأصوات والحركة والناس والصياح والنقار والثرثرة والضحك والمعاكسات التي كانت تحدث بشكل متداخل في الحديقة أو في الشارع قرب المطعم، التفت وقع نظري مباشرة على صورة طنجة المعلقة على الحائط، قلت: «راحت طنجة..». وضربت يداً بيد.

كنت بقيت على هذه الحال أكثر من ساعة وبعد ذلك سمعت طرقات خفيفة على الباب، تجاهلتها أول الأمر وكنت تصورت إنها لباب الجيران، ثم تواصل الطرق، فنهضت متثاقلاً وسط الحجرة شبه المعتمة، فتحت الباب، كانت تمارى واقفة وحقيبتها في يدها، اضطربت لرؤيتها، ثم دعوتها للدخول، فتحت زر المصباح، وجلسنا على الأريكة ذاتها أمام طاولة الكتابة، وضعت ساقاً على ساق، فتحت حقيبتها وأخرجت سيجارة وأشعلتها قبل أن تتكلم.

جلست إلى جانبها ونشقت من جسدها الرائحة المخدرة ونفح جسدها الأنثوي اليقظ، قالت وقد رسمت تعبيراً جميلاً على وجهها:

«انت أخذت السجادة.. ونمت عند هذه البائعة في شقتها..وبعدين.. لا أحد يعرف ما حدث».

لقد أراحتني لأنها دخلت في الموضوع مباشرة، ومن الواضح أن عباس قد بعثها على هذا الأساس.

قلت لها ببساطة واقتضاب شديدين: « نمت وصحيت ما لقيت لا عايدة ولا السجادة..».

كان صوتها يتكسر وهي تتكلم ولكنها لم تجزع من نبرتي غير المكترثة بخراب أخيها، بل قالت مازحة: «نمت وحدك..!».

مكتبة الفكر الجديد

ولكي أحرف الموضوع قليلاً من إيحاءاتها الجنسية شرحت لها كيف إني سألت عليها في كل مكان ولم أجدها، واعترفت لها بأني خدعت، وقلت لها بأني شرحت هذا الأمر لعباس إلا أنه لم يعذرني..قالت لي بأنه من حقه إن لم يعذرني فقد هدمته وضيعته بنزوتي مع عايدة فوافقتها في الحال، واعتذرت منها، وقلت لها بأني مستعد لعمل أي شيء من أجل سفره دون أن أذكر كيف، فبدت أول الأمر غير مكترثة ثم سألتني فيما إذا كنت أملك شيئاً يمكن بيعه بألف دولار لتأمين سفر عباس إلى طنجة غير أني أنكرت ذلك...وقبل مغادرتها قالت إن عباس ذهب لإخبار الشرطة، ولم أفهم بالضبط على من كانت شكواه ولكن في المساء بينما كنت جالساً في الشرفة أقرأ صحيفة قديمة أخذتها في طريقي من آزاد الكردي وأنا في طريقي إلى الشقة، فجأة توقفت سيارة نجدة هبط منها شرطيان بصحبة عباس وتوجهوا إلى باب العمارة، فعرفت أن الأمر أخذ منحى آخر، توجهت مباشرة إلى كومدينو الملابس، ارتديت بنطلوني وقميصي وما أن كنت أشد قيطان حذائي حتى سمعت طرقات الشرطي الخشنة على الباب، فتحت الباب كان الشرطي طويلاً، بشوارب مبعثرة على وجهه، يرتدي ملابس كاكية ويضع شرطتين من الجلد على ذراعه، كان حزامه الجلدي سميكاً يحوط بطنه السمينة المدورة، ومسدسه كان ضخماً ومنتفخاً على خصره الأيسر، ووراءه شرطي آخر نحيف وصغير السن فتح دفتراً، وأخذ يسجل عمري ومهنتي ورقم هويتي.

سألني عن عملي فقلت له مباشرة بأني كاتب ومفكر..فسألني أين أكتب وأين أفكر؟!!.

شعرت بالحرج أول الأمر، ثم أشرت إلى طابعتي وكتبي المبعثرة، قلت له بصوت خفيض: «هنا..» ..قال: «يعني ما كو مؤسسة شركة حكومية؟».

قلت له: «لا..».

فأمر المسجل «اكتب..يعمل..مفكر أهلي!!».

مكتبة الفكر الجديد

وطلب مني أن أشرح له قصة السجادة، فشرحت له كل شيء بصدق لم أزد حرفاً واحداً، وقد وافق عباس على كلامي ورفض أن يتهمني بشيء.

برز موضوعان في هذا الاستجواب البوليسي الذي تعرضت له أول مرة في حياتي، وعجبت كيف تحدثت معي تمارى دون أن تفطن إلى أن صديقها وليد هو طرف أساس في هذه العملية، أما الطرف الثاني الذي نبهت الشرطة أنا عليه، هو رائد الطحان صديق عايدة، وقد هبط هذان الاسمان على الشرطيين من السماء، وقد عرفت منهما تلك اللحظة إنهما سيلقيان القبض على الاثنين، على وليد وعلى رائد الطحان، وليد لأنه من جاء أصلا بالسجادة، أما رائد الطحان، خطيب عايدة فلعله يعرف عنها شيئا، لأن آزادوهي أنكرت معرفة أي عنوان لعايدة.

ثم وقعني الشرطيان على السجل، وخرج الجميع من الشقة.

العبقري!

في الصباح كنت استيقظت مبكراً، غير إني لم أغادر الفراش إلا في الساعة التاسعة، وقد فكرت ملياً بكل ما حدث، وكان الشيء الحاسم هو تبدد أوهامي حول طنجة بصورة أكيدة، فقد كان لهذه الحادثة بالرغم من آلامها أثر مشع يضيء ببطء أكيد وبقدرة هائلة أوهامي برمتها، غير إني عزمت بشكل ثابت على العودة لإكمال روايتي، عزمت على الرجوع للكتابة مرة أخرى، وحين غادرت الفراش قفزت في الهواء عالياً، ركضت إلى الحمام، غسلت وجهي بالصابون وفرشت أسناني بقليل من معجون أسنان رخيص وبلا طعم، ومع سحب سلسلة الحمام شعرت بأني رميت إلى البالوعة كل ما حدث، وإن هذه العزيمة التي استيقظت في داخلي هي شهية شرسة للحياة وللحب وللوجود أيضا، شعرت بهذه العزيمة كأنها انبعاث داخلي عظيم لجمالية ولشهوانية يمكن أن تعلن عن نفسها بصراحة على الورق، وشعرت بما هو أعظم: التمجيد الحقيقي لحياة زاهدة

مكتبة الفكر الجديد

أقبل بها بحرية ورضا كاملين، وتمجيد للفن الذي يحررني من الشعور بأني حادث عرضي في الكون، بل يشعرني بأنني روح الماضي كما لو أن الدين هو روح العالم، وهكذا حين نظرت من الشباك إلى بغداد في تلك اللحظة رأيتها كما لو كانت خرائب بابلية قديمة، وكل جزء فيها يجذبني نحو تأمل صامت ومسهب، وأدركت أن في كل حجر من أحجارها هنالك مملكة غامضة وصامتة تجذبني نحوها بشكل مدهش، وعلي أن أعترف إن ما يمنعني من الانهيار، ومن الشعور بالعزلة، ومن الإحساس بالضيق والوحدة، هي هذه التضحيات الدامية التي على العالم أن يدفعها على الورق فدية لعبقريتي غير المعترف بها!

جلست إلى طابعة الأوبتيما، أنزلت فيها ورقة بيضاء ناصعة، ركضت إلى الطباخ فقد فار الشاي، وساح، وأخذ القوري يقرقر تحت النار:

«السكر...»

لم يعد منه الكثير، نصف ملعقة للعبقري كافية بطبيعة الأمر، يتصاعد البخار من الكوب، بخار يتصاعد ويتلوى ويدور مثل مارد، تصرخ به، تناديه، فيدور على نفسه بسرعة ثم يتجسد بين يديك، تطلب منه ما تشتهي، تطلب منه المستحيل، كل شيء ممكن كما كنا قبل ألف عام، ثم تنفتح لك العوالم المغلقة كلها بالمفتاح.

«الإفطار..».

يا معود..بسيطة.. لحسة زبد وقطعة خبز حتى لو يابسة تكفي لواحد عبقري مثلي أليس كذلك؟

أنا أجيب نفسي بكل تواضع: «طبعا..طبعا..».

أنا آخر الكتاب الجنود في العالم، هذه السلالة المبادة: الميل للأوهام، الحنين إلى المحظور، وقدرة فائقة للحماسة.

مكتبة الفكر الجديد

إن ما يجعلني حي هو الإحساس المقدس بالجمال والذي يصل إلى حد الخشوع، التطلع إلى اللامحدود، التلذذ العظيم بالصور القديمة، يا إلهي..قلت في نفسي وضحكت ضحكة قوية مثل قرصان (ولو آني ما شايف قرصان) لكني أدركت إنه يمكنني أن أكون سعيدا وسط هذا التجرد المطلق من كل شيء، بل يمكنني أن أكون سعيدا وباسلا ونبيا هذا الصباح، فالسعادة تأتي أحيانا من التقشف حتى لو عصفت بي الأهواء الجسدية، تأتي من التجرد حتى لو كنت على حافة الدوار المخيف، ولكن ما الذي يجعل الأشياء تأخذ شكلا آخر؟ إنها الكتابة بالتأكيد، هذه القدرة الخارقة التي فكر بها البغدادي قبل مئات الأعوام، القدرة على السعادة عبر الخيال:

ستزدحم حجرتي إذن هذا الصباح بالنساء الجميلات، مثلما كانت تزدحم الحوريات في حجرة البغدادي وهو يسرد الليالي على نفسه أولا ثم على مستمعيه، ستزدحم أوراقي بالمغامرات جميعها، سأتقرصن اليوم على النساء في كل الجزر، وسأعبر الأدغال والمحيطات، وسيغادرني التشكك القاسي والتشاؤم والكره المتطرف للبشر، سيغادرني ضجري المعنوي وإنهاكي الروحي، والجميلات اليوم سيتعرين أمامي على الورق.

وكما كان السارد البغدادي يمسح بجملة واحدة فقر بغداد وتهدمها في ألف ليلة وليلة، ويزيح عن عينيه رقابة هارون الرشيد، وجشع بندر التجار وقمع رئيس الشرطة، كنت أحذف على نحو مستمر أهمية بوش ورعب صدام وتفاهة الأمم المتحدة وقساوة الحصار...الخ.. الخ..الخ.. كنت أقول ماذا أفعل بهؤلاء في مخيلتي..يكفي وجودهم في الواقع كي يتحول هذا الواقع إلى جحيم لا يطاق.. إذن فليذهبوا جميعا إلى الجحيم، سأجعل بطلي يأكل اليوم ما يشتهي، وسيقابل من يحب في حجرة مثل حجرتي، أنا وهو واحد، وسنأكل، هو و أنا بطبيعة الأمر كل ما نشتهي، أو

مكتبة الفكر الجديد

بالأحرى سيأكل هو ما أشتهي، وسنشرب القهوة وندخن سجائر الهاندال، وسنستمتع بين الأزهار بالأجاص والدراق والكرز، وسيكون لديه كما أحب الساعات الراقية والأقلام، وإن وضع على خديه -فكأني وضعت على خدي- العطر الذي أحبه.

ما أن كتبت نصف صفحة أو أكثر بقليل حتى سمعت قرعات متوالية على الباب، صرخت:

«يا إلهي.. من هذا الذي يريد تدمير حياتي ككاتب!»

نهضت مسرعا من مكاني، توجهت نحو الباب، القرعات تتوالى وأنا أصرخ:

«لحظة..إجيت..لحظة..».

وحين فتحت الباب انفجرت تمارى بوجهي بالبكاء.

- «تمارى..؟». تساءلت باستغراب.

وضعت رأسها على كتفي، نهداها المدوران من تحت القميص لامسا صدري، بطنها عند بطني بالضبط، يداها تشابكتا على ظهري وشعرها الأسود الناعم برائحته المخدرة والمهيجة على وجهي، شعرت بسخونة جسدها تنبعث من تحت القماش، شعرت بحرارة انفعالها، بضربات قلبها، وتنشقت الرائحة العذبة المنبعثة من جلدها الطري والنظيف... سرعان ما تنازلت عما قلته وكتبته قبل قليل:

يا إلهي..علي أن أعترف الآن وبصدق إن ما تخلقه أنت هو أعظم بكثير مما نخلقه نحن على الورق، إن أعظم خيال مرسوم على الورق لا يمكنه أن يجسد هذا الإحساس الذي عصف بي تلك اللحظة عصفاً، إن أعظم نص نكتبه عن لحظة انفعال مع المرأة لا يوازن تلك اللحظة ولا يعادلها أبداً، ليس هنالك من شيء على الأرض يكافئ هذا التلامس الحقيقي

مكتبة الفكر الجديد

بين جسدي وجسد تمارى، أعترف الآن وبعد سنوات بأن هذه اللحظة هي لحظة جمال مطلق صنعها شيطان خرج تواً من قبعة الأنوار الماورائية، وكل ماعداه هو خداع، لأن الجسد هنا وحده الذي يملك حقيقته ويؤمن بانتصاره، حقيقة أن أحتك للمرة الأولى بجسد طالما حلمت بلمسه، أو الاقتراب منه، أو تنشقه.

كنت أتمنى أن تدوم هذه اللحظة أطول، غير أنها تركتني وذهبت مباشرة نحو الكرويتة وجلست، يا لعذوبة حركتها وهذا الاقتصاد المذهل في مشيتها، جلستُ إلى جانبها، أزحت الطبلة التي تحمل الطابعة بركبتي، كنت أشتهي أن أدفرها بقدمي وأقلبها، فلا حاجة لي بها طالما حضرت تمارى هنا، هذه الجنية التي انبثقت في غرفتي كما لو كانت جنية قد انبعثت من طبق مسحور.

نظرت نحوي بعينين مغرورقتين بالدمع، وتحدثت لي عما جرى لوليد:

«لقد أخذته الشرطة..».

«لماذا..؟».

«اتهموه بسرقة السجادة..».

«كيف..؟» بدوت مستغرباً، ولكن في الحقيقة كنت فرحاً، وتمنيت في نفسي أن تنتقم الشرطة لي من هذا القندرة، أولاً، ومن ثم تفتح لي الطريق نحو تمارى، ثانياً.

ولكن الأمر كان على نحو مختلف أيضاً، وشرحته لي تمارى على النحو التالي:

ألقت الشرطة القبض -بعد التحقيق معي بطبيعة الأمر-على رائد الطحان الذي أنكر كل علاقة له بعايدة، أو على الأقل بخطبتها، وقال لهم بأنه متزوج ولديه أطفال، أما علاقته بها فعلاقة صداقة وحسب، ومن

مكتبة الفكر الجديد

الواضح أنه بسبب وضعه وعلاقاته وأمواله ونفوذه قد لعب دوراً أساسياً في نتائج هذه القضية، وبعد ذلك ألقت الشرطة القبض على وليد بتهمة سرقة السجادة، فأنكر سرقتها وقال لهم بأنه وسيط في بيعها، أما سارقها الحقيقي فهو رياض صالح، الأديب المزيف والذي يعرفه وليد من مدة، فاصطحبته الشرطة إلى مقهى حسن عجمي في شارع الرشيد حيث يقضي رياض عصرياته في لعب الطاولة وتدخين النارجيلة، غير أنه رآهم من بعيد وهرب في الحال.

جان جينيه العراقي

في الواقع كان وليد وسيطاً في بيع السجادة، وهذه السجادة مسروقة أصلاً من بائع تحفيات يقع متجره في قيصرية بالقرب من سوق الهرج في الميدان، أما سارقها الحقيقي فهو شخصية في غاية الشذوذ الغرابة، جاء إلى مقهى الأدباء في بغداد بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية باسم مستعار هو رياض صالح، وقد كان متأثراً جداً بجان جينيه سلوكاً وكتابةً، وإن كان سلوكه مطابقاً على نحو ما لسلوك جان جينيه في الصعلكة والتشرد فقد كانت كتابته رثة جداً ومهلهلة، فهو يطري الجريمة والشذوذ والسرقة ولكن بأسلوب مغرق بالإسفاف والسذاجة، وما يميزه أنه يفهم الأدب بوصفه نوعاً من الاحتيال واللصوصية والإجرام وتدنيس المحرمات وكسر التابوات وإفزاع المحتشمين ورجال الدين وغيرها من الأشياء الشائعة في تلك الفترة بسبب قراءة سير الأدباء الغربيين مثل بودلير ورامبو وجان جينيه وغيرهم، وحين يأس من أن يكون كاتباً كبيراً، أو على الأقل بمستوى جان جينيه كما كان يأمل، ادعى بأنه ضابط مخابرات وأخذ يبتز الأدباء والكتاب، ثم انكشف أمره، وبانت حقيقته، فقد كان لصاً محترفاً، حشاشاً، نشالاً، وسيطاً في بيع المسروقات، مخبراً لدى الشرطة، وطريقته في السرقة أخذت تتطور شيئاً فشيئاً من سرقة الكتب وبيعها، إلى سرقة أشياء صغيرة

مكتبة الفكر الجديد

من البسطيات، إلى النشل في الازدحامات، إلى السطو على البيوت، أو النصب على المصريين، أو يأخذ العاهرة إلى مكان بعيد ثم يسرق حقيبتها ويهرب بها، أو الادعاء بأنه من المخابرات ويقوم بابتزاز التجار، وأخيراً بدأ بتسليب السياح في الأماكن الأثرية وخداع الصحفيين، وقد سجن بعد حرب الكويت مباشرة لخدعة شهيرة:

كان له صديق مصري اسمه محمد كمال، يعمل في البداية جاكي في الريسز، سباق الخيول في المنصور، ولكن بعد أن أغلق الريسز وصل إلى حافة الجوع، فاتفق يوما هو ورياض على مداهمة شقق العمال المصريين الذين يعملون في العراق ليلاً، والادعاء بأنهما من المخابرات المصرية وأرسلهما الرئيس المصري للاطمئنان على حالة المصريين العاملين في العراق والاطلاع على مشاكلهم وتدوينها، يأتيان لهؤلاء العمال ويقولان لهما بأن الرئيس حسني يسلم عليهم ويريد أن يطمئن على أوضاعهم، ثم يطلبان منهم التبرع للمخابرات المصرية في العراق، فكان هؤلاء العمال المصريون بسطاء جدا وأغلبهم من الصعايدة، يقدمون نصف رواتبهم الشهرية تبرعا لهذين المحتالين، ضنا منهم أنهم يقدمون خدمة للسيد الرئيس، حتى قبضت المخابرات العراقية عليهما وأودعتهما السجن، ثم تم تسفير محمد كمال إلى مصر، وأطلق سراح رياض صالح بعد أو وعد المخابرات بالعمل مخبراً لهم والتجسس على الأدباء والكتاب.

«أين وليد الآن..؟». سألت تمارى متشفياً، وسائلاً الله أن يكون مصيره في السجن جنب المحتالين واللصوص والحرامية، إلا أنها قالت ما هو أسؤ، قالت بطريقة حزينة ومؤلمة بأن وليد أصبح مصيره في الشارع، فلم يعد له مأوى يلتجأ إليه، لأن الشرطة كبسوا شقته وأخذوا فلوسه..وصادروا المخطوطات واللوحات المزيفة..وأخذوا كتبه.. وأخذوا حتى سريره وملابسه.. جردوه من كل شيء..واعتبروها رشوة مقابل أن لا يقدموا أوراقه للحاكم..

مكتبة الفكر الجديد

أما صاحبة العمارة التي أفزعها الضجيج الذي أحدثته سيارات الشرطة، فقد طردته من الشقة..أيضاً، وقالت له أنها لا تريد أن يسكن الأشخاص المشبوهون أو المطلوبون للشرطة أو المتهمون بالسرقة في عمارتها، فهذا يؤثر على سمعتها، كما أن الشرطة التي صادرت كل ممتلكات وليد جعلته على البلاط، فمن أين يدفع الإيجار، وأنى له أن يسير أموره وأوضاعه، فقد كان يعيش على بيع هذه القطع المزيفة والمزورة من لوحات ومخطوطات وقطع أثرية والخ، أما الآن فماذا يعمل؟

«المهم أطلقوا سراحه..». قلت لها.

فسرت تمارى لي الأمر بصورة مختلفة، شرحت لي ما حدث بالتفصيل وبالدقة التي جعلتني لا أخفي فرحي ومسرتي أمامها، وشعرت بأن الشرطة في النهاية قد انتقمت لي منه، غير أنها من بين كل ما قالته لي برز في تلك اللحظة ما هو مرعب في هذا الحديث كله أن الشرطة أصبحت أكثر لصوصية من اللصوص المحترفين، ومن بين كلامها الطويل والتفصيلي لعملية إلقاء القبض على وليد وإرساله إلى مركز الشرطة برزت فصلة جديدة غيرت المشهد برمته، فقد كان إطلاق سراحه بسبب تدخل رائد الطحان.. بسبب نفوذه و معارفه وعلاقاته، استطاع أن يخرج وليد من السجن بكفالة:

«هذا اشدخله ومنين عرفتوه..؟». صرخت متذمراً.

«أثناء التحقيق والله فد إنسان حباب..هو يساعد وليد على الخروج من السجن..ووليد يساعده حتى يسافر إلى لبنان..هو يريد يهاجر إلى لبنان ويفتح مشروع هناك...».

«حتى هذا يريد يلحقنا على الهجرة..هو شناقصه حتى يهاجر..».

لقد تضايقت جدا من هذا الفصل القبيح والزائد عن الحاجة، فلو لا هذا الطحان لسار كل شيء على ما يرام، وخلصت كليا من وليد، وخلا

مكتبة الفكر الجديد

لي الجو مع تمارى..ولكن..وأخذت أسرد لتمارى كل الحكايات والقصص التي قالتها لي يوما عايدة عنه، حول القمح المطحون بالزبالة وذروق الحيوانات، وكيف أن هذا القذر هو المسؤول عن فساد الخبز، غير أنها لم تبال بالأمر، وقالت لي إن عايدة كذابة ومخادعة، ولكني دافعت عن عايدة، وقلت لها بأنها كانت صادقة في كل ما تقول عن هذا الشخص المتوحش والبربري وعميل الحكومة ضد الشعب، (كنا نضع الحكومة جنبا إلى جنب أي شخص نريد تدميره):

«صادقة..مو هي اللي باقت السجادة..مو هي اللي كذبت عليك..».

«فتبلبلت..». كان جوابها مربكاً.

قلت لها: «نعم كانت كذابة في أمر السجادة ولكنها كانت صادقة في أمر خطيبها..»

«ولكنه مو خطيبها وهي بهذا الأمر هم كانت كذابة..».

كان هجومي على الرجل مفضوحاً، غير أن تمارى جاءت لأمر آخر، ولذلك لم تكن لديها أية رغبة في الاستمرار بالحديث عن رائد الطحان وعايدة، إنما غيرت من جلستها قليلاً، أخرجت مرآة من حقيبتها ونظرت إلى نفسها، عدلت مكياجها وشعرها، وبدأت بشرح الأمر الذي جاءت من أجله، وتفسيره بصورة غير مباشرة في البداية، قالت بصوت هادئ تماماً وبنبرة ملكية:

«اسمع..وليد بالشارع..بلا فلوس وبلا شقة..ووضعه النفسي تعبان..يجب أن نقوم من أجله بشيء. لا يمكن أن نتركه هكذا..و..و..و..». وسردت أشياء كثيرة لم أكن مقتنعا بها بالمرة، فقلت لها بصوت واثق وبنبرة قاسية تقريبا، دون أن أتنازل لرقتها وعذوبة صوتها:

«لو يموت قدامي..ما أشفق عليه..».

مكتبة الفكر الجديد

لقد كنت بالفعل حاقداً عليه، وكنت أشعر بأنه خطط ودبر أمر السجادة لمصلحته هو، وهذا الأنانية المفرطة والإيغال بالخداع والحيل هو الذي ضيعنا، ضيع عباس، ضيعني، ضيع عيشة، وضيع طنجة من أيدينا..فلو لا وجوده بيننا لكان أمرنا أفضل بكثير بطبيعة الأمر.

غير أن تمارى، تقربت مني كثيراً، وأخذت تتكلم بنبرة عذبة وهادئة ومغرية وسكسية جداً، وتوسلت بي بطريقة رقيقة، وهي تنظر بعيني الاثنتين مباشرة فجعلتني أذوب، صوتي تحشرج، ولم أستطع أن أنطق كلمة واحدة أمامها..وقالت أن لديها اقتراح:

«ما هو..؟». وكانت واثقة من أنني سأوافق على كل اقتراح ستطرحه علي في تلك اللحظة.

قالت وهي تعبث بأصابعها بخصلة من شعرها تتدلى على كتفها:

«يجيء عندك بالشقة.. إلى أن ندبر له مكان..وأنا سأمر عليكم يومية.. وأطبخ لكم..و..و..» ثم قالت بنبرة واثقة ومباشرة : «شوف أعرف أنت هم وضعك تعبان..واعرف أنت بلا عمل..وموضوع سفرك مع عباس إلى طنجة تأجل في الوقت الحاضر..وهذا العرض مناسب لك..ستحصل على ثلاث وجبات في اليوم».

طبعاً وافقت ولكن بعد أن أطلت النظر إلى عينيها وجسدها وساقيها الملمومتين أمامي، كنت أفتعل ترددي كي تتوسل أكثر، وقد ضربتني براحة يدها بنعومة على كتفي، وأخذت تداعبني وتمازحني، وأردت تقبيلها في الواقع ولكنها مانعت بصورة مهذبة جداً، ودفعتني برقة دون أن تزعجني، وأشعرتني ذلك اليوم رغماً عني بأني تقربت منها كثيرا، أو بالأحرى أشعرتني بأنها اقتربت مني كثيراً، أقصد اقتربت من قلبي، وشعرت في تلك اللحظة بأننا منسجمان جداً ومتفاهمان، وفضلاً عن إنني سأحصل على ثلاث

مكتبة الفكر الجديد

وجبات يومياً وهو أمر كان نسبة لي ترفاً، لأني في أفضل الحالات كنت أتناول وجبة ونصف في اليوم، وأحياناً ثلاث وجبات منقوصة، أقصد بها وجبات على النصف ولم تكن كاملة، فإني سأحصل عليها، فوجودها معي في الأستوديو ضروري جداً، لأنها ستتعرف علي جيداً، وسأتعرف عليها بطبيعة الأمر، وسأصارحها بأني كنت مجنوناً بها في مراهقتي، وبأني أحلم بصداقتها والتعرف عليها، وسوف نتقارب كثيراً فيما بيننا، تقترب مني خطوة وأقترب منها خطوة، ثم تضيق المسافة بيننا شيئاً فشيئاً، حتى تنعدم كلياً، وسنلتصق ببعضنا، ولن نفترق أبداً، أو ربما ستأتي يوما إلى الأستوديو، أنا هناك، ووليد قد خرج قبل قليل، تسألني عنه، أقول لها بأنه سيعود بعد ساعات، فتدخل، وبينما نحن مقتربان جداً، سنشعر بأن ملابسنا تعيقنا، نخلع ملابسنا، نلتصق ببعضنا، تتماسك ونتمازج بكل أعضائنا، أدخل بها، وتدخل بي، نقبض على بعضنا نرتجف وبعد ذلك ننطرح متعرقين على الفراش.

في غضون ثوان حلمت أحلاماً عديدة، وسيطرت علي خيالات أو فانطازمات جنسية متنوعة، وفكرت بأفكار غريبة مختلفة، ولكني في الواقع شعرت بأني أحبها، أحبها جدا، وقلت في نفسي وأنا في غاية الفرح والسعادة فلتذهب عيشة إلى الجحيم، فلتذهب طنجة إلى الجحيم، طز بعباس طز بوليد طز بالجميع، وقلت لها بأني موافق، موافق جداً، بل أتوسل بها كي يأتي وليد ويسكن معي، لأن وليد الذي سيسكن معي سيمكنني من أن أسكن معها بطبيعة الأمر، سيكون وليد في النهاية معبراً، سيكون واسطة ووسيلة، وأية وسيلة، وسيلة سهلة، فأنا لن أخسر شيئا في النهاية، إنما بالعكس كل الأمور ستكون ميسرة نسبة لي وطبيعية وسهلة جدا، وتكون الأشياء في متناول يدي، وبعد أيام ربما..وليس شهوراً سأقول لوليد:

«يلّه أمشي بره..».

مكتبة الفكر الجديد

وربما هي التي ستطرده، تدفعه من كتفه أمامها، وتزحلقه بسرعة من الباب، تقول له بأنها هنا في أستوديو صديقها، وعليه أن يعلم بأنها استغنت عنه نهائياً، وعليه أن يغادر، عليه أن يختفي كلياً من حياتها:

«..يله اشطح..». تقول له، وتضرب الباب بقوة وراءه.

وأنا منذ ذلك اليوم سأكون سعيداً جداً، ومحبوباً جداً، بل سأصبح الكاتب الرائع الذي طالما حلمت أن أكونه، كاتب وشلون كاتب، كاتب جالس في الأستوديو وبالقرب مني تمارى تنظر نحوي بنظراتها السكسية المحرضة، وهي ممدة نصف عارية على الفراش وتقول بصوت ناعم مخدر وجريء:

«أحبك..».

وأنا وين أكو أروع مني تلك اللحظة، سأرتعش من الذهول، وأشعر بنفسي كبيراً، كبيراً جداً كما لو كنت عمارة بتسعة طوابق، ثم سأبذل كل جهدي منذ ذلك الحين و أكتب الرواية التي كنت أفكر بكتابتها منذ زمن بعيد، سأكتبها بينما تمارى تجلس على مقربة شديدة مني:

بالصيف تنطرح بالبكيني أمامي على الفراش وهي تقرأ الجريدة، ودخان سيجارتها يتصاعد ببطء في المنفضة الموضوعة على مقربة منها، وفي الشتاء تجلس أمام المدفأة، أو على الكرسي وقد تلفلفت بالبطانية وهي تقرأ أحد فصول روايتي، بينما أنا جالس على الدوام أمام طابعتي الأوبتيما القديمة والتي تشبه الطابعات المستخدمة في أفلام الحرب العالمية الثانية وأكتب تاك.. تاك.. تاك.. وها هي الرواية العظيمة التي تقلب الدنيا من فوق إلى تحت.

خرجت تمارى سعيدة، وأنا أيضا كنت سعيداً جداً، وبعد نصف ساعة دخل وليد شقتي.

خطأ

الله وحده يعرف أي خطأ ارتكبت ذلك اليوم حينما سمحت لهذا

مكتبة الفكر الجديد

المحتال أن يدخل شقتي، لقد ارتكبت خطئاً جنونياً، لن أغفره لنفسي أبداً، فبعد أقل من ساعة شعرت بشكل لا يقبل الجدل، بأني تورطت بشخص مجنون، غريب الأطوار، محتال، طفيلي، من الصعب إزاحته، ومن الصعب تحمله أيضا، ومن الصعب التفاهم معه.

فبعد أن دخل جلس في البدء قريبا مني وحدثني بكلام مقتضب لم يذكر به أمر السجادة مطلقاً، كل ما قاله لي هو أن تمارى تفاهمت معي حول مشاركته لي في الأستوديو ريثما يجد له شقة، وبأني سأتناول ثلاث وجبات على حسابه! قلت له على حساب تمارى، قال لا فرق بينهما، غير إني في داخلي قد سخرت منه، وقلت إنه لا يعرف بأننا أنا و تمارى سنكون واحداً، لا فرق بيننا، لا، لا فرق بينه وبينها، لقد منحته نظرة متهكمة وعدت للكتابة.

أجال بنظره في الأستوديو وكأنه يراه للمرة الأولى وبطريقة مزدرية، ثم نهض من مكانه بهدوء وذهب إلى الحمام بعد أن استخرج صابونة جديدة كنت وضعتها في كيس في الكومدينو قد ادخرتها للأيام السود، واستحم بها، وحين خرج فتح الكومدينو وأخرج قنينة عطري ووضع منها على خديه بكرم لم أفعله أنا مطلقا بعد أن فركها بيديه، بعد ذلك ارتدى بجامتي النظيفة والمكوية بعد أن أخرجها من الحقيبة، وهي جديدة فأنا لم أرتدها مطلقا بل كنت أنام على الدوام ببنطلون الجينز..وكنت حسبت في تفكيري حين سكنت هنا بأن صديقة ما ستبات يوما معي في الأستوديو، وربما فكرت بتمارى بطريقة ما، وبعد أن أستحم سأرتدي البيجاما الجديدة التي جاءتني هدية من صديق اشتراها من محلات ماركس آند سبنسر في لندن، وسترى أناقتي حتى في البيجاما، أناقة الكتاب العظام مثلي!.

ثم تمدد وليد على فراشي بعد أن استبدل الشراشف القديمة بالشراشف النظيفة والمكوية التي أخرجها من حقيبتي أيضاً، واكتشفت بعد ربع ساعة إنه ارتدى كالسوني الجديد وفانيلتي!!.

مكتبة الفكر الجديد

لقد صعد الدم في رأسي، رفعت قبضتي في السماء وقلت في نفسي يا إلهي..يا إلهي.. وقررت في نفسي طبعا بأني سأنتقم منه، وتوعدته- بيني وبين نفسي طبعا- وقلت بأن علاقتي المفترضة، أو المؤجلة، أو علاقة الحب المستقبلية، بيني وبين تمارى، والتي سيعرف اليوم طرفاً منها كفيلة بأن تخرسه وتقطع لسانه، وتضع حداً لتصرفاته السخيفة، بل سأفهمه بطريقة ما بأننا أنا وتمارى كذلك متقاربان من بعضنا، وسأفهمه بطريقة غير مباشرة بأن عليه أن لا يتمادى كثيراً، فأنا لست قليل الشر، وسيعرف بطريقة أو بأخرى بأن عليه أن يدفع الثمن.

إحباط

عند الظهر، جاءت تمارى ومعها كيس فيه سندويشات للباذنجان المشوي والذي كان يسميه العراقيون وحش الطاوة لأنها الأكلة الوحيدة المتوفرة أيام الحصار، معمولة في المنزل مع شرائح قليلة من الطماطم، وقد كنت جائعاً جدا، غير أن الأمر فيه شيء من الصلافة الحادة، وقد شعرت بإحباط كبير لم أكن أتوقعه أبداً، فقد قدمت لي تمارى ساندويشين دون أن تنظر نحوي، وضعت الساندويشين قربي على طاولة الكتابة وذهبت لتجلس مع وليد بطريقة مثيرة، وأخذا يأكلان ويتكلمان معا بصوت خفيض ويكركران، فلم يكلماني مطلقاً، مرت أكثر من ساعة ولم يكلماني أبداً ولم يشركاني بأي حديث من أحاديثهما، بينما أنا كنت أتظاهر بأني منشغل بالكتابة وأضرب على الطابعة ولكني في الواقع لم أكتب شيئاً ذا أهمية، وكنت أتلصص عليهما واسترق النظر من فترة إلى أخرى، وأرهف السمع لألتقط جملاً وكلمات وأفسرها على هواي، شعرت بحزن شديد، وثقل في صدري كبس على نفسي، ولم أنقطع من التفكير بهما والتفكير بنفسي، بعد ذلك شعرت بثقل وجودي عليهما، وشعرت بالإحراج، لأنهما كانا يتغازلان ثم ينظران نحوي ويتوقفان، لقد أصبحت ضيفاً ثقيلاً عليهما

مكتبة الفكر الجديد

وليسا هما في المكان الذي أملكه أنا، فأردت التفكير والاختلاء بنفسي، فقررت الخروج والتنزه في شارع الكرادة، ولكي أفهمهما بأنهما هنا في مكان أنا أملكه لا هما، قلت لهما بأني خارج الآن وسأعود عصراً، وبإمكانهما أن يأخذا راحتهما ولا ينحرجا مطلقاً فكأنهما في بيتهما، قالا لي لا تهتم إنهما بالفعل في بيتهما، ورافقتني تمارى إلى الباب، وما أن فتحته حتى رأيت المفاجأة أمامي، كان رائد الطحان يطرق باب الشقة التي تقابلنا ويسألهما عن وليد وأخته.

صاحت به تمارى واستقبلته وقالت له أن أخاها في الداخل.. قلت يا إلهي ماذا أفعل، لقد أفهم المحتالان هذا الشخص بأنهما أخوان، وعرفت لحظتها بأني قد ارتكبت خطئاً لا يمكنني أن أغفره لنفسي مطلقاً.

سرت في شارع الكرادة وقد اشتعل بدني برمته، كانت سورات الغضب تجتاحني وتجعلني أسير في الشارع مسرعاً، سرت مندفعاً في الطريق دون أن أنظر أحداً، حتى شعرت بالتعب بعد ساعة أو ساعتين تقريباً من المسير وأنا أقلب الأمر من جميع جوانبه، توقفت عند شجرة صفصاف كبيرة تقع قبالة صيدلية صغيرة ودكان لبيع الأثاث وجلست هناك، نظرت إلى الشارع وكأني لا أرى أحداً، وتخيلت المشهد الذي سأقوم به حالما أعود إلى الأستوديو، سأقول لوليد بأنه تجاوز خط الاستواء وعليه أن يرحل، طبعا ستكون تمارى قد غادرت لأني أخجل أن أفعل أي شيء غير لائق بوجودها:

أولا: أفتح الباب وأتركه ورائي مفتوحاً، أذهب لوليد مباشرة، أمسكه من زيق البيجاما، (أغير المشهد لئلا تنشق البيجاما أو يحدث لها مكروه) أضع يدي على عنقه مباشرة، وأقول له على الطريقة اللبنانية يا عكروت ابن العكروت اخلع البيجاما أولا واخلع فانيلتي ولباسي ونعالي وشوف لك مكان هذا مو مكان القنادر مثلك، وأجرده من الملابس بالقوة، وبوكس أو بوكسين سيكون هو خارج الشقة، وسأتنفس الصعداء وأرتاح.

مكتبة الفكر الجديد

لكن هذا مو حل طبعا.

طيب قلت في نفسي لأغير المشهد:

«شوف وليد نحن أصدقاء نعم..أنا لا أنكر أي شيء من هذا..ولكن أرجوك عليك أن تغادر الشقة فأنا لا أطيقك ولا أطيق وجودك..هنا».

انهض من المكان أذهب إلى الباب مباشرة أفتحه بينما هو سيخلع بيجامتي ويعيدها إلى الحقيبة ويرتدي ملابسه ويرحل.. يلّه بي باي مع السلامة.

والأكل كيف سأدبره.

طبعاً الشيء الذي كنت أتمناه هو أن تأتي تمارى وتفتح الباب لوليد وتقول له مع السلامة، وتضع الساندويشات على الطاولة ونبدأ بالأكل أنا وهي ونكركر ونضحك، وإذا كان من الممكن أن يبقى وليد لأنه خطية بدون مكان يبات فيه، فعليه أن يجلس بمكاني على الطاولة ويتكتك على الطابعة.. تاك.. تاك.. تاك.. بينما نتحدث أنا وتمارى ونكركر دون أن نشركه معنا.

كل هذا لن يحدث..حملت نفسي وذهبت إلى الأستوديو بسرعة دون أن يكون في ذهني أية فكرة لأطرحها على وليد.

تفصيل

دخلت الأستوديو، كان وليد على المغسلة يغسل وجهه بصابونتي ويستعد للخروج مع رائد الطحان بينما لم تكن تمارى هناك ومن الواضح أنها غادرت قبل قليل، وقد سلمت على رائد الطحان من وراء أنفي مع أن الرجل كان ودوداً جدا معي، وحين التفت وليد نحوي قال لي بطريقة ساخرة، بأنه يستخدم صابونتي مع أن رائحتها رديئة..وسألني إن كان عندي غيرها أفضل من هذا النوع الرخيص، فكدت في تلك اللحظة أبصق في وجهه، وأقول له: انت رخيص ابن الرخيص، هذه صابونة إيف سان لوران فرنسية يا حيوان..ولكني تمالكت نفسي.

مكتبة الفكر الجديد

بعد منتصف الليل عاد وليد سكراناً جدا، دخل وهو يترنح بصورة مفضوحة، لم يكن قادراً على ضبط حركاته أو ثقل لسانه أو تعابير وجهه، وأخذ يشتم برائد ويسخر منه، ويسخر من غبائه ومن ثرائه ومن لهجته الفظة، ويحاول أن يقلده أمامي، ويقلد حركاته وسمنته وكرشه، وطريقة أكله وطريقة شربه للكحول، وقد عرفت منه أنه ذهب معه إلى الملهى وقد تعشى معه وسكر على حسابه، وقد أوصله رائد بسيارته حتى الأستوديو، بينما لم أضحك أنا أو أشاركه سخريته وتقليده وهزئه برائد، فقد كنت غاضبا عليه، وغاضبا على نفسي وأشعر بكآبة شديدة، وكنت أشعر بإحباط غير مسبوق، فقد تبددت أحلامي حول طنجة وتكسرت على أعتاب سجادة وليد، وتبددت أحلامي حول تمارى حين قبلت بوليد أن يسكن معي وتكسرت على أعتاب كرش رائد، وقد ضخم شعوري بالجوع كل هذه الإحباط ذلك أن تمارى لم تأت طبعا ذلك اليوم ولم تجلب لي العشاء كما اتفقنا، وأمضيت المساء وحيدا وحزينا وأنا أتكتك على الطابعة وأغالب قرقرات بطني، وكلما سمعت شخصا يصعد السلم أقفز من مكاني وأتهيأ لفتح الباب متصورا أن تمارى جاءت وجلبت عشائي معها، حتى جاء وليد بعد منتصف الليل وقد كنت جالساً أمام الطابعة وأكتب:

وقف أمامي أول الأمر دون أن يضبط توازنه فقد أخذ يترنح ويتمتم بكلمات شبيهة بالغمغمات فهمت منها أنه كان في الملهى وإنه أغرم بزوزو، الراقصة المصرية..والجميلة..وأشياء بالكاد كنت أفهمها من لسانه المتلوي وعينيه الزائغتين وأقدامه المترنحة، ثم ذهب إلى الفراش وتمدد بأحذيته على شراشفي البيض، النظيفة والمكوية.

هامش

في تلك الأيام مرت حادثتان مهمتان علي أن أذكرهما الآن قبل أن أصل إلى ما هو جوهري في هذه الرواية:

مكتبة الفكر الجديد

الحادثة الأولى

ذهبت مع صديق لي إلى مهرب يقطن في منطقة شعبية في بغداد، وقد قال لي صديقي إن هذا الشخص قد هرب الكثير من الأشخاص الذين يعرفهم إلى أوربا، صحيح غرق منهم الكثيرون بعد أن تحطمت مراكبهم في البحر، ومات عدد أيضا في الثلوج وهم يعبرون الجبال، ولكن هناك من وصل بأمان وحصل على إقامة في أكثر دول أوربا جمالاً، وهم الآن يكتبون في الصحف والمجلات بوصفهم مناضلين سياسيين أو منفيين، يمكنني أن أجرب مثلهم وربما سأنجح.

إن نظرة واحدة لهذا المهرب المجنون تجعلك تهرب، فقد كان بشعاً جداً، وكانت أسنانه الصفراء تشبه أسنان الخيل، وكان يدخن كثيراً، السيجارة بعد السيجارة، ويتظاهر بالذكاء والفطنة والمعرفة، ويطلب مالاً كثيراً بحجة أن المال ليس له إنما للآخرين، وإنه مستعجل فهنالك أكثر من عائلة تريد الهرب ويمكنه أن يعبرني معهم إلى سوريا ثم إلى اللاذقية ثم نصعد بطوف وسط البحر حتى يأتي مركب يقوده مهرب مصري ويأخذنا إلى إيطاليا.

كنت أنظر نحوه وأفكر بالحدود التي علي أن أتجاوزها وحكمها في القانون هو الإعدام، لقد شعرت ذلك اليوم بقوة التشوهات التي خلقتها هذه الوطنية المصنوعة.

«حدود..» قلت في نفسي..، حواجز..خرائط..جمارك..أجهزة ضبط أسعار الصرف..هذا كل ما تبقى من الأوطان.. الوطن لدى حكوماتنا القبلية والمتعصبة هي الحدود، الحدود شيء مقدس، شيء إلهي منزل، كيف يمكنني عبورها؟ حدود صلبة، خرائط مقدسة، جوازات سفر تسهر عليها الشرطة والجيش والحكومات والوزراء والموظفون...نحن نموت..نتعفن في أوطان مثل القبور.. وحدود أشبه بحافات القبور.. وفي الجانب الآخر الكل يريد أن يهرب..الكل يريد أن يتجاوز هذه الحدود..

مكتبة الفكر الجديد

هذا هو زمن الهجرات والخلاص من الدولة التي يسهر عليها العسكر.

الحادثة الثانية

وهو معاودة لقائي بعباس وعودة طنجة إلى المشهد مرة أخرى، كيف:

ظهيرة يوم أربعاء كنت أتسكع في الظل ببطء في شارع الكرادة وحيداً، كان الشارع قد خمد تماما بسبب حرارة الجو وأصبحت السيارات القادمة من ساحة كهرمانة قليلة، سرت في الشارع بهدوء وأنا أدخن آخر نصف سيجارة كنت أطفأتها ووضعتها في جيبي، أمام محلات الأثاث ودكاكين الصاغة في سوق إرخيتة أصبحنا -عباس وأنا- وجها لوجه، ترددت، ارتبكت، ثم سلمت عليه بصوت خفيض جداً يكاد أن لا يكون مسموعاً، مصحوباً بابتسامة خفيفة وهزة رأس، فرد السلام علي مبتسماً، وتصافحنا ووقفنا معا أمام أحد المتاجر، وكان ودوداً جدا معي برأسه المفلطح وكرشه السمين وقد تعرق كثيراً بسب حرارة الطقس، ثم سرنا معاً متجهين إلى الشمال ونحن نتحدث بأشياء مختلفة ومتنوعة وكانت مبتورة بالكاد يتم فيها معنى، ومن جانبي لم أجرؤ بالكلام معه عن عيشة أو طنجة أبداً، ولكن بعد أن وصلنا إلى شارع الأورزدي باك الذي ازدحم بالموظفات الخارجات من عملهن، قال لي ونحن نعبر منطقة عبور المشاة المخططة بخطوط بيضاء نظيفة بأن عيشة أرسلت له رسالة جديدة.

«صحيح..؟» قلت مبتهجاً.

ثم عدنا للحديث عن طنجة وعيشة والسفر والرسائل مرة أخرى، وقد منحنا الشارع بأشجاره واتساعه فرحاً مضاعفاً، سرنا طويلاً، سرنا حتى غابت الشمس وعاد الازدحام مرة أخرى، النساء والرجال والأطفال وزعيق الباعة وشواء المطاعم الذي يتصاعد دخانه من كل مكان، وهورنات السيارات وباعة البسطيات وأصحاب العربات وصفارة شرطي المرور ومنبه سيارة النجدة وولولة الشحاذين الذين يقفون في شارع الكرادة مثل الآلهة القديمة،

مكتبة الفكر الجديد

كل هذه الأشياء حرضتنا أنا وهو لأن نفرح وننسعد، وبدلاً من أن تجذبنا سرّحت خيالنا بصحراء المغرب ومددتنا على رمال شواطئ طنجة، حيث سبحنا لتونا في البحر، ثم عدنا لنجلس تحت المظلة، بينما كانت عيشة وصديقتها –صديقتي المفترضة-تطبخ لنا الكسكسي على الهواء الطلق.

قال لي تعال معي إلى المنزل لنقرأ الرسالة، وذهبنا معاً، دخلنا من الباب الصاج الذي فتحته لنا والدته وأصبحنا مباشرة في الصالة، أنا جلست على الكرسي الذي يقابل شباك الحديقة بينما خف هو أمامي برأسه المفلطح وكرشه وهرول نحو الدولاب، فتح الباب بقوة وتناول الرسالة من هناك، وقف مضطرباً وأخرج الورقة من المظروف بسرعة وعاد إلي ليناولني إياها، ثم توقف أمامي ينتظر بفرح أن أقرأ له مقاطعها، لم أنظر إلى الرسالة، إنما نظرت له مباشرة وقلت له إني بحاجة إلى فنجان قهوة بالهيل وسيجارة أجنبية قبل أن أقرأ أي شيء، هرول نحو المطبخ مسرعاً، بينما بقيت أنا أتطلع إلى الرسالة القصيرة نسبياً وأتسمع لطقطقة الفناجين وركوة القهوة القادمة من المطبخ.

كانت الرسالة تكرر مثل كل مرة اللازمة ذاتها، وتكرر الحدث نفسه، فرأي عيشة إلى الآن لم يتغير، على عباس أن يأتي إلى طنجة وستسير الأمور على نحو صحيح.

هي محقة بالتأكيد، فمن غير المعقول أن ترسل له المبلغ دون ضمانات، من يدري فيما إذا كان نصاباً ولا يأتي؟

ولكن لو عرفت مقدار شوق عباس للرحيل، وشوقي أنا للذهاب هناك إلى طنجة لكانت أرسلت المبلغ دون تردد أو تفكير!!! وبقيت أتساءل في نفسي من قال إنها تملك هذه المبلغ أصلاً؟ المبلغ الذي يبالغ عباس بالتأكيد به.

مكتبة الفكر الجديد

«ألف دولار..أوه...إنه ليس رقماً صغيراً.. ولا يملكه كل شخص في المغرب أو في بغداد..».

في بغداد مثلا..أيام الحصار يمكنك أن تشتري الأستوديو الذي أقطنه أنا بألف دولار.

قلت في نفسي:

«طيب لماذا لا أبيع الأستوديو وأعطيه لعباس ليسافر به وبعد ذلك يرسله لي على شكل دفعات... الدفعة الأولى بطاقة طائرة إلى المغرب... الدفعة ثانية مهر شقيقة عيشة أو صديقتها... الدفعة الثالثة إيجار للشقة الزوجية التي أسكنها... ريثما تبدأ زوجتي بالعمل... أو أنا أجد عملاً هناك... أترجم من الفرنسية مثلا..كيف أترجم من الفرنسية في بلد مثل المغرب..أبيع الماء في حارة السقائين..أترجم عن الإنكليزية...أو أكتب لهم بالعربية..فعربيتهم مدمرة ومهلهلة ولغتهم مقعرة..والخ والخ..» حتى جاء عباس بالقهوة والماء البارد بالصينية التي وضعها على الطبلة أمامي، ثم ناولني السيجارة وأشعلها لي بقداحته الرونسن... شفطت نفساً طويلاً منها حتى شعرت بسعادة كبيرة، فالفضاء المبرد في المنزل.. وقدح الماء المثلج.. ورائحة القهوة بالهيل..ورسالة عيشة.. وخيال طنجة.. ودخان السيجارة الذي هبط إلى عمق رئتي كل هذا جعلني أحلق، أطير، شعرت بخفة وجودي لحظتها ومسرتي وفرحي... لقد أنعشتني هذه الحادثة جداً وجددت رغبتي بالسفر مرة أخرى إلى طنجة، لقد عادت عيشة وطنجة والهجرة إلى الشمال الأفريقي مرة أخرى، شعرت بالأمل وقد عاد من جديد، شعرت بالسعادة الحقيقية وهي تطفر من عيني، شعرت بالغبطة والبهجة وقد حلت علي، وذهب سريعاً الإحباط والشعور بالتعفن وتلاشت مشاعر الانهزام الذي أشعرني بها وليد بعد أن سكن معي في الأستوديو.

مكتبة الفكر الجديد

ثم قرأت له الرسالة وأنا أنفخ دخان السيجارة في الفضاء، وبالغت مثل كل مرة في تصوير الأحداث، حدثته عن أشياء لم تقلها عيشة في رسالتها أبداً، حدثته عن الحب الذي تشعره نحوه، وعن رقة الرسالة التي أرسلها لها (لكي أفهمه بأن وجودي مهم في المشهد ولا يمكنه أن يستغني عني) وحدثته عن أشياء كثيرة ومتنوعة وهو ينظر إلى هذه السطور الخمسة التي لا يمكنها أن تجمع أحداثاً بالسعة التي أصورها له، وطلب مني أن أكتب لها جواباً على رسالتها، وأن أبين لها أنه هو أيضاً يحبها، وطلب مني أن أشرح لها موضوع السجادة، فنظرت نحوه، غير أنه قال لا ضرورة بأن أتحدث عن الأسباب الحقيقية لاختفائها..يقصدني أنا..

كنت قد وضعته في نوع من المأزق الأخلاقي..فهو يريد أن يشرح لها نضاله من أجل السفر والالتحاق بها..ولكنه لا يستطيع بوجودي لإن إخفاقه كان بسببي.. ثم استدركت وقلت له بأنه من غير الضروري ولا المفيد أن نتحدث عن السجادة-كنت أتحدث على الدوام بصيغة الجمع ويتحدث هو بصيغة المفرد- ذلك لأن من شأن هذا الحدث لو عرفت به أن يجعلها تيأس كليا من موضوعنا وربما تتوقف رسائلها أو تفكر بشخص آخر، إن فكرة أن تتوقف عيشة عن إرسال الرسائل أو تفكر بشخص آخر هي فكرة مرعبة ومدمرة له، ففز بوجهي صارخاً:

«لا يمعود.... لا تذكر السجادة مو مشكلة..». ثم قال وكأنه يحدث نفسه: «شلون تتوقف..شلون تفكر بغيري..؟».

التفت نحوي لحظتها، أراد أن يتكلم، تردد، أخيراً سألني بشكل غامض فيما إذا كان وليد وتمارى قد سألاني شيئا حول بيعي للأستوديو، فزعت بوجهه، كانت هذه الفكرة مرعبة ومدمرة لي، وصرخت بوجهه:

«لا يمعود.. شلون أبيع الأستوديو..».

مكتبة الفكر الجديد

إن فكرة أن أبيع الأستوديو، وإن خطرت مرة على بالي، لكنها كانت مرعبة نسبة لي، وإن تذكرت بأن تمارى سألتني مرة فيما إذا كنت أملك شيئاً ثمينا يمكنني أن أبيعه من أجل أن يسافر عباس، أو تعويضه عن السجادة، فقد كنت أنا السبب بضياعها ولكني أزحت هذه الفكرة سريعاً، غير أن عباس ذلك اليوم لم يكن قادراً على إزاحة هذه الفكرة من باله، فتظاهر بالغضب، والانزعاج وأعاد علي نفس الجمل التي ذكرتها له يوم طلبت منه أن يبيع دكانه، قال:

«أفهم من كلامك أنك ما تريد السفر للمغرب..».

«أنا ما أبيع الأستوديو..».

لقد انفجر في وجهي غاضباً: «شوف إذا ما بعت الأستوديو راح نبقى هنا للأبد-تكلم هذه المرة بصيغة الجمع-وعيشة ستتزوج سي بن حدو..أو سي بن هدو.. أو واحد من هؤلاء المغاربة المشردين في طنجة ومكناس والدار البيضا.. وأنت ستتعفن هنا في الأستوديو الحقير هذا..زين؟..».

قلت له بشكل قاطع وحاسم: «زين..».

خفف من لهجته الحادة معي وقال لي بشيء من التوسل: «أنت لو تفكر بمردود زواجي من عيشه كان ما ترددت في بيع الأستوديو..بعه يا أخي بألف وخمسمئة دولار..ألف دولا أسافر بها..وأنت تعيش هنا بالباقي إلى أن أرسل لك بطاقات الطائرة.. وأيسر لك زواجك من واحدة مغربية على المقاس..».

فسألته من أين يعرف أن الأستوديو بألف وخمسمئة دولار، قال:

«وليد قال لي أنه يساوى ألف وخمسمئة دولار..»

قلت : «المحتال..». ثم صمت دون أن أنطق بكلمة، ولكني كنت أشتم بوليد بيني وبين نفسي، ثم قال:

مكتبة الفكر الجديد

«شوف انت ما تثق بي..وكان خليتك تسافر قبلي..ولكن هذا غير معقول..فكل شيء هو بيد عيشة..وعيشة راح تتزوجني..وأنا أبحث لك عن واحدة هناك..».

لم تكن لدي أية رغبة في الحديث بهذا الموضوع، كنت أريد الهرب بسرعة منه، فقلت له بأني أريد كتابة الرسالة الجوابية لعيشة وعلي الذهاب بسرعة إلى الأستوديو.

في الواقع كنت غضبت لأني شعرت بأن وليد طرف في هذا الموضوع، وإنه هو المخطط الفعلي لكل شيء، وشعرت بأن موضوع مصادرة حاجياته وأغراضه من قبل الشرطة كذبة حقيرة، وإن طرده من الشقة من قبل صاحبتها أيضاً عملية مدبرة، وإن سكنه معي في الأستوديو هو جزء من الخطة، ووجود تمارى في الموضوع له أساس، وإن حضور رائد هو جزء من هذا الاحتيال وهذه الخدعة، لقد شعرت بالدوار، يا إلهي هذا الشخص له قدرة فائقة على تمثيل المسرحيات الواقعية، حياته مؤسسة على خريطة يحسب بها كل شيء، كيف يمكن لإنسان أن يحسب كل شيء ويضعه في قوالب وخطط وبروسيجرات وعمليات وخطوات يتبعها، أين العفوية والتصادفية والاعتباطية، والراحة التي نكسبها من المفاجئات غير المتوقعة، شعرت بالدوار توقفت عند بائع الشاي، شربت استكانا وذهبت إلى الأستوديو.

مشهد

الوقت مساء، دخلت الأستوديو.

وليد يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا من الجينز، يقرأ مقاطع من رواية العراب لتمارى بصوت عال ويمسح على صلعته بيده اليمنى، كانت المروحة تدور بصوت في الحجرة، وكانت تمارى ترتدي تنورة طويلة وقميصاً بكم- تغيرت ملابسها بعد علاقتها برائد-وتنطرح على السرير وتعبث أصابعها بخصلات شعرها، سلمت عليهما، وذهبت مباشرة إلى طاولة الكتابة

مكتبة الفكر الجديد

أخذت قلماً وورقة رسائل، وأخذت أقلب الكتب الفرنسية بحثاً عن المقاطع العاطفية لأضمنها في رسالة عباس إلى عيشة.

تفصيل

بعد هذه الحادثة، كل الأشياء كانت على وتيرة واحدة:

مساء كل يوم، يأتي رائد الطحان إلى وليد ليخرجا معاً إلى الملهى.

بعد منتصف الليل يعود وليد يترنح من السكر، وعند عودته يبدأ فصل مسرحي ساخر من رائد، فهو يقلد حركاته وصوته وتعبيرات وجهه ولهجته، كما إنه يعلن بشكل حاقد وعنيف عن اشمئزازه من الطحان الفقير الذي حوله الحصار إلى ثري، ثري جديد يتصف بالتدني والتخلف والشراهة.

كل يوم أذهب إلى عباس في منزله ونتحدث عن طنجة وعيشة.

صباح كل يوم تذهب تمارى إلى رائد الطحان في المطحنة، وقد عرفت من سعيد الشاعر الذي التقيته مرة حينما كنت ماراً من شارع الصيدلية في البولصخانة، بأنهما متزوجان زواجاً عرفياً، وإن وليد قد أقنعه بأنها أخته من غير أب، وإن أمها كانت متزوجة من سياسي لبناني، وهو والد وليد بطبيعة الأمر!!!!

صفقة

طبعاً لم يستطع وليد أن يكتم زواج تمارى من رائد طويلاً عني، كما لم يستطع أن يصمت على موضوع بيع الأستوديو أو يتستر عليه، وفي يوم دخل الأستوديو واتجه نحوي، كنت جالساً أمام طابعتي وأكتب: تاك تاك تاك دون أن أنظر نحوه أو أبدي أي اهتمام بدخوله، ثم أخذ يتخطى أمامي جيئة وذهابا فعرفت بأنه يريد أن يتحدث معي: وقف أمامي كما لو كان قرصاناً يقف على متن مركب، كما لو كان قرصانا لا يؤمن بشيء، لا بأخلاق ولا بقانون، وللمرة الأولى أنظره على نحو مختلف، لقد كان ناعما مثل موظف صغير، لكنه مخادع، جشع وغاو كبير، قال لي وهو يتمشى

مكتبة الفكر الجديد

أمامي: إن كتاب أناشيد مالدورور للوتريامون بترجمة سمير الحاج شاهين هو الذي قلب له حياته...حين قرأ هذا الكتاب أصبح لونه بنفسجياً من الغيرة، وأصابه الهذيان والذهول، لأنه الكتاب الذي أخبره بأن العالم بحاجة إلى صفعة كبيرة، تصفعه.. فينهار العالم ينزف دمه ويقلب معدته..وقال إنه يشعر بأنه هو مؤلف هذا الكتاب.

توقف قليلاً أمام الشباك، نظر إلى الأعلى سحب نفساً من سيجارته، ثم استمر بسرد مسلسل حياته، تحدث لي ذلك اليوم عن كل الحماقات والتجديفات التي ارتكبها كما لو كانت تسليات، فالمجد والغنى لا يأتيان إلا من الخبث والقاذورات وهذه هي فضيلته، فضيلته إنه له القدرة على تفنيد محاسن الأخلاق، ولكنه بحاجة إلى سلطة، فماذا يفعل للتاريخ، لو كان قابل في حياته صدام حسين أو أي دكتاتور آخر كان قد سوى أمر العالم بساعة واحدة، كان جعل الأمة العربية تضحك كلها أو تنتحر بسرعة وتقضي على نفسها، الشيء الوحيد الذي تنظره أمتنا وعيناها جاحظتان بإعجاب ودهشة هو المجرم واللاأخلاقي والمخرب، الشخص الذي يتجاوز الحدود والذي ينتهك القانون، انظر الرؤساء العرب المحبوبون هم المخربون.. قال.. إنهم أبو الهول الذي يفترس الجماهير بقدم ضخمة وكلام راعد، إنهم يفهمون الجماهير إنهم أقوياء عن طريق التعذيب والإعدام فيمتزج لدى الجماهير كل شيء مع بعضه، الحب والفحش والغضب والهذيان، إن الجماهير لا تشعر بانخطاف حقيقي إلا أمام القوة البرية للدكتاتور، تشعر بأن عليه أن يجهضهم طالما حبلوا منه، فهو يغتصبهم بدافع الحب، فيقدمون له المتعة زيادة، ثم تبرز ميولهم الروحانية تحت سيل من برازه.

كل هذه المقدمة الطويلة كانت ليصل إلى موضوع تمارى ورائد، بينما كنت أنا أقاتل على الطابعة تاك تاك تاك دون أن ألتفت إليه أو أجيبه بشيء، فقال لي ربما أنا أحتقره ولكنه لا يبالي باحتقاري، ضحك بصوت

مكتبة الفكر الجديد

عال ومسح على صلعته بيده، قال إن رائد الطحان تزوج زواجاً عرفياً من تمارى دون أن تعرف زوجته الأولى، لو عرفت ستقلب حياته جحيماً، لأن أكثر أملاكه باسمها، قال إنهما هو وتمارى قد اتفقا على ابتزازه فبعد أن يجمعا منه مالاً جيداً سيخبر هو زوجة رائد بالحقيقة وسوف تضطره إلى تطليق تمارى..وهكذا ستتخلص تمارى منه بعد أن تجمع منه مالاً كثيراً ثم يتزوجا.

ثم قال لي وهو ينفخ دخان سيجارته في الفضاء إن رائد يريد شراء الأستوديو بألف وخمسمائة دولار، وسيسجله باسم تمارى، باعتبارها زوجته، وهو بطبيعة الأمر-أي رائد- لا يستطيع السكن معها إنما يأتيها يوم الخميس فقط، وعليه هو -أي وليد- أن يبات معها باعتبارهما أخوة...توقف..نظر نحوي وأطلق ضحكة عالية في الفضاء، وقال:

«نعم أنا وتمارى أخوة باللباس.. على غرار أخوة بالسلاح لآرنست همنغوي».

ثم التفت نحوي وأخذ يتكلم معي بهدوء ليقنعني بجدوى القبول بهذه الصفقة، فمن رأيه، إني إذا بقيت هنا، لا يمكنني أن أحصل على ما أريد مطلقاً، أي لا أستطيع أن أكون الكاتب الذي حلمت على الدوام أن أكونه، فإن أردت أن أكون كاتباً عظيماً علي أن أرحل عن هذا المكان الخرب الذي لا فائدة منه، المكان والفضاء هما اللذان يخلقان الكتّاب بطبيعة الأمر، مقاهي طنجة المطلة على البحر غير مقاهي بغداد، نساء طنجة.. شيء آخر..صخب طنجة لا يعادله صخب على الأرض..أما الطقس فله تأثير كبير على اللذين يكتبون، والبحر هو الآخر له تأثير كبير، قال لي علي أن أفكر كيف أصبح بول بولز كاتباً..بعد وصوله إلى طنجة.. كيف أصبح الطاهر بن جلون كاتباً..بفضل طنجة..طبعاً..وأخذ يعد لي قائمة الروائيين والشعراء الذين غيرت طنجة حياتهم بالكلية، وحولتهم من مغمورين إلى

مكتبة الفكر الجديد

مشهورين، طنجة هذه المدينة الغريبة..طنجة هي أرض البنورة المسحورة، ما أن يطأ الكاتب المغمور أرضها حتى تبدأ بالفوران تحت قدميه، تهتز، تتحرك حركة قلقة، ثم تبدأ أولاً باختباره، وبفحص عبقريته، وستعرف لحظتها مصيره: إن لم يكن يحمل بذرة العبقرية فسوف ينتهي قرصاناً على البحر، أو صياداً للسمك بدلاً من أن يكون صياداً للكلمات، وإن كان عبقرياً فإن كل شيء سيتحول مرة واحدة على يديه، سيتحول كل شيء من معدن خسيس إلى معدن ثمين، طنجة هي الخيمياء التي تحول الكاتب من نحاس إلى ذهب، من نحاس مرمي في الزبالة إلى ذهب يوضع في المصارف والبنوك، ستكون مهما وسيحتفظ بك الناشرون مثل قطعة ثمينة ويدللونك ويعطونك المال..وسيعتبرك الجمهور مثل المحارة السحرية التي تقدم لهم كل مرة درة ثمينة..ثم قال ولنفترض إنك لا تملك العبقرية التي تحتاجها طنجة لتصنع منك كاتباً عظيماً ألا يسحرك أن تكون صياداً للسمك مثل همنغواي...ألا يسحرك أن تكون قرصاناً..أليس أحسن لك من هذه الحياة التافهة والمتعفنة في هذا الأستوديو الرطب في شارع منفي في بغداد؟..

نظر نحوي بصورة ثابتة بعد أن توقفت أنا عن الضرب على الطابعة تاك تاك تا..وقال لي هل تعتقد إن أحداً في العالم في الصين أو في أمريكا أو في روسيا أو في أفريقيا أو في لبنان..أو حتى مصر.. يهتم بما تكتبه وأنت هنا في بغداد المحاصرة..والمنفية..على هذه طابعتك القديمة والمزنجرة وأوراقك العتيقة السمراء..هل تعتقد إن أحداً يفكر بما تقوله أنت..الكتابة بحاجة إلى عالم من الناشرين والمكتبات والمؤتمرات والصحافة والتلفزيون ونحن هنا لا مؤتمرات ولا ناشرين ولا صحافة ولا تلفزيون..الناس تريد أن تأكل..الطحين شحيح..السكر لا وجود له على الإطلاق..اللحم يا إلهي أكثر الأطفال لا يعرفونه لأنهم لم يروه مطلقاً..أنت آكل سندويشات الباذنجان يمكنك أن تكتب شيئا ذا قيمة..والله هذا الأمر يخليني أقهقه..ولو كتبت

مكتبة الفكر الجديد

هذا الشيء العظيم من يهتم به؟

«طنجة طنجة.. قال.. هذه هي الصفقة الرابحة..بع الأستوديو بألف وخمسمائة دولار..عباس يسافر بالألف دولار إلى طنجة، وأنت أجر لك حجرة في فندق قريب ريثما يدبر لك عباس وضعك هناك...».

طنجة..كم كانت هذه الكلمة ساحرة لي.

انطرحت على الكرويتة أمام الطابعة وسرحت بعيداً، حلقت مع اللقالق على شواطئ المدينة البعيدة..كان كل شيء يبعث على السفر والحلم، وإن كنت رافضاً بعمق أن أبيع الأستوديو الذي أورثنياه جدي بمغامرة لا أعرف أين تؤدي بي، فقد أصبحت أشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن حياتي العقيمة لا تساعدني على البقاء هنا مطلقاً، كل شيء في هذه المدينة المحاصرة يبعث على السأم والضجر، وأنا لن أكون الكاتب الذي حلمته.. يا لي من أحمق مسكين أنا الكاتب المغمور الذي حلمت بالصخب وبالنساء وبما لا أدري أيضا..فحياتي عقيمة وطويلة مثل حياة تمساح، وروحي خاوية مثل برميل..ومن بعيد تتراءى لي طنجة الزرقاء وراء بخار من الذهب..من يدري ربما ستنفتح لي أبواب الفردوس هناك.. وسأتخلص كلياً من هذا الخراب المحزن.

في الظهيرة دخل عباس وعايدة إلى الأستوديو وهما يحملان لي سندويشات الباذنجان وبيبسي كولا محلي تشبه رائحته رائحة الأسفنيك وعلبة سجائر سومر، نسبة الخشب المهروس بها أكثر من التبغ وكيساً من القهوة التي لا تشبه القهوة وقليلا من السكر.. وكنت أنظر إلى هذه الأشياء على إنها هدية هابطة من السماء.

جلس الثلاثة أمامي، وقبل أن ينطق أي واحد منهم بكلمة قلت لهم إني موافق على بيع الأستوديو، سأعطي عباس الألف دولار شريطة أن يرسل لي بطاقات طائرة إلى المغرب بعد أن يصل هناك طبعا، ويتزوج من عيشة

مكتبة الفكر الجديد

على أن لا تطول إجراءات زواجه، ويستعجل لي بالأمر قدر إمكانه، أما أنا فسأذهب إلى أي فندق قريب وأستأجر حجرة.

ضحك الثلاثة بغبطة أمامي، نهضوا من أماكنهم ورقصوا وترنحوا، وليد وتمارى اللذان سيمتلكان الأستوديو رقصا وقلبا الكرسي والطاولة بأقدامهما، عباس الذي سيسافر إلى طنجة رقص بكرشه المفلطح ورأسه الذي يشبه البصلة وضحك من كل قلبه، ثم فتح وليد المسجلة التي صدحت بالأغاني وأخذ الجميع يرقص ويترنح حتى شعرنا بالجوع، وضعنا الساندويشات على الطاولة لندللها أولا ودرنا حولها مثلما يدور البدائيون حول النار المقدسة، رقصنا الرقصات الوثنية كلها، سندويشات الباذنجان آلهة..السكر..والقهوة من عطايا الآلهة..وبقينا نتحدث ونضحك ونقهقه حتى ساعة متأخرة من الليل، ونمنا نحن الأربعة في الأستوديو، وفي الصباح انطلقنا في الرحلة الشاقة لإجراءات بيع الأستوديو، وكان رائد الطحان بسيارته معنا، وبعد أقل من أسبوع تقريبا، كان عباس قد دفع ضريبة السفر واستحصل على جوازه، وأنا قد أجرت حجرة صغيرة في الطابق الثالث في فندق سركيس القريب من البولصخانة، وكتبنا رسالة إلى عيشة نخبرها بموعد وصول عباس إلى طنجة واستقباله، وللتأكيد طلبت منها عنوانها المضبوط أيضا، وبعد أقل من شهر تم كل شيء، رسالة عيشة المبتهجة والعنوان السعيد، الجواز الجميل أو جواز الخروج من الجحيم إلى الجنة، وحقائب عباس حيث حشتها والدته له بالكليجة بالتمر، وفي يوم جمعة ذهبنا إلى الكراج لنودع عباس في الباصات الذاهبة لعمان حيث سيأخذ طائرته المغربية من هناك، فلا مطار في العراق ولا طائرات في أعوام الحصار، وعلى المسافر أن يذهب إلى الأردن حتى يستطيع السفر بالطائرة، وقد كان عباس سعيدا وهو يترنح أمامنا بكرشه ورأسه المفلطح وغبطته التي لم يكن قادرا على كتمانها، وحين صعد في الباص أطل علينا من النافذة وصاح: «باي باي يا روح ديالي».

مكتبة الفكر الجديد

مشهد

كنت ملقى على السرير في الفندق، ورائحة اللبان المرمي في المنفضة على الطاولة أمامي وحدها الرائحة المميزة في هذا المكان، كنت غارقا في العرق والمروحة تدور بسرعة فوق رأسي فتجف ناحية من جسمي وناحية تغرق بالعرق، فتحت عيني الاثنتين. من القهوة القريبة من الفندق يصلني صوت أم كلثوم برتابته وإلحاحه على لازمة واحدة، وخبطات قطع الدومينو تتناوب بشكل منتظم، الصوت البشري الوحيد هو صوت جارتنا المتعب وهي تنادي ابنها.

ذهبت إلى الحمام غسلت وجهي بالصابون، فتحت الشباك.. كان الهواء الساخن ينبعث من عمق الشارع وأنا أكاد أذوب من الحر، كان العرق يغزو جسمي ويشعرني بالضجر..لقد مر شهران تقريبا ولم يصلني من عباس أي شيء، لا كارت ولا رسالة ولا برقية، شعرت بأعصابي تفور.. كان كل شيء أمامي يفقد طعمه.. شعرت بالخوف.. ماذا فعل عباس.. لماذا لم يرسل لي رسالة أو كارتا أو أي شيء آخر.

فقررت أن أكتب رسالة إلى عيشة.

لم تكن في حجرتي أية طاولة، كان حائط الشباك هو الذي أستعمله لهذه الأشياء، الطابعة وضعتها تحت السرير بعد أن لفيتها بقميص عتيق استغنيت عنه، وحقيبتي مازالت محزومة كما هي..لا أدري في أية لحظة تأتيني بطاقات الطائرة من عباس وعيشة، فألقف حقيبتي وأشلع بها نحو الكراج ثم إلى الأردن فالمطار..ثم في الطائرة وبعد ذلك أحط في طنجة وهناك سيكتمل مشوار حياتي..عاطل عن العمل جندي متسرح وكاتب مغمور..ماذا ينتظر..هل هناك من مدينة أعظم من مدينة طنجة؟.

كتبت:

عزيزتي عيشة

مكتبة الفكر الجديد

لقد سافر عباس منذ شهرين للالتحاق بك، ولكن للأسف لم يرسل لي أية رسالة أنا قلق عليه جدا هل وصلك...هكذا كتبت بشكل مختصر دون إطالة..دون زوائد..ثم كتبت بيتا من قصيدة البحيرة للامارتين أعلى الرسالة..بذكاء لا يخلو من الخبث، لكي أفهمها بأني لست صديق عباس وحسب، إنما أنا شخص مهم في العملية برمتها، أنا صانع ومدبر ومخطط زواجها، وإني أنا كاتب الرسائل الغرامية وبالتالي عليها أن تقدر هذا أو تفرضني على عباس إن كان قد غير تفكيره.. أو كان على وشك أن يغدر بي، فتقول له لا شلون هذا أبو الكلمات الرقيقة تعوفه ها الشكل.. (باللهجة المغربية طبعا) وبالتالي ستصلني بطاقات الطائرة، وكمية من المال، وتسهيلات أخرى، وسأصل إلى طنجة، وهناك ستتغير حياتي برمتها، من كاتب مغمور إلى كاتب مشهور، من العيش في مدينة منسية ومنفية ومحاصرة إلى مدينة بحرية كوزموبوليتانية ومفتوحة، من التعفن في فندق يحمل بشكل مزور ثلاثة نجوم وكان بالأحرى بسركيس أن يضع محل النجوم الثلاث ثلاثة كعوب لأحذية عتيقة لأنها تدلل بشك صحيح على حالة الفندق الرثة، إلى السكن في شقة بحرية جميلة ونظيفة.

رسالة عيشة

في يوم كنت وصلت الأستوديو متأخرا، ولدى باب الشقة وجدت رسالة من عيشة، يا لفرحتي تلك اللحظة وغبطتي التي لم أستطع كتمانها، صرخت..أخيرا...التقطت الرسالة وطفرت السلم درجتين درجتين نحو الأعلى، كنت أصعد دون أن أمل من النظر إلى شكل المظروف المختلف بطبيعة الأمر، وللطابعين البريديين المختلفين أيضا، الأول يحمل صورة الملك محمد الخامس، والثاني صورة لطنجة البحرية، سقطت على السلم نهضت، شممت رائحة المظروف العذبة والمخمرة، قفزت به عاليا، وفي حجرتي توقفت دون أن أرد الباب أو أغلقه، وفتحت المظروف بيدي المرتجفتين بسرعة وضربات قلبي ترن في رأسي بقوة، قرأت الرسالة بسرعة

مكتبة الفكر الجديد

خاطفة..لم أفهمها..اضطربت، ثم تنفست الصعداء.. كي أترك أعصابي تهدأ، وبدأت بقراءتها جملة جملة، وكانت النتيجة معقدة جدا:

«عباس لم يصل إلى طنجة لحد الآن..وأسأل الله أن لا يصل، حين قرأت رسالتك عرفت بأنك أنت الذي كنت تكتب الرسائل لا عباس، وإن من وقعت في حبه أنا هو أنت، إني واثقة بأنك كتبتها بعاطفة تعادل العاطفة التي كانت عندي، فحينما كنت أقرأها كنت أشعر بأن الذي يكتبها بهذه المشاعر لا بد أنه أحبني دون أن يراني..وأنا أحببتك دون أن أراك، وأعرض عليك الزواج، فإن كنت تستطع الوصول إلى طنجة سأقوم بالترتيبات اللازمة، وسأخبر أهلي بذلك، وتكون كل الأمور على ما يرام حينما تصل.

عيشة

طنجة».

طبعا لا يمكن لأحد أن يتصور شعوري تلك اللحظة، واضطرابي وضخامة الحدث الذي لم يكن لدي القدرة على استيعابه، أولا أين عباس، أو أين ذهب عباس؟

كنت مضطربا تماما، هل من المعقول أنه ضل طيارته؟

طبعا أنا لم أسافر من قبل مطلقا، ولم يكن لدي أي تصور عن كيفية السفر بالطائرة، فقلت في نفسي بأنه..ربما..تتجمع الطائرات في المطار مثلما تتجمع الباصات في الكراج، وبدلا من أن يصعد عباس في الطائرة الذاهبة إلى المغرب صعد في الطائرة الذاهبة إلى تونس فهي قريبة من المغرب وربما تشبهها! أو أخطأ بالمرور فصعد بالطائرة الذاهبة إلى أفريقيا مثلا، أو بالطائرة الذاهبة إلى برلين أو لندن..وهذا شيء عظيم!! فقد اختصر عباس المسافة كثيراً.. ومن يدري..ربما اكتشف وهو في منتصف الطريق بأنه استقل الطائرة الخطأ..سأل الجالس بجانبه وعرف بأنه استقل الطائرة

مكتبة الفكر الجديد

الخطأ.. يا ما فعلناها أنا وهو وصعدنا من كراج الباب الشرقي بباص باب المعظم بالخطأ بعد أن كنا نعتقد بأنها الباص الذاهب إلى الكرادة، وإذا كنا حين نخطأ بالباص نهبط في منتصف الطريق ونعود مرة أخرى للكراج لنأخذ الباص الصحيح فإن أمر الطائرة مستحيل..

«فهل يمكنه أن يهبط وسط البحر ويأخذ القارب ويعود به إلى المطار.. ليأخذ الطائرة الذاهبة إلى المغرب؟..بالتأكيد لا».

إذن سلكها كما يقول البغداديون بالذهاب إلى البلد الخطأ..مو المهم البلد الذاهب إليه..المهم خلص من البلد الذي كان فيه..وعلى طريقة الأفلام المصرية وجد له شابة طلقها زوجها أو تركها حبيبها فجلست في الطائرة وهي تبكي وجلس إلى جانبها عباس..وأجبر بخاطرها، فاصطحبته معها إلى بلدها، وإن راحت عيشة أكو ألف واحدة أحسن من عيشة، وذهبا هناك ليتزوجا..(حظ ابن القحبة أحسن من حظ ابن الشريفة) قلت متحسراً وحاسداً له في نفسي.

عباس وجد بالتأكيد ما يريده وإلا لماذا لم يصل إلى عيشة، وها هو ما بحثت عنه أصبح بين يدي ميسراً كل ما حلمت به تحقق، كل ما كان مستحيلاً أصبح كما أردته وكما فكرت به، لقد أصبح بين يدي: عيشة، وطنجة، والسفر، والحياة، والبحر، و..الخ..الخ..الخ..بقي شيء واحد هو كيف أصل إلى طنجة؟..فالمال قد تبخر ولم يعد عندي منه شيئاً..عباس قلب بالدخل.. أخذ الألف دولار وتبخر..الأستوديو أصبح لصخب وليد وتمارى ومرحهما، وأنا أتعفن أكثر من الأول في فندق سركيس، فلا أكملت روايتي ولا سافرت، وبالتالي سأبقى الكاتب المغمور، أو المغمور الأبدي..

جلست على دكة الشباك قرب شيف بطيخ بائت يرقص فوقه الذباب.. وكتبت إلى عيشة رسالة عاطفية ضمنتها قصيدة لجاك بريفير كنت أحفظها عن ظهر قلب، وقلت لها بالحرف الواحد إني لا أملك الآن أي شيء..أنا

مكتبة الفكر الجديد

مفلس تماما..لأني بعت الأستوديو بألف وخمسمئة دولار، أعطيت الألف دولار لعباس ليسافر بها إلى طنجة ولا أعرف أين ذهب بها، وخمسمئة دولار صرفت معظمها على السكن في الفندق حيث أجرت لثلاثة أشهر مقدماً، والكثير من المصروفات والمستحقات.. وعليه إذا كان بإمكانها أن ترسل لي ألف دولار كي أتمكن بها من دفع ضريبة السفر وهي باهظة في العراق.. ودفع رسوم السفر إلى الأردن والحجز بالطائرة حتى الوصول إلى طنجة.. وتوسلت كثيراً وأنهيت الرسالة ببعض الأبيات من قصيدة الحرية لبول إيلوار، كما تذكرتها هي وأخطاءها، وقد أزدت عليها كثيرا، فبدلا من أن أكتب كتبت اسمك على الأشجار، كما هي في قصيدة إليوار، غيرتها إلى: كتبت اسمك على أشجار طنجة، وهكذا.

..وركضت إلى مكتب البريد ودفعتها في الصندوق، وعدت إلى الفندق، فلم أذق ذلك اليوم طعم الراحة مطلقاً، فقد كنت قلقاً جداً ومضطرباً وشعرت بالحمى تغزو جسدي، ولكني من جهة أخرى كنت أشعر بأن الأمل بالسفر قد تجدد، وعاد، وأن فرصة السفر وهذا مهم جدا قد أصبحت أكثر معقولية الآن، وأكثر واقعية بكثير مما مضى.

جواب

بعد أقل من أسبوعين وصلتني رسالة من عيشة، كاد قلبي أن ينخلع من مكانه وأنا أقرأ:

(Mon amour...
Je pense á toi jours et nuits, on va depasser facillement les obstacles.
J'ai parlé á ma mère et á mon pere ; ills sont d'accord, Je t'attand ici á Tange.
Je te rembourserai tous les frais de ton voyage a ton arrivé, ici, á Tange.
Ta bien aimée Aisha. Tange)

مكتبة الفكر الجديد

(حبيبي..

أنا أفكر فيك ليلاً ونهاراً، سنجتاز الصعوبات

بسهولة. فقد حدثت أمي وحدثت أبي.ووافقا..

وأنا أنتظرك هنا في طنجة.

سأعوضك كل مصاريف سفرك عند وصولك

هنا في طنجة

حبيبتك عيشة

طنجة).

يا إلهي عاد كل شيء كما كان مع عباس، إنه العود الأبدي للازمة ذاتها، إنه العود الأبدي للأشياء والمظاهر بشكل لا يصدق، ربما فقد نيتشة عقله بسبب هذا العود الأبدي، شيء غير معقول، شيء لا يمكن احتماله، كدت أفقد عقلي، شعرت بأني على حافة الانهيار، ماذا أصنع؟ كيف أفهمها؟ رسالتها نسخة طبق الأصل تماما من الرسائل التي أرسلتها إلى عباس لأن وضعي هو الآخر يشبه وضع عباس..إذن..ماذا أصنع..كيف أتصرف لأحرز نتائج مختلفة عن الوضع الذي انتهى إليه عباس وإلا سندور في الحلقة ذاتها..أنا أقول لها أرسلي لي المبلغ وهي تقول لي تعال وأنا أعوضك عن خسارتك.. سنعيش التاريخ وهو يدور دورته ذاتها،..لا سبيل لي سوى أن أكتب لها..فكتبت لها رسالة طويلة، أكثر من خمس صفحات، قلت لها يا ملاكي الصغير أرسلي لي المال كي ألتحق بك، فأنا أحترق من حرارة الحب واتعطب، قلت لها بأني سأفقد عقلي إن لم ألتحق بها، وكنت أتمنى أن تدرك هذا الألم الذي يعصر قلبي، وهذا الشوق الذي يدفع بي للخلاص، والرغبة بالهروب، كتبت أشياء كثيرة وضمنتها الكثير من أبيات الشعر والجمل العاطفية الرقيقة والحنونة..وناديتها بالطفلة القديسة التي سوف تنقذني من هذا المكان الخرب والمدمر، ورفعت يدي للسماء متضرعا..جثيت على ركبتي وتوسلت الله أن يقوي قلبها وترسل لي الألف

مكتبة الفكر الجديد

دولار كي أرحل إلى طنجة وهناك سأصبح الكاتب المشهور الذي حلمته.. فلم أعد أحتمل بعد هذا أبداً، لقد أصبحت على حافة بئر عميق من الماء الآسن لا كتابة ولا صخب ولا نساء ولا ثقافة ولا سياسة ولا حياة.. لقد كنت أنتظر الخلاص بتصلب وجزع، أتأمل الطيور المهاجرة بحسد، وأتذكر هذه المدينة المشمسة البعيدةطنجة..وأرى عيشة المخلوقة الرائعة (لم أرها أبدا..ولكن عباس أراني مرة صورة مغربية تشبهها) وهي تغرق بروعتها جسدي، وتغطيني الفتنة النابعة من عينيها وجلستها الهادئة وثوبها المنشور المثنى، وأنا أمام طابعتي تاك تاك تاك.. وأكتب الرواية التي سوف تقلب الفوق حدر كما يقول أهل البصرة.

غالبا ما كانت صورة عيشة تحيط بي وأنا أتعرق تحت المروحة في الحجرة الخربة في فندق سركيس، الفندق الذي كان أحرى به أن يضع على واجهته ثلاثة كعوب لقنادر رثة من أن يضع ثلاث نجوم، غالبا ما كانت صورتها تحتل مخيلتي كتعويض عن البؤس الذي كنت أعيشه، والشعور بالإحباط الذي كان يمزقني، أما الصورة الأكثر إلحاحا هي صورتي وأنا أكتب على الطابعة بينما تكشف النافذة مشهد البحر، وفي الشقة الصغيرة النظيفة أسمع صوت أقدام عيشة الحافية وهي ترفرف في الصالة.

ولكن العذوبة المتناهية والتأمل الصامت والغبطة الأبدية كانت تتحطم على جواب عيشة المتكرر لرسائلي، واللازمة ذاتها: تعال إلى طنجة، وأنا سأعوضك عن كل خساراتك.

يا إلهي كيف أفهمها إن خسارتي هي بقائي هنا..كيف؟

وأعدت الكرة مرة أخرى، وكتبت لها رسالة طويلة أيضا، توسلت بها كثيراً، عليها أن تعرف جيداً.. لا بد أن تعرف إن حياتي هي البؤس من دونها، وفصلت لها بعض الأشياء عن حياتي الكتابية، وصورت لها هذه الأحلام التي كانت تجتاحني وقتها، مشهد البحر من النافذة وأنا أكتب،

مكتبة الفكر الجديد

عريها الذي يترقرق في الفراش أمامي مثل الماء تنفذ به أشعة الشمس إلى عمقه، كتبت له بعض الأشياء الإيروتيك..لأني كنت أسمع أن المغاربيات شهوانيات وحسيات..و..الخ..وقلت لها بأني متأثر بالثقافة المغاربية وأكره الثقافة المشارقية..قلت ربما تحمل هذه الصفة الإقليمية والجهوية مثل أكثر المغاربة، وقلت لها بأني ضد تهميش المغاربة في الثقافة العربية وقلت لها إني سأكتب عن ابن الرشد..وعن الجابري أيضا.. وأنهيت الرسالة بالأشياء السياسية فسألتها باسم العروبة التي تجمع المغرب بالمشرق أن تشفق على بائسي الحصار في العراق، أليست الرابطة القومية هي التي تجمعنا، وقبل أن أغلق المظروف تذكرت شيئا مهما، ماذا لو كانت أمازيغية؟ فعباس هذا الحمار لم يقل لي شيئا حول هذا الأمر لأنه لا يميز في هذه الأمور مطلقا، فكتبت لها جملة صغيرة في نهاية الرسالة، جملة زائدة وبخط صغير لأنه لم يبق مكان في الرسالة غير مكتوب: بأني من أنصار الأخوة العربية البربرية، ومن محبي التراث الأمازيغي.

لو كانت من أنصار الشيطان ذلك اليوم لناصرتها، ماذا أصنع، وقلت يا إلهي ماذا يصنع واحد مثلي عاش عصر القومية العربية بالحصار العربي.. وهو لم يصل يوماً سوريا ولا الأردن ولم ير الكويت إلا مع الجيش المحتل.. يا إلهي الذي منحتنا القومية العربية من المحيط إلى الخليج نعمة لا نقمة، أشفق علينا..أما من مخرج أبداً.. إخواننا يقولون لنا اصمدوا تحت الحصار..جوعوا وتعروا..بيعوا شبابيك بيوتكم..وطابوقكم وبلاط غرفكم.. وملابسكم وأحذيتكم الرثة..وتناطحوا بينكم من أجل حفنة طحين..أو خبزة.. وحشوا بطونكم بالباذنجان المشوي..ألا تستحق الرابطة القومية موتكم؟

أرسلت الرسالة في البريد بفرح طفولي، لم تكن في يدي أية حيلة سوى تغيير ستراتيجية الحب نحو تكتيك السياسة، فلو استجابت عيشة لطلبي ستكون هذه الرابطة للمرة الأولى في حياتها منذ اختراعها في القرن

مكتبة الفكر الجديد

الماضي نافعة لعربي من المحيط للخليج، ولكن المعوق الحقيقي هو هل هنالك من مواطن عربي يملك الألف دولار؟

كنت أعرف أن جواب عيشة سيصل في غضون عشرة أيام أو أسبوعين بالكثير، وهكذا كنت أعيش على أحلامي وخيالاتي، كنت أعيش على هذا العالم الافتراضي الذي صنعته لنفسي وبنيته طابوقة طابوقة، وكنت أعرف إنه لن يكون مطابقا تماما لما كنت أفكر به ومع ذلك كنت أريده.

مشهد

عدت لتوي من شارع البانزينخانة في البوقلام نحو ارخيته، الخادمات المسيحيات يخرجن من المنازل الفخمة وبأيديهن أكياس نايلون أسود، غيرت الطريق نحو الصيدلية. اشتريت حبتين أسبرين. ابتعلتهما. وشربت كأس ماء من الدكان المحاذي للصيدلية. وسرت.

الزحام كان متربا، ودبق العرق يغلق لي عيني، ينساب العرق من أبطي إلى أسفل، ومن عمودي الفقري ومن رقبتي أيضا، وكنت أتنفس بصعوبة وسط حرارة الشمس اللاسعة.

دخلت الفندق، حاولت الدخول إلى الحمام إلا أن الآثوري الذي يعمل بائعاً في بوتيك الملابس المقابل لنادي الهندية يشغله، حجرته مقابلة لحجرتي، كلما أريد دخول الحمام أجده وقد سبقني هناك، دخلت حجرتي ونظرت من الشباك إلى سطح المنزل المقابل للفندق، رأيت فتاة خارجة من الحمام لتوها وهي تضع المنشفة الوردية على رأسها، كانت ترتدي ثوباً خفيفاً جداً، وأخذت تنشر على الحبل كالسونها وستيانها وأتكها.. كنت أنظرها وأنا أنضح بالعرق، عيناي حمراون وكنت أتنفس بصعوبة.

فجأة سمعت ضجة أسفل الفندق، كان صوت سيارة شرطة توقفت عند الباب من الجهة اليمنى وقد توقف السابلة هناك، فتقدمت هذه

مكتبة الفكر الجديد

الفتاة نحو سياج السطح وأخذت تنظر نحو باب الفندق الرئيسي، فهي يمكنها أن تراه، أما أنا فلا، لأن شباك حجرتي من الجهة الثانية للباب، ولكني بقيت أتطلع إلى الفتاة، إلى صدرها وهو يبرز بثقل عندما انحنت قليلا لتتطلع نحو الضجة في باب الفندق.

كانت الضجة تصعد في السلالم، وكنت أشعر بأنها تقترب من الممر المقابل لحجرتي، ولكني بقيت منشغلا تماما بالنظر إلى صدر الصبية الأبيض وهي تنحني قليلا لتتبين ما يحدث أسفل الفندق، وإلى خيال جسدها من تحت ثوبها الخفيف، كنت أنظر نحوها مباشرة، وهي تنقل عينيها بيني وبين باب الفندق الذي تجمع الناس حوله، كنت أنظرها وأتخيل عيشة عارية مكانها حتى انفتح باب حجرتي من ورائي. التفت. كان عباس واقفا وسط حجرتي ومن يمينه وشماله أفراد من الشرطة بمسدساتهم ودونكياتهم يحيطون به، فتح عباس عينيه على اتساعهما وقال لهم بصوت عال:

«هذا..هذا..».

فقفزوا نحوي، وضعوا السلسة الحديدية بيدي واقتادوني أمامهم. صرخت بهم «ماذا فعلت..؟» لا أحد يجيب، عباس بوجهه الغاضب يسب ويشتم ولا أدري ما هو الموضوع.

نزلنا على السلم، خرجت من الباب، رفعت رأسي إلى الأعلى كانت الصبية تنظر نحوي مندهشة، وصدرها يهبط بثقل على السياج، أدخلني الشرطة عنوة في السيارة، وعياني تذهبان رغما عني إلى الصبية الجميلة التي تتطلع من سياج سطح بيتها نحوي مندهشة.

في مركز الشرطة

في مركز الشرطة بدأ التحقيق معي، فقد ادعى عباس علي أمام الشرطة بأني أنا الذي ورطته في سفره إلى المغرب، ولم أفهم إلا من المحقق بأن عباس ذهب إلى المغرب ولكنه لم يجد أي أثر لعيشة وإن العنوان الذي

مكتبة الفكر الجديد

زودته به لا أساس له من الصحة، لا وجود لهذا العنوان على الإطلاق، وإنه لا وجود لأي واحدة بالمغرب بهذا الاسم سوى أم ضابط الشرطة المغربي الذي حقق مع عباس بعد أن قبض عليه في وكر للصوص ومهربي حشيشة في طنجة، قد خدعوه واقتادوه إلى وكرهم، قالوا له إنهم يعرفون عيشة بنت سعيد، وهناك سلبوه، سرقوا دولاراته وتركوه في الوكر وحده، وقال له الضابط المغربي إن أمه التي تحمل هذا الاسم ماتت منذ خمس سنوات.

سجنت الشرطة المغربية عباس مدة طويلة، وحققت معه، وضربوه، وقالوا له اعترف..كانوا يظنون بأنه جاسوس أو شيء من هذا القبيل، وبعد أن عجزوا أن يفهموا من الحمار شيئا.. اقتادوه إلى المطار وسفروه إلى الأردن، ولكنه ليس لديه مال فاضطر أن يذهب إلى السفارة العراقية في الأردن، فألقوا القبض عليه ظنا منهم إنه من المعارضة في الخارج وسفروه سرا إلى بغداد.

كان وليد وتمارى جالسين هناك في التحقيق أمامنا، تمارى سكتت بحزن وهي تنظر أخيها وحالته الرثة، أما هذا المحتال وليد حين عرف بأن عيشة لا وجود لها، وإننا بعنا المتجر والأستوديو من أجل سراب ولأجل شيء لا وجود له مطلقا، أطلق ضحكة عالية في الهواء، وضع يده على بطنه وأخذ يكركر، كاد أن يبول من الضحك علينا.. سقط من الكرسي وهو يضحك.. فسرت عدوى الضحك للضابط الذي يحقق معنا الذي أخذ هو الآخر يضحك بصوت عال، ولتمارى التي أخذت تضحك بقوة، ثم ضحك عباس أيضا..أما أنا فقد بقيت وحدي صامتا دون أن أضحك.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-٣-
نهاية الثعالب

قبل أن أتحدث عن نهاية الثعالب أريد الحديث عن تفصيل يكمن هنا في حديثي مع أحد المهاجرين عن الماضي.

قال: «إنه شيء قاتلنا من أجله بضراوة».

«بالتأكيد..».

«إن الهجرة هي التخلي عن هذه العظمة المقهورة التي قاتلنا من أجلها بضراوة».

قلت له: «نعم..نعم..». وأنا أشرب البيبسي كولا في الكلاص دون أن أعبأ كثيرا بمعانيه.

صحيح إن السفر هو المكان الآخر، هو المستحيل الذي لن يتحقق مطلقاً، هو ظل السعادة المتقد والملقى دون أن نصل إليه...ولكنه من جهة أخرى هنالك هذا الامتياز الذي تمنحه الهجرة، وهو انتهاك هذه السننية التي فرضتها القوميات الجامحة والتي تقبر أكبر عدد من الناس خلف الحدود والخطوط والخرائط الافتراضية، هذا التشخص الثقافي هو ظل كامد للإمبريالية العالمية من جهة، وظل أبيض وشفيف للكوزموبليتانية المتمردة والتي تطبع العالم كله تقريبا، هذه الأيام.

لقد تحولت البلدان التي عشنا فيها إلى مقابر، وكلما زاد الضيق كلما عظمت الهجرة، المهاجرون في كل مكان من العالم..يقلصون مساحة

مكتبة الفكر الجديد

البكاء ويزيدون مساحة الضحك.. لأن خلف كل هجرة هنالك ما هو مبك، وهنالك ما هو مضحك، المهاجرون هم ثعالب حقيقيون تشمموا الأرض الحرة في الربيع الوردي.

وقبل أن أأتي إلى نهاية الثعالب سأتحدث عن حادثة صغيرة حدثت لي ولصديق، كانت قد حتمتها مساومات طريفة وأخطار متتابعة ومغامرات هازلة مع أحد المهاجرين الهنود المولعين بجمع المخطوطات والكتب القديمة، اسمه سيد رشيد خان.

ذهبنا أنا وصديقي إلى باب الشيخ، وتوقفنا قرب جامع صغير شبه مهدم، بلا منارة، بلا اسم، بلا سياج، تحيط به منازل كالحة، بأبواب مخلعة، وشبابيك مهشمة، أو مسدودة بالخيش، وكانت جدرانها المصنوعة من الطوب تنز رطوبة، كما أنها كانت معراة دون ملاط، وكان سيد رشيد خان يسكن على سطح عمارة مائلة، مظلمة، وسلمها شبه مهدم، ودون أبواب، وفي شارع ضيق مملوء بالقاذورات والأزبال، والقطط النافقة، والجرذان التي تنط من مكان إلى مكان في الظلام، وقد وصلنا في الليل، وحين دخلنا إلى حجرته المسوى سقفها بالجينكو أجلسنا على الأرض، فوق جودلية صغيرة متهرئة ومخدات مزيتة من الوسخ، أما هو فقد رفع قليلا فتيلة الفانوس وجلس على قطعة مشمع سوداء في الطرف وضع فوقها مجموعة من المخطوطات للمنظر والديكور، وبعد أن مص من بطل العرق مصة أو مصتين ضربت النشوة في رأسه، فجاء بنارجيلته المعمرة بالتبغ المصري المعسل، يسحب ثم يبخ الدخان في وجهينا، ويتحدث بلكنة هندية واضحة وبصوت عال ويقهقه، وكل شوية يقول لنا «الله بالخير.. رفيق» ونحن نقول له «الله بالخير... رفيق».

المصيبة إنه رفض الحديث معنا عن المخطوطة التي جئنا من أجلها، وطلب منا الحضور في اليوم التالي مساء إلى حفلة في فندق بابل على

مكتبة الفكر الجديد

الساحل الآخر من نهر دجلة، بمناسبة افتتاح صحيفة أسبوعية، وهناك سيعرفنا على محمود المصلاوي، وهو خبير بهذا النوع من المخطوطات، غير إنه لم يتركنا وحلف بالطلاق إلا أن نمص من بطل العرق ولو مصة واحدة، «رفيق وداعتك ما نشرب» غير إن هذا لم ينفعنا، فمسكت البطل، وشديت النفس بقوة، ومع ذلك دخلت الرائحة النفاذة القوية التي تشبه المنشار في مناخيري حتى كادت أن تقلب معدتي، غير إني والحق يقال شعرت بأن الجينكو أخذ يدور حولي، وأخذ لون المصباح الأصفر الحالك يومض، والدخان الأزرق المتدافع من نارجيلته يكبس على رأسي، وأخذنا أنا وصديقي نقهقه من كل قلبنا ونكح ودموعنا تجري، ثم نهضنا، ودعناه وقبلناه أربع مرات على طريقة السكارى ودسنا فوق الصينية وفوق المخطوطات وهو يصيح: «ولو دستوا على مخطوطات المقريزي..بس فدوة إلكم».

وهبطنا من السلم وهو يصرخ وراءنا:

«دير بالكم رفيق لا تقعون من الدرج».

ونحن نهبط في الهاويات السود، على درجات مطينة من الرطوبة، وزلقة، ومتآكلة، والدربزين مهدم، وكنا متمسكين بالحائط خشية أن تسقط أقدامنا، فيشد أحدنا يده على يد الآخر ونضحك بشكل هستيري ونهتز من الأعلى إلى الأسفل ودموعنا تجري، وحين رأينا بابا مفتوحا دخلنا فإذا بها شقة وعائلة مكركبة فوق بعض، والزعاطيط يتطافرون مثل الشياطين: «إعذرونا يا ناس العتب على النظر..».

فصاح واحد منهم: «والله ما يسويها إلا البقر..».

وانهزمنا من الضحك، وهبطنا درجتين أو ثلاث، حتى وصلت أقدامنا الأرض بحثا عن درجة فلم نجد فعرفنا بأننا أصبحنا في مزبلة الشارع، ندوس على القطط النافقة، فتتطافر الجرذان تحت أقدامنا ونحن نقهقه بقوة ومن كل قلوبنا.

مكتبة الفكر الجديد

في مساء اليوم التالي ذهبنا إلى أوتيل بابل، وهو أوتيل راق، تحمل واجهته الحجرية خمسة نجوم وشعارا عالميا هو أوبروي، وكانت هنالك حفلة، فيها نساء ورجال وسيد رشيد خان يرتدي ملابس أنيقة وربطة عنق، يخرج علبة السجائر الروثمن في اليد اليمنى يشعلها بالقداحة الرونسن ويعيدها إلى جيبه، يضع كأس الويسكي على الحاجز، يأخذ الرشفة بهدوء ثم يعيده إلى مكانه، وحين قلنا له بأننا لا نشرب سكت بتهذيب ولم يلح، وبما أن الحفلة بمناسبة افتتاح صحيفة أهلية فقد كان فيها الكثير من الصحفيين والسعاة والمصورين، وقد تعرفنا هناك على السيد محمود المصلاوي جامع المخطوطات، وكان شخصية غريبة، نصف حكيم، نصف مجنون، ينظر بالعينين مباشرة ويدقق في كل كلمة تقولها، وكان قميصه نظيفا ولكنه بال وياقته منسولة مثل الكرفس، وأزراره مخاطة بشكل ردئ، وبنطلونه عريض وقصير دون حزام يتحدث ويرفعه إلى كرشه، ويرتدي معطفا قديما، وسجائره لف ويده خشنة وغليظة، يتحدث باللهجة المصلاوية القح ولكن بطريقة فظة أقرب إلى لهجة الشقاوات والسرسرية والكلاوجية ممزوجة بعبارات فصيحة ومأثورات تراثية وبعض العبارات التي يستخدمها المثقفون بسنوبية وابتذال مثل» يا صديقي..أيها الجميل.. والخ». وكلما رأى شيئا ساقطا على الأرض يضربه ببوز حذائه، وقد تواعدنا معه في اليوم التالي للقائه في منزله ليرينا المخطوطات التي جئنا لشرائها، وبعد نصف ساعة أو ساعة تحولت الحفلة إلى اصطبل حقيقي بسبب الضحك والصياح والهرج والمرج، فالمصابيح تنير البهو، والثريات أيضا، وفاحت رائحة دخان السجائر والعطور الغريبة من منافض السجائر المليئة بالأعقاب وعيدان الثقاب المحروقة والمقلوبة على الأرائك المزاحة، بينه

مكتبة الفكر الجديد

حين بدأ الندل بإزالة الأواني من الموائد تحركنا أنا وصديقي نحو النافذة، وأخذنا نتحدث عن أشياء متنوعة، فنظرت من النافذة، ما جذبني بهذا الأوتيل تلك اللحظة هو إطلالته الغامضة والعذبة على النهر، ومن الجهة الأخرى من النهر يمكنك أن ترقب ضياء القمر وهو ينير التلال الوعرة التي تحاذي الريف وهي تثقل بطراوتها المالحة على المياه المتدفقة، أما الجسر المنعزل الذي يمحوه الضباب فقد أنارته بشكل خفي القناديل الملونة، وقد كان ينفتح على الطراوة المدهشة التي تقطر ببطء، لقد شعرت هناك وكأني أعيش نوعا من التمجيد الصامت للهروب العذب وهو ينتشر مثل رائحة في الهواء الشفاف.

في الواقع كنت جئت للبحث عن مخطوطات قديمة تخص مؤرخاً وكاتباً تركياً مغموراً إسمه «حميد أورخان «هاجر إلى النجف في القرن التاسع عشر، ثم هاجر إلى أذربيجان حيث مات هناك، لم أكن مهتماً بهذا الكاتب المغمور من قبل على الإطلاق إلا إن صديقي هو الذي طلب مني مرافقته للبحث عن كتب ومخطوطات هذا الكاتب وسر اهتمام صديقي بهذا الكاتب الإسلامي المغمور هو شرحه رسالة المشاعر للفيلسوف الفارسي الشهير «ملة صدرة الشيرازي» والتي تقع في قلب اهتمام الشيعة في الفلسفة الغنوصية.

في صباح اليوم التالي كنا في منزل السيد محمود المصلاوي لقد انصدمنا، فمنزله فخم ونظيف جدا، وأمامه حديقة كبيرة ونظيفة ومشذبة، وقد استقبلنا الرجل بهيئة مختلفة كليا عن هيئته في اليوم السابق، فقد كان يتصنع الود، ويبتسم كثيراً، وكان أنيقاً جداً، يرتدي بذلة كحلية، وربطة عنق حمراء طويلة بيير كاردان، ورائحة عطر الآرامس تملأ الغرفة العريضة الحافلة بالسجاجيد والأثاث الفاخر، وكانت المكتبة الصاج ضخمة، ومكتبه الفخم يحمل كتباً مجلدة بالجلد الثمين ومضروبة بالبنط الذهبي، وهنالك

مكتبة الفكر الجديد

مخطوطات كثيرة نادرة ومتنوعة، واعتذر لنا عن ليلة البارحة، وقال إنه ارتدى ملابس حدائقي منزله لأن الصحفيين يطلبون منه مالا كلما رأوه، وكان الرجل بخيلاً جداً وهو يعترف بذلك، وإن لم يقدم لنا أي شيء كما كان بالأمس يأكل السندويش تلو السندويش بلاش ويشرب الكوب بعد الكوب من الشاي والكأس بعد الكأس من العصائر والشرابت فإنه وضع سجائره على حافة ميز الكتابة قريبا منه ليقول لنا إن سجائره ليست طريدة لكل من هب ودب.

وحدثنا عن مخطوطاته الكثيرة والمتنوعة، ومن بينها مخطوطة صغيرة لحميد أورخان، ولكن المفارقة التي تجلت في النهاية هو أننا بدلاً من العثور على مخطوطة هذا الكاتب التركي في الفلسفة الغنوصية والتي كانت تهم صديقي الذي دفع المال لهذا الغرض عثرنا على مخطوطة ثانوية وصغيرة يتحدث فيها هذا الكاتب المغمور عن صفات وخصائص ونكات الثعالب، وقد بدا محمود المصلاوي الشخص الغريب الأطوار والمولع بجمع المخطوطات الغريبة، هذا اليوم وعلى عكس الليلة الفائتة، متبحراً في التراث، وإن كان ذا نزعة قدرية واضحة إلا أنه كان ساحراً وجذابا في حديثه، لقد حدثنا حديثاً طويلاً عن كيفية حصوله على هذه المخطوطة من سلمان الجلبي الذي التقى المستشرق الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون حين زار الموصل أثناء الحرب العالمية الثانية بحثاً عن مخطوطات تخص الطبخ، وقد التقى به في فندق الموصل القريب من باب الطوب ذلك الوقت، وقد أهداه الأخير مخطوطات نادرة، مثل: الخرافات والأمثال والحكايات الفكاهية لناصر الدين خوجة، وكتاب أندرنولو فاضل باي الذي يحمل عنوان كتاب النساء والذي أثار اهتمام أدولف دوكوردمانش في القرن التاسع عشر، وكذلك مخطوطة الثعالب.

لا أقول إن قراءة هذه المخطوطة الصغيرة قد أثرت بي، إنما أقول إنها

مكتبة الفكر الجديد

غيرتني بالكلية، أولا لأنها نص يطلق ضحكة كرنفالية، وهي ضحكة عيد جاءت من شيعي كلاسيكي معذب بالحس المصيبي والفلسفة التفجعية، وثانياً، لأن ضحك الثعالب نسبة إلى هذا الكاتب المغمور هو سياسة، سياسة ماكرة وتصحيحية تجيء على الدوام بالضد من السلطة التي يمثلها الإنسان، وضد الكلاب الذين يمثلون شرطته.

وثالثا إنها حكمة المنفي في فلسفة الضحك والسخرية والتهكم وهي النقيض المباشر للروح السلبية الهدمية والتدميرية القادمة على الدوام من التحيز والتعصب، وتتحدث هذه المخطوطة الثانوية والمنحرفة بجلاء، عن روح الثعلب التي كان يمكن أن تعمم قبل أن يتم إضعافها وتحريفها، والثعلبة ليست خديعة هنا، إنما سخرية من سياسة المتعصبين المخادعين، وهي روح سلمية لا تلجأ إلى العنف مطلقاً، تسخر من حماقات السلطة وجديتها وتجهمها، وقد يعرف قوتها وتأثيرها ثعالب الناس أكثر من أسودهم وذئابهم.

كنت قرأت المخطوطة في اليوم ذاته الذي عثرت فيه عليها، بدأت بقراءتها في الضحى ولم أهبط من حجرتي حتى أنهيتها في المساء، لقد ضحكت طويلاً، انقلبت على ظهري وعلى بطني من الضحك، كنت أقرأ أحيانا وأهبط من السرير إلى الأرض كي أسكر من الضحك، أعدت بعض المقاطع عشرات المرات وذلك لمرحها الصاخب، ولروحها المتهكمة الساخرة، كنت أشعر بأني أحصل على متعة كبيرة من لغة ساحرة شديدة الحركة والمرونة والحرية والتهكم والإضحاك، من روح ثعلبية متظاهرة بالغفلة والانخداع لكنها قادرة على طرح الأسئلة المخادعة والماكرة، أقول لقد شعرت بمتعة كبيرة متحررة، متعة متحصلة من البهجة التي تبعثها هذه التسليات الأخلاقية، واللعب العقلي بالأفكار.

يطرح حميد أورخان مسألتين مهمتين عن الثعالب، الأولى هي الهجرة، فالثعالب مرحة لأنها لا تستقر على حال، والثانية إن الثعالب مرحة لأن

مكتبة الفكر الجديد

مرحها لا يأتي إلا حينما يكون الإنسان وسط الرصانة والتجهم، فعرفت: إن ما كنا نصارع من أجله هو الضحك، وإن الضحك لن يأتي إلا وسط هذا التكلس الذي يبني الإنسان به وجهه، السلطة، الأوامر، الجدية القصوى، الرصانة الإدارية، التحفظ الاجتماعي، والحزن، وهكذا فإن الضحك لن يكتسب معناه الحقيقي إلا من خلال اضطراب السياق في الأماكن المحزنة والمتجهمة..الضحك في العزاء عند اضطراب سياق التعزية في موقف ضاحك، الضحك في الأماكن الرسمية حين يختل موقع الرصين فيبدأ الحاضرون بالضحك..وهكذا حينما كنا جنودا في المواضع كنا نضحك أكثر مما كنا نضحك في الإجازات، وفي الحصار ضحك الشعب على نفسه وعلى الحكومة أكثر، والمهاجرون هم الضاحكون والمضحكون وسط الرصانة المحزنة واليأس.

بعد أن فشلت خططنا جميعها -عباس وأنا- في السفر إلى طنجة، وبعد أن عرفنا أن عيشة لا وجود لها، بل أصبحت لدي قناعة أن طنجة لا وجود لها، وعلي أن أصنع طنجة أخرى في بغداد، وأن أجعل من الكتابة طنجتي ومنفاي، غادرت فندق سركيس وعدت إلى بيت أهلي.

كنت استبدلت الرحلة الحقيقية والهجرة بالرحلة الخيالية والرواية، وعدت للكتابة مرة أخرى، وكتبت بالإنكليزية على جدار حجرتي في بيت أهلي بيت شعر لدريك والكوت: «آي هافنت نيشن آي هاف إيماجنيشن» أنا لا أملك وطنا أنا أملك خيالا، وانسعدت جدا بهذه الجملة، وكان صدور كتاب هومي بابا وعنوانه (نيشن آند ناريشن) (الأمة والسرد)، قد هبط علي مثل هدية، فقد كان العنوان موحيا بما أفعله، وبالفعل عملت الكثير في تلك الفترة، كنت أكتب من الصباح حتى المساء، وبعض الأحيان أواصل الكتابة يوما بيوم مثل العبيد، ونجحت في نشر بعض الموضوعات المهمة في الصحف والمجلات، وأصبحت أكتسب اهتماما أكبر من ذي قبل،

مكتبة الفكر الجديد

كما إني كنت على وشك نشر روايتي الأولى، وفي تلك الأثناء برزت بعض الأحداث المهمة في حياتي: كنت عملت في هيئة تحرير مجلة أدبية، وبدأت بالتحضير لشهادة الماجستير في الأدب الفرنسي في الجامعة، وكنت أشعر بنوع من الاستقرار الزائف، ووسط هذا الانشغال الكلي لم أذهب إلى الكرادة أبدا، وإن كنت متشوقا لمعرفة أخبار تمارى وعباس ووليد إلا إني لم أسمع عنهم شيئا.

وفي يوم التقيت مصادفة بوليد في الشارع المقابل لأكاديمية الفنون الجميلة في الوزيرية، كدت أطير من الفرح، هجمت عليه وعانقته، كنت أشعر بحنين شديد لسماع أخباره، وكان هو كعادته على برودة القديم، وعدم اكتراثه المتصنع، والإهمال الذي يبديه إزاء الآخرين ليبدو مترفعا على العواطف والسخافات والترهات الشعبية، وحين سألته عن عباس وتمارى، قال:

«ما تعرف؟..».

«لا...».

«سافر إلى المغرب...».

«أبن القحبة...». قلت دون أن أقدر على كتمان دهشتي..وشرح لي كيف أنه تعرف على فتاة كندية تعمل في منظمة إنسانية في المغرب تعنى بالشباب الضائع، وسافر معها إلى الرباط.

«كيف تفاهم معها بكرشه..». قلت له حاسدا، ومدركا بأنه لا يعرف أية لغة يمكنه أن يتفاهم بها لا مع كندية ولا مع غيرها.

««وتمارى..»

«تزوجها واحد مهاجر للسويد..».

«بنت القحبة..» وقد كنت شديد الحسد لكليهما.

أما هو فقد رفض الجلوس معي في مقهى «حوار» القريب من أكاديمية

مكتبة الفكر الجديد

الفنون الجميلة، في الوزيرية، وقال إنه على موعد مع خطيبته، وهي من عائلة تسكن في شارع الأميرات في المنصور، وإنهما يعدان نفسيهما للهجرة إلى فرنسا..قلت له:

«ابن القحبة..»..ثم ودعني وذهب.

في الواقع أخذت أرى وليد في تلك الفترة أكثر من ذي قبل، كنت أراه من وقت إلى وقت، وفي إحدى المرات رأيته في الجامعة، إلا أننا لم نقف طويلا، كنا نتحدث بشكل سريع ونفترق.

وفي أحد الأيام – اليوم التالي لضرب أميركا لبغداد بالصواريخ في العام ١٩٩٨- اتصل بي صديق، كان يعمل ضابطاً بالشرطة في بغداد اسمه زكريا، كنت تعرفت عليه في الجامعة أثناء تحضيره لأطروحة ماجستير في علم النفس، وكان شاباً مثقفاً جداً ومهذباً أيضاً..لم يقل لي شيئاً، إنما طلب مني فقط الحضور إلى مركز شرطة المنصور، وحين وصلت واجهني بقضية غريبة.

قال لي إن أحد قتلى الغارة الأميركية بالأمس كان قد رآه معي في الجامعة مرة، ولكنه لا يحمل أوراقاً في جيبه، وإن كل المعلومات المتوفرة هو إن اسمه وليد الحريري يدعي بأنه ابن دولة رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري!!! تجمدت قدماي، وشعرت بجفاف في حلقي، فطلبت منه كأس ماء.

كان وليد قد خطب فتاة من طبقة ارستقراطية بغدادية عن طريق ادعائه بأنه ابن رئيس الوزراء اللبناني، وقد قضى بالأمس السهرة في منزل خطيبته، وعند خروجه سقط الصاروخ على منزل في المنصور قبالة منزل خطيبته، فضربت قطعة آجر رأسه وقتلته في الحال.

كان صديقي الضابط يحاول أن يأخذ معلومات مني عنه، غير إني في الحقيقة لا أعرف الكثير سوى ما يطلقه هو عن نفسه، وكعادة الضباط

مكتبة الفكر الجديد

الأذكياء يقدم المعلومات الصادمة واحدة بعد أخرى وعلى نحو دراماتيكي، ومثلما أدهشني وليد طوال معرفتي له فقد أدهشني بعد وفاته وصدمني، فقد قال لي صديقي الملازم بتعبيرات وجهه الصارمة وعينيه الذكيتين:

«إن وليد عراقي وليس لبنانيا....».

فتفاجأت، لم أكن أتوقع هذا الأمر مطلقا، وأخذ يقدم لي بعض المعلومات من الأوراق التي بين يديه:

كان والد وليد شاعرا، قد ذهب للقتال أثناء الحرب الأهلية اللبنانية مع الحزب الشيوعي في لبنان، وبعد ذلك عاد إلى بغداد فتصادفت عودته مع تصفية الشيوعيين في العراق، فألقي القبض عليه وعذب من قبل المخابرات، وبعد ذلك استغل فرصة فتح السفر للشيوعيين فهرب هو وزوجته وإبنه وعاد إلى بيروت مرة أخرى، وأخذ يكتب في الصحف والمجلات ومنها مجلة الرصيف، مع مجموعة غريبة من الكتاب الهاربين إلى بيروت والذين يحملون أسماء مستعارة وليست أسماءهم الحقيقية، مثل آدم حاتم، وأبو روزا وولف، وغيلان..وغيرهم، وهكذا أدركت أن الحركة الأدبية التي أطلق عليها الرصيف والتي تحدث لي عنها مرة ولم أصدقه، كان لها وجود حقيقي، وإن والده كان معهم غير أنه مات بحادث سيارة، ثم تزوجت والدته من لبناني في زاروب الصفح في بيروت، ولأنه لا يحمل أوراقا لبنانية فقد طاردته الشرطة هناك، فتحولت حياته إلى جحيم فقرر العودة إلى العراق، غير أنه كان خائفا من مسألة الجندية التي عليه أن يخدمها في الجبهة، فدخل العراق بجواز لبناني مزور كي يتخلص من العسكرية، عاش في لبنان كمهاجر غير شرعي لا يستطيع التنقل من مدينة إلى أخرى، وعاش في بغداد كمهاجر غير شرعي لا يستطيع التنقل من مدينة إلى أخرى، ووسط هذا الخوف والتجهم كان الثعلب يطلق نكاته العملية وضحكاته الساخرة.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أخذني صديقي الضابط الشاب من يدي إلى الثلاجة التي ترقد بها جثة وليد، وأزاح الشرشف الأبيض عن وجهه، كانت ملامحه مبتسمة، كان وجهه وجه الثعلب المرح وهو يطلق آخر جمله الضاحكة، وطراوة وجهه وصلعته الفينيقية التي تشبه القبة تنبئ بما فيه من عطش شديد للحياة.

سرت في الشارع المؤدي إلى السباق القديم، كان الشارع مظلما تقريبا ما عدا ضوء ينبعث من مصباح صغير معلق في طارمة منزل مطل على الشارع، ولايتات السيارات التي تمرق بسرعة في الشارع ثم تختفي، حتى أصبحت في الشارع العريض بمحلاته التجارية ومطاعمه وأكشاكه، توقفت، نظرت إلى المكان بزحامه وصخبه، شعرت بأن كل شيء في الحياة أصبح تلك اللحظة رتيبا، أملسا بلا زخرفة، كل الوجوه بلا ملامح، كل الألوان قد خلت من سحرها ومن جاذبيتها، كل شيء هنا في مدننا هو دبق وكريه ومقزز مثل مزبلة.

صرخت، ركضت..ثم توقفت وشعرت بأني غير قادر على البكاء.

كان علي أن أصدر يأسي الهازل والصادر عن حمى غاضبة كي لا أنتحب.

كنت بحاجة لأن أشتم، ولكن بأي شتيمة يمكنني أن أشتم لكي أرتاح؟ بأي لفظ لامع وسوداوي يمكنني أن ألطخ وجه عرقنا كي أرتاح؟ أي مصيبة لم نشتريها بأربعة فلوس: هزائمنا، قتلى حروبنا، أم الذين شنقوا في السجون، أم هؤلاء الذين يموتون من الوشاية والإفراط، أم الذين سلخت جلودهم من التعذيب، أم مرضى الفقر والعيوب، أم القتلى بسبب الهذر السياسي الكاذب.

ارتجفت..وشعرت بأني رأيت القاع..كنت مثل سكران أسير وأترنح..رأيت القاع..شيء لا يتزعزع..هذا هو شعب القاع..هذا انحطاطنا بالتأكيد.. إنه انحطاطنا.. وهذر سياسيينا.. إنها مدينتنا..مدينتنا المملوءة بالحشرات

مكتبة الفكر الجديد

والهوام..كل شيء فينا هو في حالة احتضار.. انه انحطاط عرق ومدينة.. انحطاط عرق بالتأكيد..وانحطاط أمة..نحن عرق..قلت..عرق في طريقه إلى التلاشي والضياع..

نعم..نحن الجيل الأخير من عرقنا..عشنا في مأدبة كبرى للأخطاء، نحن جيل الأخطاء حلمنا على وسادة آبائنا، حلمنا بكل شيء: حلمنا بالحب وبالصخب وبالنساء وبما لا أدري أيضا، لكننا حلمنا بالطريقة الخطأ، آباؤنا خطأ، سياستهم خطأ، ثقافتهم خطأ، دولهم خطأ، وحتى عاهراتهم خطأ.

مكتبة الفكر الجديد

علي بدر روائي عراقي حصل على العديد من الجوائز، وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، صدر له: بابا سارتر ٢٠٠١، شتاء العائلة ٢٠٠٢، صخب ونساء وكاتب مغمور ٢٠٠٣، الوليمة العارية ٢٠٠٤، الطريق إلى تل المطران ٢٠٠٥، الركض وراء الذئاب ٢٠٠٦، مصابيح أورشليم ٢٠٠٧، حارس التبغ ٢٠٠٨، ملوك الرمال ٢٠٠٩، الجريمة الفن وقاموس بغداد ٢٠١٠، أساتذة الوهم ٢٠١١.

مكتبة الفكر الجديد

عالم صاخب من النساء والفنانين والشعراء المزيفين، الذين يتجمعون في أستوديو صغير في بغداد، حيث تدور أحداث حياة الكاتب المغمور، الذي يحلم بكتابة رواية يحصل من خلالها على المال والجوائز والنساء، وتتعرف من خلال هذا المكان على: سعاد التركمانية ممثلة الإعلانات الشهيرة، وتحولاتها من عشيقة لأحد كبار الضباط في حكومة الزعيم قاسم إلى عاهرة في الفنادق الرخيصة، وليد، الشاعر الفاشل، الذي يعيش على حساب الآخرين بمظهره الأرستقراطي الزائف، تمارى، بفضائحيتها وحركاتها الإيحائية، عباس الذي يتعرف على عيشة المغربية، ويعيش معها قصة حب صاخبة عبر الرسائل.

رواية تظهر التعدد المذهبي، واختلاف الإثنيات واللغات التي تختلط في شارع واحد، وعلى خلفية حياة الناس نشهد ثورات الشيوعيين والقوميين، الانقلابات العسكرية، صراع الفئات الاجتماعية والطبقية في العراق.

... أعظم مؤرخ للتواريخ الهامشية وللقصص والحكايات المهملة والتي يصوغها بإطار ساخر، بل يعد علي بدر من أبرز الأصوات في الرواية العربية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وترجمت أعماله إلى لغات أوربية عديدة.

الصحفية الأميركية ماري وايمبل

ISBN 978-91-87373-23-7
9 789187 373237
دار نون للنشر
طبعة شعبية

مكتبة الفكر الجديد